ثورة النقد فى عالم الأدب
والفلسفة والسياسة

القسم الثانى

كتب وشخصيات
من منظور الثورة النقدية

الجزء الأول

د/ عاطف العراقى

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
ت: ٥٣٥٤٤٣٨ - اسكندرية

كتب وشخصيات من منظور الثورة النقدية

القسم الثانى "جـ ١"

ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة

القسم الثانى "جـ١"

د/ عاطف العراقى

كمبيوتر : (دار الوفاء)

الطباعة : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

شارع ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة أمام بلوك رقم ٣

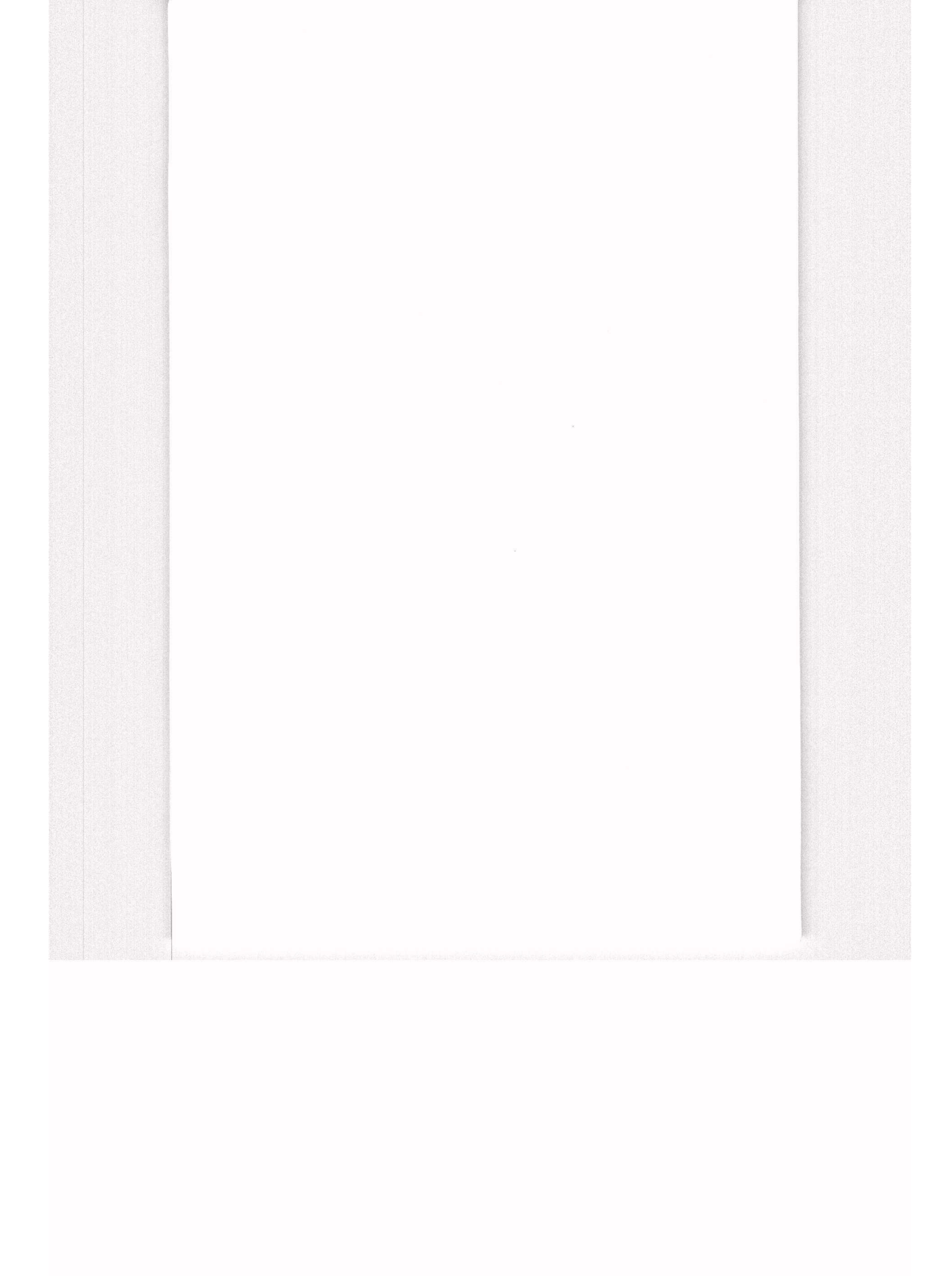
الرقم البريدى : ٢١٤١١ – اسكندرية

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٩١٥٣

الترقيم الدولى: 1 - 066 - 327 - 977



الزعيم الخالد / مصطفى النحاس باشا



الإهـــــداء

إلى روح الرجل الذى تجسدت فيه القيم النبيلة والأفكار السامية.
إلى من خصص حياته لخدمة أبناء مصر والعروبة.
إلى من التقيت به وأنا فى المهد صبياً. واستوعبت كلماته منذ سنوات الشباب.
إلى من ظلم حياً وظلم ميتاً.
إلى الزعامة والزعيم " **مصطفى النحاس باشا** "
أهدى هذا الكتاب حتى تسعد روحه فى السماء.
وأنا أقول فى شوق لها مخاطباً بعد حياتى التى امتزج فيها الألم بالشقاء:
اذكرينى.... فقد آن الآوان للقاء الروح بالروح،
بعد أن باعد بيننا الزمان والمكان.

عاطف العراقى
٢٣/٨/١٩٩٩م



شكــر وتقــدير

يتوجه المؤلف بأعمق آيات الشكر والتقدير لجميع المؤسسات الفكرية والثقافية داخل مصر وخارجها والتى استمر التعاون معها طوال فترة إعدادى لهذا الكتاب، ومازال التعاون بينى وبينها مستمراً. كما أتوجه بشكـــرى إلـــى جميع الزملاء والأصدقاء الذين شاركوا فى المعارك الفكرية التى أشرت إليها فى هذا الكتاب، رغم الخلاف بينى وبينهم. لقد كانت آراؤهـــم النقديـــة فـــى مجالات الأدب والفلسفة والسياسة عاملاً رئيساً لتعميق دائرة الحوار وإبـــراز الثورة النقدية.

عاطف العراقى

تقـــديم

هذا هـو الجزء الأول القسم الثانى من كتاب ثورة النقد فى عالم الأدب والفسلفة والسياسة. وإذا كنا فى القسم الأول فى كتابنا قد تحدثنا عن القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية، فقد رأينا فى هذا القسم الانتقال من الحديث عن الأسس النقدية إلى دراسة مجموعة من الكتب ومؤلفيها، دراسة هى أقرب إلى التطبيقات للأسس التى قمنا بدراستها فى القسم الأول من كتابنا.

وقد تضمن الجزء الأول من القسم الثانى دراسات لكتب تراثيه تركها لنا أجدادنا القدامى أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن الهيثم وابن باجة وابن تيميه، كما احتوى تحليلات نقدية لمجموعة من الكتب قام بتأليفها مفكرونا المحدثون والمعاصرون من أمثال الشيخ محمد عبده ومصطفى عبد الرازق وطه حسين وأحمد لطفى السيد وتوفيق الحكيم ولويس عوض وقاسم أمين وزكى نجيب محمود ويوسف كرم وغيرهم من الرواد والأساتذة والباحثين والدارسين.. مجموعة من الكتب سواء قام بتأليفها مفكرون محدثون ومعاصرين، أو مجموعة من الدراسات عن هؤلاء المفكرين وقدمها لمكتبتنا العربية عديد من الباحثين المهتمين بأفكارهم والقضايا التى أثاروها فى مجال الفكر الإنسانى والعلمى والأدبى.

نرجو أن يجد القارئ فى هذا الجزء من القسم الثانى، العديد من التطبيقات لأفكار رئيسية ارتضيناها لأنفسنا. أفكار تحدد معالم ثورتنا النقدية. أفكار

تقوم على ضرورة التمييز بين المثقف الحقيقى، وأشباه المثقفين. التفرقه بين النقد الحقيقى والنقد الذى يصدر عن أشباه المثقفين. التمييز بين ثقافة النور وأساطير الظلام. الترحيب بالثقافة التى تسعى إلى النور والضياء، ورفض الثقافة التى تصدر عن أناس يرتضون لأنفسهم خرافات البتروفكر، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

والله هو الموفق للسداد

عاطف العراقى

مدينة نصر فى : ١٩٩٩/٨/٢٣م

بالقاهـــــرة.

الفصل الأول

الكنـــدى

الكندى ورسالته إلى المعتصم بالله

فى الفلسفة الأولى

الكندى ورسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى[1]

يعد الكندى أول فلاسفة العرب، وواحداً من المفكرين الذين أنجبتهم حضارتنا العربية الإسلامية. وإذا قلنا بأنه يعد فيلسوف العرب، بل أول فلاسفتهم، فإننا نقصد من ذلك، أنه يرجع نسبه إلى قبيلة عربية، بالإضافة إلى أنه قد مهد للفلسفة طريق الإنتشار بين العرب بمجهوداته الكبيرة التى قام بها عن طريق تركه الكثير من الرسائل والمؤلفات التى تبحث فى مجالات طبيعية وكيميائية وفلكية ومنطقية وفلسفية.

كما أنه يعد فيلسوف الإسلام، وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أنه حاول التوفيق بين الدين والفلسفة. وكم نجد أثر هذه المحاولة عند مفكرين وفلاسفة عاشوا بعده سواء فى المشرق العربى أو فى المغرب العربى الإسلامى.

درس الكندى علم الكلام وتأثر بآراء المعتزلة كما تعمق فى دراسة الفلسفة اليونانية، وخاصة أن الخلفاء فى عصره قد شجعوا دراسة الموضوعات الكلامية، كما شجعوا حركة الترجمة من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. كما نال الكندى مكانة كبيرة سواء فى عصر المأمون أو المعتصم وابنه أحمد. يدلنا على ذلك أقوال كثير من المؤرخين. فيقول ابن أبى أصيبعة: كان يعقوب بن اسحاق الكندى عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم وعند ابنه أحمد. ويقول ابن نباتة: كانت دولة المعتصم تتجمل به وبمصنفاته وهى كثيرة جداً.

[1] يمكن الرجوع إلى ما كتبناه عن الكندى فى كتابنا: مذاهب فلاسفة المشرق، وكتابنا: الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل.

وقد ولد الكندى حسب أرجح الأقوال عام ١٨٥هـ، وتوفى حسب كثير من الآراء عام ٢٥٢هـ، إذ أن الآراء متضاربة سواء عند القدامى أو المحدثين حول سنة مولده أو سنة وفاته. وقد عاصر الكندى عدداً كبيراً من خلفاء بنى العباس. لقد ولد فى عصر الرشيد وعاش فى عصر المأمون والمعتصم والمتوكل.

أما عن رسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، فإنها تعد من أهم الكتب والرسائل التى تركها لنا. وكم تأثر كثير من المفكرين والفلاسفة الذين عاشوا بعد الكندى، بالعديد من الموضوعات التى بحث فيها الكندى، وذلك سواء عن طريق اطلاعهم على هذه الرسالة أو الكتاب، أو عن طريق البحث من جانبهم فى موضوعات سبق للكندى أن بحث فيها فى هذه الرسالة إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، أو كتابه إلى المعتصم بالله.

هذا الكتاب يعد رسالة كتبها الكندى إلى الخليفة العباسى المعتصم بالله، والذى عاش فى القرن الثالث الهجرى، أى التاسع الميلادى. وكان الكندى - كما أشرنا - محبوباً ومقرباً لدى الخليفة المعتصم.

وإذا كان هذا الكتاب عبارة عن تحليل أبعاد الفلسفة الأولى، أى ما بعد الطبيعة، أو الميتافيزيقا، فإن مصطلح الفلسفة الأولى، إنما يركز أساساً على الجوانب الإلهية، أى الجوانب التى تتعلق بالبحث فيما بعد الطبيعة، أو فوق الطبيعة. ومهما يكن من أمر فقد فضل الكندى مصطلح "الفلسفة الأولى" كمصطلح يعبر عن البحث فى الجوانب التى تتجاوز المجال الطبيعى الحسى.

وقد اكتشف هذا الكتاب لأول مرة، المستشرق ريتر، ثم تم تصوير هذه النسخة عن طريق دار الكتب المصرية عام ١٩٤٠م. وبعد ذلك تم تحقيق النسخة الخطية وطبعت بالقاهرة أكثر من مرة، ولها أكثر من تحقيق، إذ نجد تحقيقاً ودراسة

لها من جانب الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، كما نجد تحقيقاً ودراسة لها قام بها الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى.

يدرس الكندى فى هذ الرسالة العديد من الموضوعات الهامة ومن بينها تعريف الفلسفة والفلسفة الأولى، والوجود الحسى والوجود العقلى، والهيولى والصورة والنفس، والمنهج الملائم للبحث فى الأشياء التى فوق الطبيعة، والعلاقة بين الفلسفة والدين وذلك عن طريق الدفاع عن الفلسفة وتبرير الإشتغال بها، وتناهى الزمان فى ماضيه ومستقبله، والواحد والعدد، والواحد الحق الأول المبدع الممسك كل ما أبدع، أى الله تعالى، وهل يمكن أن يكون الشئ علة كون ذاته أم لا، وبرهان الأيس والليس، أى أن العالم أيس (أى إبداع)، عن ليس(أى عدم)، وهكذا إلى آخر الموضوعات الفلسفية والمنطقية والدينية والرياضية والعلمية، والتى تحتل مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العالمى.

ونود أن نقف عند بعض الموضوعات التى بحث فيها الكندى فى رسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، وذلك حتى نتبين الأهمية الكبيرة لهذه الرسالة:

يبحث الكندى موضوع التوفيق بين الدين والفلسفة، ويبين لنا أن من الضرورى الدفاع عن الفلسفة لأنها لا تتعارض مع الدين. فالفلاسفة قد توصلوا إلى القول بوجود الله تعالى، والقول بخلود النفس بعد الموت. ومن هنا فإنه من الواجب علينا دراسة الفلسفة والدفاع عنها، إذ أنها محاولة للبحث عن حقائق الأشياء. كما أن الفلاسفة قد قدموا لنا المنطق الذى يميز بين الصواب والخطأ.

إننا فيما يقول الكندى فى كتابه إلى المعتصم بالله – إذا كنا قد تعودنا على أن نشكر الذين يقدمون لنا منافع يسيرة بسيطة، فأولى بنا إذن أن نشكر الفلاسفة الذين يقدمون لنا منافع كبيرة. لقد سهلوا لنا الكثير من المطالب الفكرية، تلك

المطالب التى لم يكن باستطاعتنا أن نصل إليها، لولا قيام الفلاسفة منذ قديم الزمان بالبحث فيها، أى البحث فى حقائق الأشياء.

كما أن الكندى يدعونا إلى أن نبحث عن الحقيقة كحقيقة، أى بصرف النظر عن مصدرها، أى سواء جاءت إلينا من بلاد العرب، أو بلاد اليونان، كما نقول: اطلبوا العلم ولو فى الصين. إن هذا يمثل طريقاً مفتوحاً وليس طريقاً مغلقاً كما أن الكندى يتساءل: هل من واجب المهاجمين أيضاً دراسة الفلسفة. لقد لاحظ الكندى وجود أناس يهاجمون الفلسفة دون دراستها، ودراستهم لها قد تجعلهم يتحولون من معسكر المهاجمين إلى معسكر المؤيدين.

ويلاحظ الكندى أن الفلسفة الأولى أو ما بعد الطبيعة إذا كانت أعلى العلوم عند الفيلسوف، إذ أنها تبحث فى موضوعات إلهية كإقامة الأدلة على وجود الله تعالى والبحث فى صفاته، فإنه بالإمكان إذن التوفيق بينها وبين الدين، إذ أن الدين يبحث أيضاً فى هذه الموضوعات. فالكندى يذهب إلى أن علم الربوبية من الفلسفة. إنه يقول: ويحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية (ماهية) علم الأشياء بحقائقها وسماها كفراً، لأن فى علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة. كما يؤكد الكندى فى رسالته على موافقة ما جاء به الرسل لحقائق الفلسفة. إنه يقول: وجملة كل علم نافع والسبيل إليه، والبعد عن كل ضار والإحتراس منه، واقتناء هذه جميعاً هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه، فإن الرسل الصادقة، صلوات الله عليها، إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتها وإيثارها.

وبعد دفاع الكندى عن الفلسفة ودعوته للمهاجمين لها إلى دراستها، نجد شيئاً هاماً فى كتابه إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى. إننا نجده يبين لنا أنه بالإمكان التوفيق بين الدين والفلسفة، إذ أن الدين دعانا إلى استخدام عقولنا والنظر

فى الكون، كما أن الفلاسفة قد توصلوا إلى ما يدعونا إليه الدين. إنهم يثبتون وجود الله تعالى ويثبتون وحدانيته ويدعون إلى الفضيلة ويؤيدون القول بخلود النفس. ومن هنا كان بالإمكان التوفيق بين المجالين، المجال الدينى والمجال الفلسفى.

والواقع أن كتاب الكندى إلى المعتصم بالله يعد ثرياً ثراء عظيماً فى مجال الفكر الفلسفى. إننا نجد فى هذا الكتاب تمييزاً غاية فى الدقة والعمق بين الوجود المادى الحسى، والوجود العقلى. إنه يصعد من الحسى والمادى إلى العقلى، كما يتجاوز الجزئيات إلى الكليات، وذلك حتى يتسنى له تحديد الفرق بين علم الطبيعة وعلم ما بعد الطبيعة، أى الميتافيزيقا، أو الفلسفة الأولى.

إنه يرى أن الطبيعة تبحث فى المادة من حيث حركتها وسكونها، أما ما بعد الطبيعة فيبحث فى ما لا يتحرك، إنه علم ما لا يتحرك. ومن هنا يصل الكندى إلى القول بالواحد الحق، أى الله تعالى، المحرك الذى لا يتحرك، الثابت غير المتغير.

وإذا كان الكندى يثبت فى كتابه إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، وجود الله تعالى، فإنه يرى – مخالفاً فى ذلك أرسطو الفيلسوف اليونانى – أن العالم يعد حادثاً أى أن الله تعالى أوجده من العدم. إنه أيس عن ليس. إنه مخلوق وليس قديماً. وهذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على أن الكندى لم يكن مجرد متابع لآراء أرسطو أو غيره من فلاسفة اليونان. فإذا كان أرسطو قد ذهب إلى القول بقدم العالم، فإننا نجد الكندى فى رسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى يقول بحدوث العالم وأن العالم مبدع عن مبدع، ومخلوق عن خالق، ولا شك أن الكندى قد بذل جهداً كبيراً من جانبه فى إقامة الأدلة على القول بحدوث العالم، إذ نجده يلجأ إلى جوانب منطقية رياضية كثيرة.

إن الكندى يقول ببداية زمنية للعالم، إذ العالم متناه من حيث المكان ومن حيث الزمان. ولا يوافق الكندى على القول باللاتناهى فى الزمان، تلك الفكرة

التى اعتمد عليها القائلون بقدم العالم. كما أن الكندى فى رسالته يربط ربطا دقيقاً بين القول بحدوث العالم، والقول بوجود الله تعالى. فكل محدث له محدث. وإذا كان العالم حادثاً، فلابد إذن أن يكون له محدث، وهو الله تعالى.

كما يبحث الكندى – متأثراً فى ذلك بأرسطو، فى أنواع الموجودات، وكيف نجد موجودات صناعية مركبة من مادة وصورة كالبيت مثلاً، وموجودات طبيعية غير حية مركبة من مادة وصورة كالمعادن. وموجودات طبيعية حية مركبة من مادة ونفس، وهى النبات والحيوان والإنسان.

ويعرض الكندى فى رسالته للصلة بين الألفاظ والمعانى، وكيف أن كل لفظ له معنى إما أن يكون جنساً وإما صورة وإما شخصاً، وإما فصلاً، وإما خاصة، وإما عرضاً عاماً... إلى آخر الدراسات اللغوية والمنطقية التى نجدها فى رسالة الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى.

وإذا كان مصطلح الفلسفة الأولى، أى الميتافيزيقا، لا يدخل فى إطاره، البحوث الإلهية فقط، فإننا نجد الكندى فى كتابه يعرض للعديد من الموضوعات التى تدخل فى إطار الوجود كمبحث من المباحث الميتافيزيقية. إنه يشير كثيراً إلى المادة والصورة، ويحلل أنواع الحركة، والصلة بين الزمان والحركة، كما أن الطبيعة تبحث فى كل متحرك، وإذن فعلم الطبيعيات هو علم كل متحرك. أما ما فوق الطبيعيات فتبحث فى اللامتحرك، لأنه ليس ممكنا أن يكون الشئ علة كون ذاته، بل لابد أن نقف فى سلسلة الحركة والمتحركات إلى محرك أول لا يتحرك.

كما يميز الكندى تمييزاً دقيقاً بين منهج كل علم والآخر ويربط بين هذا المجال، ومبحث التعريفات فى المنطق وأيضاً أنواع التصديقات والأقيسة. إنه يبين لنا أنه ليس من المطلوب إدراك كل شئ عن طريق البرهان، إذ ليس كل مطلوب عقلى موجوداً بالبرهان، لأنه ليس لكل شئ برهان، إذ البرهان لبعض الأشياء، وليس

للبرهان برهان، لأن هذا يكون بلا نهاية. يقول الكندى فى رسالته: "إن كان لكل برهان برهان، فلا يكون لشئ وجود البتة. لأن مالا يُنتهى إلى علم أوائله فليس بمعلوم، فلا يكون علماً البتة".

ويعطينا الكندى بعض الأمثلة التى يوضح لنا من خلالها أن لكل علم منهجه، وأن ليس من المناسب أن نستعمل فى دراسة موضوع من الموضوعات، منهجاً لا يناسب إلا موضوعاً آخر فى علم آخر. فلا ينبغى علينا - مثلاً - أن نطلب الإقتناع فى العلوم الرياضية، بل البرهان، إذ أننا إذا استعملنا الإقناع فى العلم الرياضى، فإن احاطتنا به ستكون ظنية وليست علمية. كما لا ينبغى علينا أن نطلب فى العلم الإلهى حساً ولا تمثيلاً. ولا فى البلاغة برهاناً، ولا فى أوائل البرهان. برهانا.

ويذكر لنا الكندى فى رسالته العديد من التعريفات الفلسفية والمنطقية والتى تعد غاية فى الدقة. إنه يعرف لنا الأزلى والتام والحركة والسكون... إلى آخر هذه التعريفات التى تدلنا على ثقافته الفلسفية والمنطقية واللغوية. بل إنه حين يحلل تحليلاً دقيقاً معنى الواحد وذلك على النحو الذى نجده فى الصفحات الأخيرة من رسالته، يميز بين الواحد بالذات، الواحد الحق، أى الله تعالى، والواحد بالمجاز والذى يوجد فى جميع المحسوسات. إن علة الإبداع هو الواحد الحق الأول. إنه الواحد بالذات والذى لا يتكثر به بجهة من الجهات، ولا ينقسم بنوع من الأنواع لا من جهة ذاته ولا من جهة غيره. وكل واحد غير الواحد بالحقيقة، فهو الواحد بالمجاز لا بالحقيقة.

وهكذا يمكننا القول بأن الكندى عن طريق دراسته الرائدة للعديد من الموضوعات والمشكلات التى نجدها فى رسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، قد كشف لنا عن عقلية دقيقة، عقلية أسهمت فى تشكيلها دراسات إسلامية عربية، ودراسات فلسفية يونانية.

وكم نجد الكثير من العلوم والمعارف الآن، والتى يمكننا الاستفادة من التراث الذى تركه لنا الكندى من خلال رسالته فى الفلسفة الأولى، ومن بين تلك العلوم والمعارف:

١- مجال تصنيف العلوم. ٢- علم اللغة.

٣- الفلسفة الإلهية. ٤- المنطق الصورى

٥- تاريخ العلوم عند العرب. ٦- ترجمة المصطلحات العلمية والفلسفية.

إن أى باحث الآن فى تلك المجالات، يجد أنه من الضرورى الرجوع إلى تلك الرسالة الهامة والتى قام بتأليفها فيلسوفنا الكندى، فيلسوف العرب. نقول هذا وبصرف النظر عن اختلافنا مع الكندى فى منهجه وفى العديد من الآراء التى قال بها فى ثنايا صفحات هذه الرسالة.

ونود الآن الإشارة إلى بيان أثر رسالة الكندى أو كتابه إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، على العديد من المفكرين الذين عاشوا بعده، وسواء كان ذلك بطريقة مباشرة تارة، وغير مباشرة تارة أخرى.

لقد ترك هذا الكتاب بصمات ظاهرة واضحة، بحيث لم يكن باستطاعة الفلاسفة الذين أتوا بعد الكندى أن يتخطوا كتابه هذا إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى. إن الكندى إذا كان قد تأثر بمفكرين سبقوه فإنه بكتابه الخالد هذا، قد ترك أثراً كبيراً له، وتردد اسم الكندى طوال عصور عديدة بفضل كتابه هذا الذى يعد كما سبق أن أشرنا أعظم كتاب وأهم أثر من الآثار التى تركها لنا الكندى على وجه الإطلاق، بحيث لا يذكر اسم الكندى، إلا ويذكر معه كتابه إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى.

وإذا بدأنا بالمشرق العربى، فإننا نجد أكثر المفكرين والفلاسفة قد تأثروا بكتاب الكندى سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة. فالفارابى على سبيل المثال وقد جاء بعد الكندى قد استفاد من كثير من الأفكار التى نجدها فى كتاب الكندى إلى المعتصم بالله. ونستطيع أن نقول إن من المجالات التى نجد تشابها بينها وبين ما نجده فى كتاب الكندى إلى المعتصم بالله ما يلى:

أولاً: كثير من التعريفات والمصطلحات الفلسفية التى نجدها عند الفارابى تتشابه مع التعريفات التى ذكرها الكندى قبله.

ثانياً: التوفيق بين الدين والفلسفة. فإذا كان الكندى قد حاول الدفاع عن الفلسفة وحاول الدفاع عن الدين، كما بذل أقصى جهده فى التوفيق بين المجالين، فإننا نجد ذلك عند الفارابى كنوع من التأثر بالكندى، إن المطلع على كتاب الحروف وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى يجد أثر كتاب الكندى ظاهراً على هذين الكتابين وغيرهما من كتب، وهذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على أن الفارابى لم يكن بإمكانه أن يتخطى الآراء التى سبق للكندى أن قال بها. إن دفاع الفارابى عن النبوة وبيانه وجه الحاجة إليها، يذكرنا

بدفاع الكندى فى كتابه إلى المعتصم، عن الدين وبيان الفروق بين طبيعة الوحى من جهة وطبيعة التفلسف من جهة أخرى.

ثالثاً: توجد الكثير من العناصر الخاصة بمحاولة الفارابى التوفيق بين فلسفة أفلاطون وفلسفة أرسطو. ودراسة هذه العناصر تبين لنا أن الفارابى قد يكون مستفيداً من كتاب الكندى إلى المعتصم، وأنه اطلع على هذا الكتاب.

والواقع أن المجال لا يتسع للكشف عن أبعاد رحلة كتاب الكندى فى الفلسفة الأولى بالنسبة لفلسفة الفارابى، لأن كتاب الكندى هذا – كما سبق أن أشرنا – قد ترك أثراً لا حد له على المفكرين الذين اطلعوا عليه، إذ أن هذا الكتاب يعد أعظم وأقوى أثر فلسفى تركه الكندى لنا.

وإذا انتقلنا من الفارابى إلى ابن سينا، فإننا نجد أن أثر كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، واضحاً وبارزاً فى مؤلفات ابن سينا.

إن محاولة التوفيق عند ابن سينا تستمد كثيراً من جذورها من كتاب الكندى الذى ترك أثره طوال قرون عديدة وعلى مر الزمان. والدارس لكتاب الشفاء لابن سينا وكتاب النجاة وغيرهما من كتب يجد أن كثيراً من آراء الكندى قد ترددت عند الفيلسوف المشرقى ابن سينا. وسنبين ذلك فيما يلى على سبيل المثال وعلى سبيل البرهنة بأن كتاب الكندى قد تجاوز تأثيره على الفارابى بحيث امتد إلى ابن سينا أشهر فلاسفة العرب.

أولاً: إذا كان ابن سينا يقول بقدم العالم فإنه قد نقد حجج القائلين بضد هذا الرأى، أى القائلين بحدوث العالم. ونستطيع القول بأن نقده لآراء القائلين بحدوث العالم كان يشمل بالتالى آراء الكندى التى قال بها فى كتابه إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى.

ثانياً: تحليل ابن سينا للعلل الأربعة، أى المادية والصورية والفاعلة والغائية يعد معبراً عن تأثر ابن سينا بالكندى. فالكندى قد حلل العلاقة بين كل علة والعلة الأخرى وكشف عن الفرق بين العلة الفاعلة على مستوى هذا الكون، والعلة الفاعلة على المستوى الإلهى، أى الله تعالى الفاعل والموجد للكون.

ثالثاً: دافع ابن سينا عن العناية الإلهية دفاعاً مجيداً وبين أن الله تعالى قد اتقن كل شئ صنعاً. وإذا قارنا بين أدلة ابن سينا وأدلة الكندى التى قال بها قبل ابن سينا، فإننا نستطيع القول بأن آراء ابن سينا كانت تتفق مع آراء الكندى، تلك الآراء التى نجدها بصورة أو بآخرى فى كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، وإن كان الإتفاق بينهما لا يعد اتفاقاً تاماً، أى معبراً عن مطابقة تامة بين رأى كل من الفيلسوفين.

رابعاً: إذا كان الكندى - كما سبق أن أشرنا فى تحليلنا لكتابه - قد ميز بين العلوم النظرية كالعلم الطبيعى والعلم الرياضى والعلم الإلهى ورفع العلم الإلهى على غيره من العلوم، فإننا نجد هذا واضحاً عند ابن سينا وخاصة فى كتابه الشفاء.

خامساً: المقارنة بين كتاب الحدود لابن سينا، وكتاب الكندى إلى المعتصم بالله تدلنا على أن ابن سينا فى تعريفاته وشروحه على المصطلحات الفلسفية كان متأثراً بالكندى، إذ أن الكندى - نظراً لأنه أول فيلسوف عربى - حينما وصلته الفلسفة اليونانية وما فيها من ألفاظ ومصطلحات جديدة على اللغة العربية، قد حاول البحث عن الألفاظ العربية التى تعبر عن المصطلحات اليونانية، لذا فقد كان أكثر الفلاسفة الذين جاءوا من بعده وخاصة ابن سينا، عالة على كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى.

وإذا أردنا متابعة كتاب الكندى فإننا نجد مفكرين آخرين قد تأثروا بالكثير من الأفكار التى قال بها الكندى فى كتابه، سواء كان هذا التأثر يحمل صورة التأييد أو صورة المعارضة.

من هؤلاء "أبو البركات البغدادى" الفيلسوف الممتاز التفكير. لقد ترك لنا كتابا إسمه "المعتبر فى الحكمة" هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء تبحث فى المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة. والمقارنة بين هذا الكتاب، وخاصة الجزء الذى يبحث فى ما بعد الطبيعة، أى الفلسفة الأولى تدلنا على أن أبا البركات البغدادى قد تأثر بمحاولة الكندى لدراسة الفلسفة الأولى، وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن محاولة الكندى هذه تعد أول محاولة يقوم بها فيلسوف عربى لدراسة وتحليل كتاب الميتافيزيقا أى ما بعد الطبيعة لأرسطو.

ومن هؤلاء أيضا نصير الدين الطوسى فى شروحه على كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا. إن شروحه إن دلتنا على شئ فإنما تدلنا على أن نصير الدين الطوسى قد استفاد من كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى.

وما يقال عن نصير الدين الطوسى، يقال عن فخر الدين الرازى. إن فخر الدين الرازى لم يستفد فقط من دراسة الكندى للفلسفة الأولى، بل إنه استفاد أيضا من آراء الكندى التى نجدها بين ثنايا كتابه إلى المعتصم بالله، وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن الكندى يقول - كما سبق أن ذكرنا - بأن العالم يعد حادثا، أى أن الله خلقه من العدم وليس من مادة أولى، وهذا القول من جانب الكندى نجده عند فخر الدين الرازى. وعلى القارئ أن يقارن بين رسالة الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى وبين كتاب المباحث المشرقية لفخر الدين الرازى، وسيجد أن آراء الكندى فى الفلسفة الأولى من المحتمل أن تكون قد ترددت عند فخر الدين الرازى سواء فى كتابه المباحث المشرقية أو فى كتب أخرى عديدة له.

بل إننا إذا انتقلنا من فخر الدين الرازى إلى القاضى عبد الجبار المعتزلى، فإننا لا نعدم وجود تشابه بين الآراء التى قال بها القاضى عبد الجبار، والآراء التى قال بها الكندى فى رسالته فى الفلسفة الأولى، لقد ترك لنا القاضى عبد الجبار المعتزلى كتاباً يقع فى عشرين جزءاً، عثر عليه باليمن منذ فترة ليست ببعيدة. وهذا الكتاب هو كتاب المغنى فى أبواب التوحيد والعدل. ودراسة هذا الكتاب تدلنا على أن القاضى عبد الجبار قد استفاد من كتاب الكندى إلى المعتصم بالله وخاصة إذا وضعنا نصب أعيننا أن الكندى كان مؤيداً لآراء المعتزلة، وأن القاضى عبد الجبار يعد من أئمة المعتزلة المتأخرين الذين جاءوا بعد الكندى.

الواقع أن كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى كان من أكثر كتب الكندى تأثيراً على الفلاسفة والمفكرين سواء عاشوا فى المشرق العربى أو فى المغرب العربى. وإذا كنا قد بينا أثر الكتاب فى المشرق العربى، فإننا نود أن نقف وقفة قصيرة عند رحلة كتاب الكندى فى المغرب العربى، حتى يتبين لنا أن أثر هذا الكتاب قد جاوز المشرق إلى المغرب.

إننا لو رجعنا إلى كتاب "الحدائق فى المطالب الفلسفية" للبطليوسى، لوجدنا أن البطليوسى فى المغرب العربى ربما يكون متأثراً فى تأليفه لكتابه، ببعض الآراء التى قال بها الكندى فى رسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى. فكتاب الكندى إذا كان يهدف أساساً إلى توضيح الفلسفة الأولى، أى ما بعد الطبيعة، فإن كتاب البطليوسى يركز أساساً على تحليل جوانب الفلسفة الأولى على النحو الذى قام به الكندى فى المشرق العربى.

وما يقال عن البطليوسى كأحد مفكرى المغرب العربى، أى بلاد الأندلس، يقال عن فلاسفة الأندلس الثلاثة، وهم ابن باجة وابن طفيل وابن رشد فالمطلع على رسائل ابن باجة أول فلاسفة المغرب العربى، وخاصة رسائله فى مجال المنطق

ومجال الطبيعة، يجد نوعا من التشابه بين محاولة الكندى ومجهوداته فى مجال تعريف وشرح كثير من المصطلحات الفلسفية وبيان أقسام الفلسفة الأولى، ومحاولات ابن باجة.

وما يقال عن ابن باجة بالنسبة لتأثره بكتاب الكندى، يقال عن ابن طفيل. لقد ترك لنا ابن طفيل قصة حى بن يقظان وفى خلال قصته نجد أنه يعرض لمشكلة حدوث العالم وقدمه ويبين لنا أدلة القائلين بحدوث العالم وكيف تتعارض مع أدلة القائلين بقدم العالم. والدارس لهذه الأدلة التى يعرضها ابن طفيل يجد نوعا من التشابه بين بعض الآراء التى يعرض لها ابن طفيل، وآراء الكندى فى رسالته إلى المعتصم بالله.

يضاف إلى ذلك أن ابن طفيل قد حاول التوفيق بين الدين والفلسفة فى قصة حى بن يقظان. وهذه المحاولة قد نجد فيها نوعا من التأثر بمحاولة الكندى التى قام بها فى كتابه إلى المعتصم بالله، وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار أن الكندى هو أول فيلسوف قام بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وإذا وضعنا فى الإعتبار أيضا أن الكندى رغم محاولته التوفيقية، قد بين لنا الفرق بين طريق النبى من جهة وطريق الفيلسوف من جهة أخرى. هذه كلها جوانب نجدها عند ابن طفيل.

وما يقال عن ابن طفيل يقال بصورة أكثر وضوحا ودقة بالنسبة لابن رشد آخر فلاسفة المغرب العربى. والواقع أننا نجد عند ابن رشد كثيرا من المجالات التى تعبر عن تأثره بكتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى، ومن بين هذه المجالات، أن ابن رشد اهتم بشرح وتحليل كتاب الميتافيزيقا وقد تأثر فى ذلك بالكندى، إذ أن الكندى قد حلل كتاب أرسطو من خلال كتابه إلى المعتصم بالله. وإذا كان شرح ابن رشد للفلسفة الأولى يعبر عن نوع من التأثر بالكندى، فإن محاولته التوفيق بين الدين والفلسفة قد تكشف عن تأثره بكتاب الكندى إلى

المعتصم بالله. إن الكندى فى كتابه - كما سبق أن أشرنا - يدعونا إلى أن نبحث عن الحقيقة بصرف النظر عن مصدرها، أى سواء جاءت إلينا من بلاد العرب أو من بلاد اليونان. وهذه الدعوة نجدها أيضاً عند ابن رشد فى كتابه فصل المقال.

والواقع أن أثر هذا الكتاب، كتاب الكندى فى الفلسفة الأولى لم يقتصر على فلاسفة مشرقيين ومغربيين فقط، بل إنها شملت أيضاً مفكرين كثيرين ومن بينهم مفكر مشرقى هو موفق الدين عبد اللطيف البغدادى الذى توفى فى القرن السابع الهجرى أى الثالث عشر الميلادى. لقد ترك لنا كتاباً فى موضوع ما بعد الطبيعة أى الفلسفة الأولى. والدارس لهذا الكتاب يجد تشابها بين بعض آراء موفق الدين البغدادى، وآراء الكندى فى الفلسفة الأولى.

إن دراسة أثر كتاب الكندى إلى المعتصم بالله تعبر عن أن هذا الكتاب كان من الكتب الخالدة على مر الزمان. إنه كتاب يعد أهم وأشهر كتاب تركه لنا الكندى. ومن هنا كان متوقعاً أن يتأثر به مفكرون كثيرون، كما سبق أن أوضحنا. لقد أثر هذا الكتاب على مر الزمان على هؤلاء االمفكرين سواء عاشوا شرقاً أو عاشوا غرباً.

الفصل الثانى

الفـــارابى

كتاب له وتصدير لكتاب عنه

ويتضمن هذا الجزء:

أولا: كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى

ثانيا: تصدير لكتاب فلسفة اللغة عند الفارابى – تأليف د. زينب عفيفى

أولا

الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة

الفارابى

آراء أهل المدينة الفاضلة[1]

يحتل الفارابى فى تاريخ الفلسفة الإسلامية مكانة كبيرة. إنه يعد من أبرز فلاسفة الإسلام فى المشرق العربى، وقد تأثر بأفكاره أكثر الفلاسفة الذين عاشوا بعده سواء فى المشرق العربى كابن سينا أو فى المغرب الإسلامى كابن باجة وابن طفيل وابن رشد.

وقد ولد الفارابى عام ٢٥٧هـ على وجه التقريب. وتوفى عام ٣٣٩هـ، أى أنه يعد من فلاسفة القرن الثالث والقرن الرابع من الهجرة. ومكان مولده هو مدينة فاراب، وهى مدينة أترار الحالية والتى تقع فى إقليم خراسان التركى. وانتقل إلى بغداد والتى كانت تعد عاصمة الفكر والثقافة والمعرفة. كما توجه إلى حرّان ومنها إلى بغداد مرة أخرى، كما انتقل إلى دمشق.

ودرس الفارابى على مجموعة من الأساتذة من بينهم "أبو بشر متى" "ويوحنا بن حيلان" "وأبو بكر بن السراج". كما كان من أشهر تلاميذ الفارابى "يحيى بن عدى".

ترك لنا الفارابى العديد من الكتب والرسائل والتى تدلنا على عمق ثقافته وشمولها. وكم نجد العديد من الأقوال من جانب كثير من المفكرين والمؤرخين والتى تؤكد لنا على أهمية الفارابى فى تاريخ الفلسفة الإسلامية. ومن بينها ما يقوله ابن سبعين الصوفى المشهور. إنه يذكر لنا أن الفارابى يعد من أهم فلاسفة الإسلام

[1] راجع ما كتبناه عن الفارابى فى كتبنا: ثورة العقل فى الفلسفة العربية، والفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل، والفلسفة العربية (مدخل جديد) •

وأذكر للعلوم القديمة. كما يرى ابن خلكان أن الفارابى يعتبر أكبر فلاسفة المسلمين على الإطلاق.

والواقع أن الفارابى كما قلنا يحتل مكانة كبرى فى تاريخ الفلسفة الإسلامية. وقد لقب بالمعلم الثانى على أساس أن أرسطو هو المعلم الأول. وإذا كان الفارابى قد ترك لنا العديد من الكتب والرسائل ومن بينها إحصاء العلوم، وكتاب الحروف، والجمع بن رأيبى الحكيمين أفلاطون وأرسطو، وتحصيل العادة، وكتاب الموسيقى الكبير، وعيون المسائل... إلى آخر كتبه ورسائله، فإن من أهم الكتب التى تركها لنا، كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة" هذا الكتاب الذى لا غنى عنه فى التعرف على الفلسفة الإلهية وفلسفة السياسة.

ولنحاول الآن تحليل أبرز الموضوعات التى بحث فيها الفارابى وذلك فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة:

يمكننا القول بأن الموضوعات التى يبحثها الفارابى فى هذا الكتاب، كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة" تدخل فى إطار الفلسفة الإلهية والفلسفة الطبيعية بالإضافة إلى الفلسفة السياسية.

فهو يبحث بحثا دقيقا فى الموجود الأول، أى الله تعالى ويرى أنه يعد أفضل الوجود وأقدم الوجود ويثبت وجوده تعالى عن طريق التفرقة بين واجب الوجود بذاته، وواجب الوجود بغيره، وممكن الوجود. فيرى أن العالم قبل أن يوجد يعد ممكن الوجود، أما العالم بعد أن وجد فإنه يعد واجب الوجود بغيره أى الله تعالى، بمعنى أن العالم لم يوجد نفسه بنفسه، أما الله تعالى فإنه يعد واجب الوجود بذاته، إذ أنه العلة القصوى والنهائية ولا نجد علة أسمى منه إذ لابد فى سلسلة العلة والمعلولات من الوقوف عند علة أولى، أى الله تعالى.

وإذا كان الفارابى منذ الصفحات الأولى من كتابه يثبت وجود الله تعالى، فإنه يبحث بعد ذلك فى صفاته ويثبت وحدانية الله تعالى وجلاله وعظمته ومجده، وكيف أنه استفاد العظمة والجلال والمجد من ذاته وليس من الآخرين. فالله عظيم فى ذاته ومجيد فى ذاته وجليل فى ذاته. إن هذه الصفات مباينة لكل ذى عظمة ومجد. كما أنها فى ذاته لا من غيره، إنه تعالى ذو جلال فى ذاته وذو عظمة فى ذاته وذو مجد فى ذاته، سواء أجلّه غيره أو لم يجلّه، عظّمه غيره، أو لم يعظّمه، مجّده غيره أو لم يمجّده.

وهكذا يبحث الفارابى بحثاً عميقاً فى موضوع الصفات الإلهية. إنه يبرهن على أن الله تعالى يعد تاماً، ويربط بين التمام والوحدة، إذ لا يمكن أن يكون هذا الوجود التام لشئ آخر غيره، فإذن هو منفرد بذلك الوجود وحده ولا يشاركه شئ آخر أصلاً. إنه منفرد برتبته وحده. كما يبرهن لنا على الصفات كالعلم والحق والحكمة والحياة... إلى آخر الصفات التى يبحث فيها الفارابى، وذلك بعد برهنة على وجود الله تعالى، عن طريق برهانه الرئيسى، برهان أو دليل "الممكن والواجب".

وينتقل الفارابى فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" إلى بيان كيفية صدور الموجودات عن الله تعالى، وهو ما يعرف فى تاريخ الفلسفة بمشكلة الفيض أو مشكلة الصدور، بمعنى كيف فاض العالم عن الله تعالى أى كيف صدر عنه تعالى.

ويميز الفارابى بين الموجودات الروحية والموجودات المادية. فأعلى مراتب الموجودات الروحية، الله تعالى، السبب الأول، ويلى هذه المرتبة، مرتبة ملائكة السماء ثم العقل الفعال فى الإنسان، وهو حلقة الصلة بين العالم السفلى والعالم العلوى، وهكذا إلى آخر الموجودات الروحية.

أما الموجودات المادية، فإنها تتمثل فى الأجرام السماوية وأجسام الآدميين، وأجسام الحيوانات، وأجسام النبات، وأجسام المعادن، ثم العناصر الأربعة وهى النار والهواء والماء والتراب.

ويلاحظ أن الفارابى فى حديثه عن الموجودات المادية يفرق بين الموجودات الحية والموجودات غير الحية. إن كل موجود حى يتركب من مادة ونفس. وكل موجود غير حى يتكون من مادة وصورة. ومعنى هذا أن الموجودات الحية تتميز بوجود النفس والتى لا نجدها فى الموجودات غير الحية. والموجودات الحية هى النبات والحيوان والإنسان، فى حين أن الموجودات غير الحية ومن أمثلتها المعادن والصخور وغيرها من موجودات ليست فيها حياة.

كما يبحث الفارابى فى قوى النفس النباتية وقوى النفس الحيوانية، ويميز بين النفس الإنسانية من جهة، والنفس النباتية والنفس الحيوانية من جهة أخرى. فالنفس فى النبات تعد أدنى مرتبة من النفس فى الحيوان. والنفس فى الحيوان بحكم وظائفها تعد أرقى من النفس النباتية وأدنى من النفس الإنسانية.

كما يحلل الفارابى فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" موضوع الوحى والنبوة، كما يبحث بحثاً دقيقاً فى موضوع السعادة، إلى آخر الموضوعات التى تدخل فى إطار الفلسفة الإلهية والتى تكشف لنا عن ثقافة الفارابى الدينية والفلسفية. إنه لم يكن مجرد متابع للفلاسفة القدامى الذين سبقوه، فلاسفة اليونان، بل إنه اهتم بدراسة موضوعات أخرى بحكم ثقافته الدينية وبحكم البيئة التى عاش فيها، البيئة الإسلامية العربية. صحيح أن كل فيلسوف يعد عادة متأثراً ببعض الأفكار التى يجدها عند من سبقوه، ولكنه لا يقف عند هذه الأفكار، بل إنه يتخطاها ويضيف إليها تارة ويقوم بتعديلها أو رفضها تارة أخرى. وهذا ما نجده فى أوضح صورة عند الفارابى من خلال كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة".

قلنا إن الموضوعات التى بحث فيها الفارابى تدخل فى إطار الفلسفة الطبيعية والفلسفة الإلهية والفلسفة السياسية. وإذا كنا قد أشرنا إلى الموضوعات الطبيعية والموضوعات الإلهية التى تصدى الفارابى لمناقشتها والبحث فيها فإننا لابد أن نشير إلى أهم جانب نجده فى كتاب الفارابى، وهو الجانب السياسى، إذ لا تذكر الفلسفة السياسية عند العرب، إلا ونذكر معها الفارابى، وخاصة فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة". ذلك الكتاب الذى حاول فيه الفارابى وضع تصور للمدينة الفاضلة، المدينة كما ينبغى أن تكون.

يتحدث الفارابى فى القسم السياسى من كتابه عن حاجة الإنسان إلى الإجتماع والتعاون وعن العضو الرئيسى، أى رئيس المدينة الفاضلة، والشروط التى ينبغى أن تتوافر فيه، وعن المدينة الفاضلة، والمدن غير الفاضلة أى المدن الجاهلة والضالة.

لقد بدأ الفارابى القسم السياسى من كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" ببيان حاجة الإنسان إلى الإجتماع بغيره. فالإنسان يعد مدنياً بطبعه، أى كائناً اجتماعياً. إن الإنسان يعد مضطراً إلى الإجتماع والتعاون، وهذا يعد ضرورياً لسد حاجاته وإشباع ما يريده. ومن أجل هذا نجد أن الجماعات الإنسانية قد نشأت واكتملت وأنه لا غنى لكل فرد عن بقية أفراد المجتمع. يقول الفارابى موضحاً ذلك ومبيناً أن هذا الإجتماع، اجتماع الفرد ببقية الأفراد، يعد شيئاً غريزياً: إن كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشئ مما يحتاج إليه.

ويرى الفارابى أن هذا الإجتماع يعد وسيلة لا غاية. إنه يعد وسيلة لتحقيق غاية هى بلوغ الكمال الذى به تكون السعادة فى الحياة الأولى والسعادة القصوى فى الحياة الأخرى.

ويقسم الفارابى الإجتماعات الإنسانية إلى نوعين: كاملة وغير كاملة. ويقسم كل نوع منهما إلى مجموعة من الأقسام.

فالإجتماعات الإنسانية الكاملة ثلاث هى: عظمى ووسطى وصغرى.

والعظمى: هى جماعة أمم كثيرة تجتمع وتتعاون مع بعضها البعض، أو هى اجتماعات الجماعة كلها فى المعمورة.

والوسطى: هى اجتماع أمة فى جزء من المعمورة.

والصغرى: هى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن أمة.

هذا عن الإجتماعات الإنسانية الكاملة، أما الإجتماعات غير الكاملة فتعد ثلاث أنواع هى:

١- اجتماع أهل القرية أو اجتماع أهل المحلة.

٢- اجتماع فى سكّة أى طريق.

٣- اجتماع فى منزل. وهو يعد أصغر هذه الإجتماعات، بمعنى أنه يعد أصغر من اجتماع أهل القرية ومن اجتماع فى طريق.

ويبدو لنا أن السبب الذى دفع الفارابى إلى رفع الإجتماعات الإنسانية الكاملة على الإجتماعات الإنسانية غير الكاملة، وقوله بأن أعم نوع من الإجتماعات الإنسانية الكاملة، هو جماعة أمم كثيرة، نقول إن سبب ذلك، أن الفارابى كان يسعى إلى إقامة تصور عن الدولة العالمية، وبحيث تضم دول العالم كلها.

كما نود الإشارة إلى أن ما يعتبره الفارابى أهم أنواع المجتمعات الكاملة، لم يذكره أفلاطون ولا أرسطو من فلاسفة اليونان، إذ أن فلاسفة اليونان لم يركزوا إلا على دراسة المدينة وما يلحقها من مدن. وقد يكون سبب ذلك أن الفارابى كان متأثراً بنزعته الشيعية، وما فيها من فكرة الإمام، أو قد يكون سببه أن الفارابى بحكم كونه فيلسوفاً من فلاسفة الإسلام، يعتقد بأن الإسلام صالح لأمم العالم كله من مشرقه

إلى مغربه، ولذلك نجده يتحدث عن جماعة الأمم الكثيرة، أى الأمم التى تحكمها حكومة واحدة.

والواقع أن الفارابى قد حاول وضع تصور للمدينة الفاضلة. وهو فى هذا المجال يعد سابقاً لكثير من الفلاسفة الذين حاولوا من جانبهم وضع تصور للمدينة الفاضلة بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ومن بينهم ابن باجة فى كتابه "تدبير المتوحد"، وابن طفيل فى قصته الفلسفية والأدبية "حى بن يقظان" وأيضاً الفيلسوف الإنجليزى فرنسيس بيكون، تماماً كما يمكننا القول بوجود فلاسفة سبقوا الفارابى إلى وضع تصور للمدينة الفاضلة ومن بينهم أفلاطون من خلال كتابه "الجمهورية".

وإذا كان الفارابى قد بحث فى الإجتماعات الإنسانية الكاملة بأقسامها الثلاثة، والإجتماعات الإنسانية غير الكاملة بأقسامها الثلاثة أيضاً، فإننا نجده فى كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، مهتماً بالبحث فى الصفات التى يجب أن تتوافر فى رئيس المدينة الفاضلة، فرئيس المدينة الفاضلة لا يمكن أن يكون أى إنسان كيفما اتفق، بل إن الرئاسة تكون بشيئين أحدهما يرجع إلى الفطرة والطبع، وثانيهما يرجع إلى الملكة والهيئة الإدارية، أى لابد من وجود صفات فطرية وصفات مكتسبة. أما عن خصال رئيس المدينة الفاضلة، فالفارابى يحدد مجموعة من الخصال وذلك فى الفصل الذى يعقده بعنوان "القول فى خصال رئيس المدينة الفاضلة". ومن بين تلك الخصال، أن يكون تام الأعضاء، وجيد الفطنة، وذكياً، وكبير النفس، ومحباً للكرامة، وغير شره على المأكول والمشروب والمنكوح، وقوى العزيمة على الشئ الذى يرى أنه ينبغى أن يفعل، جسورا عليه مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس، وأن يكون حكيماً، وعالماً حافظاً للشرائع والسنن والسير التى دبرها الأولون للمدينة محتذياً بأفعاله لها حذو تلك بتمامها، وأن يكون محباً للعدل وأهله، ومبغضاً للظلم وأهله، وهكذا إلى آخر الخصال التى يذكرها الفارابى ويبين لنا أهميتها.

والواقع أن ما يذكره الفارابى عن الفروق بين المدن الفاضلة والمدن غير الفاضلة، وما يكتبه من موضوعات تدخل فى إطار الفلسفة السياسية، كل هذا يبين لنا ثقافة الفارابى العميقة ونظرته الدقيقة، مما يجعله من أبرز الفلاسفة المسلمين الذين بحثوا فى السياسة والإجتماع، بالإضافة إلى بحثه - كما قلنا - فى الفلسفة الإلهية والفلسفة الطبيعية.

ونجد الكثير من العلوم والمعارف والتى يمكنها الإستفادة حالياً من التراث الذى تركه لنا الفارابى من خلال كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" ومن بينها:

١ - علم السياسة ٢- فلسفة الدين.

٣- علم الإجتماع ٤- الطبيعيات وعلم النفس.

لقد بذل الفارابى فى كتابه جهداً، وجهداً كبيراً. وما أحوجنا الآن إلى الإستفادة من الجوانب التى بحث فيها الفارابى منذ قرون عديدة، والتى من أجلها أطلق عليه لقب المعلم الثانى.نقول هذا رغم اختلافنا مع الفارابى فى العديد من الآراء التى قالها بل فى المنهج الذى سار عليه فى دراسة العديد من المشكلات التى أشرنا إليها.

ثانياً: تصدير لكتاب

فلسفة اللغة عند الفارابى

تأليف د. زينب عفيفى

تصدير لكتاب: فلسفة اللغة عند الفارابى - تأليف د. زينب عفيفى

بقلم د. عاطف العراقى أستاذ الفلسفة العربية

فلسفة اللغة عند الفارابى، موضوع من الموضوعات البالغة الأهمية، ولا أشك فى أنه يحتاج إلى العديد من الدراسات والتحليلات، وخاصة أن الفارابى يعد من أكثر فلاسفة العرب، اهتماماً بهذا المجال، المجال اللغوى فى علاقته بالفلسفة، بل إن أكثر المفكرين الذين جاءوا بعده فى المشرق العربى، والمغرب العربى، قد استفادوا منه بصورة أو بأخرى من قريب أو من بعيد.

وأصارح القارئ بأننى كنت أتمنى استكمال ما بدأت من دراسة هذا المجال أثناء كتابتى عن الفارابى وعن غيره من فلاسفة العرب، وقد وقفت عند دراساتى لكتاب هام من كتب الفارابى فى هذا المجال، المجال اللغوى وعلاقته بالفلسفة، وأقصد به كتاب الحروف والذى يعد على رأس كتب الفيلسوف المشرقى الفارابى، وكم تمنيت كما قلت دراسة هذا المجال دراسة شاملة وعميقة.

من هنا كان ترحيبى حين علمت أن تلميذتى بالأمس، وزميلتى اليوم الدكتورة زينب عفيفى، قد بدأت من جانبها فى الإهتمام بهذا المجال الخصب عند الفارابى، وذلك منذ سنوات، حتى نضج بحثها بعد الدراسة المتأنية ليس لكتب الفارابى وحده، ولكن للعديد من المصادر والمراجع التى تتعلق بهذا المجال، وذلك حتى تقدم الرؤية الشاملة والإحاطة الدقيقة،إذ لا نستطيع التعرف على أفكار

أي مفكر من المفكرين، إلا من خلال فكرة التأثر والتأثير، التأثر بالسابقين، والتأثير في اللاحقين، إذ أننا نقول إن من لم يقرأ إلا أفلاطون، لا يفهم أفلاطون.

وقد قسمت الدكتورة زينب عفيفي كتابها إلى مجموعة من الفصول، تحدثت في الفصل الأول عن الشخصية الفارابية من خلال المؤثرات الثقافية العربية، وحللت في الفصل الثاني الأصول اللغوية لفكر الفارابي المنطقي والفلسفي. ودرست في الفصل الثالث المصطلح الفلسفي ودلالته اللغوية ودور الفارابي ومنهجيته في صياغة المصطلح الفلسفي. أما الفصل الرابع فقد كان مخصصا لإبراز الجوانب التاريخية والفلسفية والطبيعية والإجتماعية لظهور اللغة وتطورها واختلاف ألسنة الأمم كما عرضها الفارابي.

وإذا كانت الدكتورة زينب عفيفي قد تحدثت عن هذه المجالات التي أشرنا إليها في الفصول الأربعة السابقة، فإننا نراها في الفصل الخامس تتناول العلاقة بين المنطق واللغة، ومشكلة المعنى، وغيرها من مجالات نراها في غاية الأهمية.

إننا نقول إن الدكتورة زينب عفيفي قد نجحت في الربط بين موضوع كل فصل والفصل الذي يليه، كما وفقت إلى درجة كبيرة في الربط برباط دقيق بين كل جزئية والأخرى من الجزئيات التي تدخل في إطار كل فصل من فصول الكتاب. وهذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على وجود وحدة عضوية بارزة في الكتاب من أول صفحاته حتى آخرها. إن هذه الوحدة العضوية لا نجدها إلا في البحوث الجادة العميقة، ولا نجدها في البحوث التي يقدمها لنا أشباه الأساتذة وأشباه المثقفين، والتي تعد البضاعة التي يقدمونها لنا، جهلاً على جهل، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة، ولكنها الشهرة العمياء والطبل الأجوف. نعم نجد وحدة عضوية بارزة تدلنا على الجهد الكبير من جانب الدكتورة زينب عفيفي إنها تنتقل في ثقة ويقين من فصل إلى فصل، و واثق الخطوة يمشي ملكاً كما نقول.

وإن كنت أختلف مع الزميلة الفاضلة حول نقطة أو أكثر من النقاط التى قامت بتحليلها فى كتابها الممتع القيم، إلا أن هذا الاختلاف يعد شيئاً طبيعياً، فالنقد خاصية من خصائص الفكر الفلسفى. النقد يدلنا على أهمية الأفكار أو الآراء التى يقول بها هذا المفكر أو ذاك من المفكرين.

الكتاب الذى تقدمه اليوم الدكتورة زينب عفيفى، يكشف عن سعة إطلاع المؤلفة. لقد عاشت مع موضوعها كما أشرت، سنوات وسنوات، ولم تدخر وسعاً فى سبيل الرجوع إلى البحوث والمؤلفات الهامة حول موضوع دراستها. ولا أشك فى أن غزارة الإطلاع تعد شرطاً وشرطاً رئيسياً إذا أردنا أن نقدم بحثاً جاداً وعميقاً. ولا أشك فى أن الدراسة التى قامت بها المؤلفة تكشف عن جهد كبير وخلاق من جانبها.

لم تكن الدكتورة زينب عفيفى مكتفية بالتحليق حول آراء الفارابى فى موضوع فلسفة اللغة، بل دخلت فى صميم موضوعها وقلب المشكلة التى تقوم بدراستها. وهذا ماسيدركه القارئ لفصول كتابها عن فلسفة اللغة عند الفارابى.

الموضوع إذن يعد موضوعاً هاماً والمنهج الذى سارت عليه المؤلفة يعد منهجاً علمياً دقيقاً. لقد اختارت المؤلفة موضوعاً جديداً إلى حد كبير. وإذا كنا قد وجدنا مئات البحوث عن الفلسفة الإلهية عند الفارابى، إلا أننا لا نجد بحوثاً متكاملة فى الموضوع الذى خصصت له المؤلفة زمناً طويلاً من حياتها الفكرية، موضوع فلسفة اللغة عند الفارابى.

أهمية أخرى تضاف إلى ما سبق أن ذكرنا بالنسبة لهذا الكتاب الهام، كتاب فلسفة اللغة، وهذه الأهمية تتعلق بالمنهج أساساً. لم تكن الدكتورة زينب عفيفى مكتفية بمجرد العرض والسرد، بل نراها تضيف إلى الدراسة الموضوعية الجادة، رؤية ذاتية نقدية وذلك حين نراها تلجأ إلى المناقشة والمقارنة والموازنة بين هذا الرأى

أو ذاك من الآراء. لم تكن مؤلفتنا الدكتورة زينب عفيفى مجرد عارضة لآراء الفارابى، كعارضة الأزياء، بل أضافت كما قلت رؤية ذاتية نقدية. وأعرف عن الدكتورة المؤلفة اهتمامها بهذه الرؤية التى تكشف عن شخصيتها وذلك منذ إشرافى على رسالتها للماجستير ورسالتها للدكتوراة. ومن هنا نستطيع القول إن هذا الكتاب يقدم شيئاً جديداً، إنه يقدم موضوعاً على درجة بالغة من الأهمية وذلك من خلال منهج محكم دقيق منهج يجمع بين العرض الموضوعى الأمين، والرؤية الذاتية النقدية.

وإن صح تقديرى، فإن هذا الكتاب سيكون موضع ترحيب من المهتمين بالفكر الفلسفى العربى عامة، والفارابى على وجه الخصوص. إنه كتاب لا نتردد فى أن نقول عنه إنه يقدم لنا جوانب غير مطروقة إلى حد كبير، وسيحمد القراء للمؤلفة الدكتورة زينب عفيفى، اهتمامها بالكشف عن هذا الجانب الهام والجوهرى من جوانب اهتمامات الفارابى.

نعم إنه كتاب يكشف عن ثراء إطلاع مؤلفتنا الدكتورة زينب عفيفى. إنه يسلط الأضواء حول جوانب إيجابية هامة من فكر فيلسوفنا الشامخ، الفارابى، فيلسوف المشرق الكبير. إنه كتاب يبدد جوانب مظلمة عديدة أحاطت بفكر الفارابى. لقد سعت المؤلفة من خلال دراستها إلى نشر النور والضياء حول موضوع فلسفة اللغة عند الفارابى، وعن طريق هذا النور ظهرت أمامنا فلسفة اللغة عند الفارابى واضحة مشرقة. ونرجو من المؤلفة مواصلة اهتمامها بدراسة فلسفة اللغة عند كثير من مفكرى العرب. ولا نشك فى القول بأن الدكتورة زينب عفيفى لديها القدرة على مواصلة هذا الإهتمام وخاصة أنها تملك أدوات البحث العلمى والفلسفى.

إن مما يضاعف من سعادتنا بصدور هذا الكتاب أن مؤلفتنا لم تدافع من خلال كتابها عن فكرة ظلامية إرهابية، بل نراها مهتمة بالبحث عن الأفكار التى تنشر النور والضياء كما سبق أن أشرنا.

ونرجو للمؤلفة الدكتورة زينب عفيفى، كل توفيق فى دراساتها القادمة، تماماً كما كانت موفقة فى اختيار موضوع فلسفة اللغة عند الفارابى. وأقول وأكرر القول، إن كل ما قدمته الدكتورة زينب عفيفى إلى مكتبتنا العربية يعد إضافات جديدة وبصرف النظر عن اتفاقنا معها تارة، واختلافنا معها تارة أخرى، حول رأى أو أكثر من الآراء التى ذهبت إليها.

نعم إنه كتاب جدير بالقراءة، لأنه يكشف عن عوالم جديدة إلى حد كبير، عوالم مشرقة ووضاءة وإيجابية.

والله هو الموفق للسداد.

الفصل الثالث

كتابان لابن سينا من خلال رؤية نقدية

أولاً: الشفاء

ثانياً: الإشارات والتنبيهات

أولا

كتـــاب الشفـــاء

لابن سينا

أولاً

كتاب الشفاء لابن سينا[١]

يعد كتاب الشفاء لابن سينا من أعظم كتبه فى الفلسفة على وجه الإطلاق وأكبرها حجماً. ولا يمكن دراسة أى جانب من جوانب فلسفة ابن سينا إلا بالرجوع إلى هذا الكتاب لأنه يتضمن - كما سنرى - كل المجالات التى تدخل فى إطار الفلسفة.

وينقسم هذا الكتاب - الذى ترجم إلى أكثر من لغة - إلى أربعة أقسام: المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات. وكل قسم من هذه الأقسام يندرج تحته مجموعة من المقالات والفصول.

ولعل مما يدلنا على أهمية هذا الكتاب، ترجمة أجزاء كثيرة منه كما قلت إلى كثير من اللغات كاللاتينية والفارسية والإنجليزية والفرنسية، بالإضافة إلى أننا نجد أكثر كتب علم الكلام والفلسفة والتى تم تأليفها بعد هذا الكتاب، قد تأثرت بالأفكار الموجودة فى هذا الكتاب ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضاً، تدليلاً على أهميته، أننا نجد الكثير من الشروح والحواشى والتعليقات على أجزاء كثيرة من هذه الموسوعة الضخمة. قلنا إن كتاب الشفاء ينقسم إلى أربعة أقسام. ولنحاول الآن الإشارة بإيجاز إلى محتويات كل قسم من هذه الأقسام الأربعة.

القسم الأول هو المنطق ويبحث هذا القسم فى العديد من الموضوعات التى تعد داخلة فى إطار المشكلات والمجالات المنطقية ومن بينها بيان منفعة

---

[١] يمكن الرجوع إلى ما كتبناه عن ابن سينا فى العديد من الكتب، ومن بينها: الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا، ومذاهب فلاسفة المشرق، وتجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية، والفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل.

المنطق وموضوع المنطـق، وتعريف الألفاظ وشروط التعريف، والفرق بين الجزئى والكلى، والقياس المنطقى وأنواع القياس، والبرهان الذى يعد أسمى صورة من صور اليقين، وموضوعات العلوم على اختلافها، والجدل الذى يعد أقل مرتبة من البرهـان. كما يميز ابن سينا تمييزاً دقيقاً بين موضـوع الجـدل، وموضـوع البرهـان، ويضـع البرهان فى مرتبة أعلى من مرتبة الجدل.

كما يخصص ابن سينا كتاباً من كتب المنطق للبحث فى السفسطة، أى المغالطة، وبين لنا أنواع المغالطات وكيفية الوقوع فيها.

وإذا كان ابن سينا قد خصص قسما من أقسام كتبه المنطقية للبحث فى السفسطة فإنه خصص قسماً آخر من المنطق للبحث فى الخطابة وقـد درس فى هذا القسم، العديد من الموضوعات التى تعد داخلة فى إطار الخطابة كقسم من أقسام المنطق حسب وجهة نظره. ومن الموضوعات التى بحث فيها فى مجال الخطابة، منفعة الخطابة وأغراضها.

كما نجد قسماً أخيراً من أقسام كتبه المنطقية، موضوعه الشعر وقد بحث فيه، موضوع المحاكاة وأيضاً كيفية ترتيب الشعر وهكذا إلى آخر الموضوعات التى تدخل فى هذا الإطار. هذا عن القسم الأول من أقسام كتاب الشفاء، وهو الخاص بالمنطق.

أما القسم الثانى فقد خصصه للبحث فى الطبيعيات، وقد تضمن هذا القسم عدة أجزاء وذلك على النحو التالى:

الجزء الأول يبحث فى معنى الطبيعة والحركة والمكان وكيف نجد لكل موجود عللاً أربعة هى العلة المادية، أى مادة الشئ، والعلة الصورية، أى صـورة وشكل الشئ، والعلة الفاعلة، أى الفاعل أو الصانع، والعلة الغائية، أى الغاية أو الغرض أو الوظيفة لكل شئ. فالدينار مثلاً علته المادية، المعدن الذى صنـع منـه، وعلتـه

الصورية شكله، وعلته الفاعلة، الصانع الذى صنع الدينار، وعلته الغائية، أن أشترى به شيئاً من الأشياء.

الجزء الثانى يبحث فى السماء والعالم وحركات الكواكب والتمييز بين الأجسام الأرضية من جهة، والأجسام السماوية من جهة أخرى.

الجزء الثالث يبحث فى الكون والفساد.

الجزء الرابع يبحث فى الأفعال والإنفعالات ويتعرض للكثير من المجالات التى تدخل فى إطار الكيمياء.

الجزء الخامس يبحث فى كل ما يتعلق بالجبال والزلازل والسحب والرياح والبرق والرعد والصواعق.

الجزء السادس يبحث فى موضوع النفس والحواس الخمس كالسمع والشم والذوق واللمس والإبصار، وكيف نجد نفساً للنبات ونفساً للحيوان ونفساً للإنسان.

الجزء السابع يبحث فى النبات وأعضاء النبات وفائدة كل جزء من أجزاء النبات.

الجزء الثامن وهو يعد من أهم أجزاء القسم الطبيعى، يبحث فى الحيوان. ونجد ابن سينا فى هذا الجزء يعتمد إلى حد كبير على الملاحظة والمشاهدة والتجربة وقد قدم لنا الكثير من الآراء الهامة فى مجال الحيوان.

هذا عن القسم الثانى، أما القسم الثالث فقد خصصه كما قلنا للبحث فى العلم الرياضى وينقسم إلى مجموعة من الأجزاء تضمنت البحث فى علم الهندسة، والبحث فى علم الموسيقا، والبحث فى علم الحساب، والبحث فى علم الفلك، وهذه العلوم كلها كانت تدخل فى إطار الرياضيات.

وإذا كان كتاب الشفاء ينقسم كما قلنا إلى أقسام أربعة، وهى المنطق والطبيعيات والرياضيات، والإلهيات، فإننا نجد ابن سينا يهتم اهتماماً لا حد له بالقسم

الرابع وهو القسم الخاص بالإلهيات، إذ أن، مفكرى المسيحية ومفكرى الإسلام، قد اهتموا اهتماماً لا حد له وبحكم العصر الذى عاشوا فيه، أى العصر الوسيط، بالبحث فى الجوانب الدينية والإلهية.

إننا نجد ابن سينا فى هذا القسم الرابع الذى يعد آخر أقسام كتابه الشفاء، يبحث فى البرهنة على وجود الله تعالى، كما يبحث فى العناية الإلهية وكيف أن الخير هو الذى يسود العالم، وإذا وجدنا مجموعة من الشرور، فإنها تعد قليلة إذا قارنا بينها وبين العديد من الخيرات، ومن هنا ينتهى إلى التفاؤل وليس التشاؤم.

كما نجد ابن سينا فى هذا القسم يبحث فى الصفات الإلهية كالعلم والحياة والقدرة. كما نجده مهتماً بالبرهنة على خلود النفس بعد الموت فى عالم آخر وكيفية الثواب والعقاب. كما يدرس ابن سينا موضوع النبوة ووجه الحاجة إليها وهكذا إلى آخر الموضوعات الهامة التى نجدها بين ثنايا هذا القسم الرابع الذى يعد كما قلنا قسماً رئيسياً من أقسام كتابه الشفاء.

وأخيراً نقول إن الدارس لهذا الكتاب، كتاب الشفاء يجد أنه أمام موسوعة ضخمة لا يستغنى عنها المثقف من قريب أو من بعيد، إذ أنها تدلنا على أن ابن سينا كان واسع الإطلاع على الثقافات الفلسفية والدينية والعلمية التى سبقته، كما تدلنا على أن ابن سينا قد استطاع التوصل إلى آراء جديدة خاصة به. وهذا ما نعنيه بقضية التأثر والتأثير، بمعنى أن المفكر أو الفيلسوف بقدر ما يكون متأثراً بالسابقين، إلا أنه عن طريق أفكاره يكون مؤثراً فى أفكار الذين عاشوا بعده. ولكن هذا كله لا ينفى القول بأن ابن سينا فى هذا الكتاب، كتاب الشفاء، كان عالة إلى حد كبير على فلاسفة اليونان قبل الميلاد، وخاصة أرسطو وأفلوطين.

ثـــانيـــا

كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا

ثانيا

كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا

إذا كان الفيلسوف والطبيب المشرقى ابن سينا والذى ولد عام ٣٧٠هـ وتوفى عام ٤٢٨هـ قد ترك لنا العديد من الكتب والرسائل فى علوم وفنون شتى من بينها الفلسفة والطب، فإن كتابه الإشارات والتنبيهات يحتل مكانة فريدة بين سائر كتبه ورسائله، وخاصة أن هذا الكتاب يعد آخر ما صنفه الشيخ الرئيس أى ابن سينا، فى الحكمة وأجوده وأنه كان يعتز اعتزازا كبيرا بهذا الكتاب.

وقد اهتم الشراح بكتاب الإشارات والتنبيهات اهتماما كبيرا. فنجد له الكثير من الشروح والتعليقات. وقد أشار إلى ذلك عديد من الكتاب والمؤرخين من بينهم ابن خلدون والذى ذكر أكثر من شرح وتعليق على هذا الكتاب، كتاب الإشارات والتنبيهات، من بينها شرح الآمدى وشرح نصير الدين الطوسى.

ولعل أهم الشروح على كتاب الإشارات والتنبيهات، شرح فخر الدين الرازى، وهو شرح يعارض فيه العديد من الآراء السينوية ويقوم بالهجوم عليها، ولذلك سمى بعض الناس شرحه جرحا بعكس شرح نصير الدين الطوسى فقد ذهب فيه إلى تأييد ابن سينا وذكر أن ابن سينا كان مؤيدا بالنظر الثاقب.

والواقع أن ابن سينا – كما قلت – كان يعتز بهذا الكتاب. ولعل هذا يتضح من قوله فى مقدمة كتابه: أيها الحريص على تحقق الحق: إنى مهدت إليك فى هذه الإشارات والتنبيهات أصولا وجملا من الحكمة، إن أخذت الفطنة بيدك، سهل عليك تفريعها وتفصيلها.

وكتاب الإشارات والتنبيهات له أسلوب وترتيب وطريقة عرض خاصة تختلف عن كتب ابن سينا الأخرى كالشفاء والنجاة، والتى سار فيها على طريقة المشائين. ولهذا فجانب الشخصية فيه أوضح. ويكفى أن نجد فيه قسماً كبيراً خاصاً بالتصوف وهو القسم الرابع الأخير كما سنرى. وهذا إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على أن فيلسوفنا ابن سينا لم يكن مجرد متابع لأرسطو وغيره من فلاسفة اليونان.

وقد طبع هذا الكتاب، كتاب الإشارات والتنبيهات عدة طبعات فى عديد من البلدان من بينها طبعة ليدن وطبعة القاهرة. كما ترجم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة من بينها اللغة الفارسية واللغة الفرنسية. وكم نجد اهتماماً حتى وقتنا الحالى بهذا الكتاب والشروح القديمة عليه.

ينقسم كتاب الإشارات والتنبيهات إلى أربعة أقسام رئيسية هى المنطق والطبيعيات والميتافيزيقا أى الإلهيات والتصوف. وكل قسم من هذه الأقسام يندرج تحته مجموعة من الأنماط أو مجموعة من الأنهاج أو الفصول. وتندرج تحت هذه الأنماط والأنهاج كما يطلق عليها ابن سينا مجموعة من الإشارات والنقاط والتفريعات الجزئية.

فالقسم المنطقى من كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا ينقسم إلى عشرة أنهاج. ويمكننا القول بأن ابن سينا فى القسم المنطقى من هذا الكتاب يحلل تحليلاً دقيقاً أكثر الجوانب التى بحث فيها أرسطو فى منطقه. ابن سينا يحلل لنا المراد من المنطق ويبين لنا أوجه الحاجة إلى المنطق، واللفظ والمعنى، ودلالة اللفظ على المعنى، والمحمول، والمقولات، والحد أى التعريف، وأصناف القضايا وشروطها، وجهات القضايا، والفرق بين المطلقة والضرورية، والقياس والاستقراء، والقضايا الشرطية، والقياس البرهانى، والأقيسة المغالطية، والمعرفة اليقينية والمعرفة غير اليقينية.

فهو على سبيل المثال يقول إن المراد من المنطق أن يكون عند الإنسان آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل فكره.

كما يبين لنا معنى الحد أو التعريف فيقول إن الحد قول دال على ماهية الشئ. ولا شك فى أنه يكون مشتملا على مقوماته أجمع. ويكون لا محالة مركبا من جنسه وفصله، لأن مقوماته المشتركة هى جنسه، والمقوم الخاص فصله.

ونجد ابن سينا باحثا فى مصادر المعرفة اليقينية ومصادر المعرفة غير اليقينية كما أشرنا منذ قليل. إنه يتحدث عن كل نوع من أنواع المعرفة اليقينية كالمتواترات والحدسيات ويعطينا العديد من الأمثلة التوضيحية. كما يحلل كل نوع من أنواع المعرفة غير اليقينية كالمظنونات والمخيلات والوهميات، ويبين لنا الفروق بين كل نوع من أنواع المعرفة اليقينية، وأنواع المعرفة غير اليقينية. وهذا يكشف عن ثقافته المنطقية. إنه كما قلنا يخصص لنا القسم الأول كله من أقسام كتابه الإشارات والتنبيهات لدراسة كل الجوانب التى تدخل فى الإطار المنطقى. ونجده ينتقل من موضوع إلى موضوع آخر من الموضوعات المنطقية فى تسلسل دقيق وترتيب منظم.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن ابن سينا قد خصص القسم الثانى من أقسام كتابه "الإشارات والتنبيهات" للبحث فى الطبيعيات، فإننا نود الوقوف وقفة قصيرة عند هذا القسم من أقسام كتابه الممتاز، كتاب الإشارات والتنبيهات.

يمكننا القول بأن ابن سينا يقسم حديثه عن الطبيعيات إلى أنماط ثلاثة هى:

١- فى تجوهر الأجسام.

٢- فى الجهات.

٣- فى النفس الأرضية والسماوية وحركات النفس.

إنه فى هذا القسم من أقسام كتابه الإشارات والتنبيهات، أى القسم الطبيعى يحلل العديد من الجوانب التى تتعلق بكيفية تركيب الجسم، وهل يتركب الجسم من ذرات أى جواهر فردة لا يمكن أن تنقسم إلى ما هو أصغر منها، أم أن الجسم يتكون من مادة وصورة. ومن الواضح أن ابن سينا لا يرتضى لنفسه الرأى الأول الذى ذهب إليه الأشاعرة، ولكنه - متابعاً فى ذلك أرسطو - يقول بالرأى الثانى، أى أن كل جسم إنما يتركب من مادة كالخشب مثلاً وصورة بمعنى الهيئة أو الشكل أو التخطيط. كما نقول إن المنضدة لها مادة ولها صورة.

كما يناقش ابن سينا العلاقة بين المادة والصورة، وكيف أن كل مادة لابد لها من الصورة، كما أن الصورة يلزمها المادة.

وإذا كان ابن سينا يناقش العلاقة بين المادة والصورة فإنه فى النمط الثانى يحلل جهات الأجسام ويبين لنا كيف نميز بين الحركة الطبيعية للجسم والحركة غير الطبيعية. فالجسم الثقيل حركته الطبيعية إلى أسفل وحركته غير الطبيعية إلى أعلى. والجسم الخفيف كالنار والهواء حركته الطبيعية إلى أعلى وحركته غير الطبيعية إلى أسفل، ولهذا نجد الحركة الطبيعية تضاد الحركة غير الطبيعية أى الحركة القسرية.

أما فى النمط الثالث، فإننا نجد فيلسوفنا ابن سينا مهتماً بدراسة كل الجوانب التى تتعلق بالنفس وسواء كانت نفساً نباتية أو نفساً حيوانية أو نفساً ناطقة أى إنسانية. ويشير إلى وظائف كل نفس من النفوس. كما يفرق بين الموجودات الطبيعية غير الحية، أى التى ليس لها نفس، والموجودات الطبيعية الحية، أى ما لها نفس وهى النبات والحيوان والإنسان.

والواقع أن ابن سينا قد بذل جهداً ملحوظاً فى دراسته للجوانب الطبيعية والتى تمثل القسم الثانى من كتابه "الإشارات والتنبيهات" تماماً كما اهتم اهتماماً بالغاً كما أشرنا بدراسة الجوانب المنطقية والتى تمثل القسم الأول من الكتاب.

ولم يكن ابن سينا مكتفياً بدراسة الجوانب المنطقية والجوانب الطبيعية، بل إنه في كتابه درس دراسة وافية الجوانب الإلهية والجوانب الصوفية كما سبق أن أشرنا. وهذه الدراسة من جانبه تعد ثمرة لاطلاعه الواسع وعمق نظرته الفلسفية.

ويمكننا القول بأن ابن سينا قد درس في القسم الإلهي من كتابه "الإشارات والتنبيهات" عدة موضوعات هامة من بينها حديثه عن الوجود وعلله وتحليله لكيفية الصنع أو الإبداع.

إنه يحلل لنا دليله الرئيسي على وجود الله تعالى وهو دليل الممكن والواجب وذلك عن طريق التمييز بين العالم (ممكن الوجود) والواجب لذاته (الله تعالى). كما نجد ابن سينا باحثاً في موضوع الصفات الإلهية. فالله تعالى لا ندله ولا ضد ولا جنس له ولا فصل له. ومن الواضح استفادة ابن سينا من الفارابي في هذا المجال الخاص بالصفات الإلهية.

والواقع أن ابن سينا قد بحث في هذا القسم من كتابه الإشارات والتنبيهات في أكثر الموضوعات التي تدخل في نطاق الإلهيات والتي بحث فيها في كتبه الأخرى كالشفاء والنجاة بالإضافة إلى رسائله، ولكننا نجد ابن سينا في كتاب الإشارات والتنبيهات يلجأ إلى الإيجاز الشديد في بعض المجالات وهذا يكشف عن عمقه الفلسفي ودقته في التعبير. إنه يبين لنا كيف فاض العالم عن الله تعالى وكيفية الإتصال بالعقل الفعال ومعنى الجود الإلهي... إلى آخر الجوانب التي قام بتحليلها تحليلاً يعد غاية في العمق لأنه صادر عن التأمل الدقيق.

أما القسم الرابع والأخير من كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا فإنه يعد أهم أقسام الكتاب، إذ أنه يعد أوفى مصدر تركه لنا ابن سينا في مجال التصوف. صحيح أن ابن سينا بحث في موضوعات صوفية في العديد من رسائله وكتبه الأخرى، ولكننا نجده في القسم الرابع من كتاب الإشارات والتنبيهات، يحلل لنا

آراءه الصوفية بصورة دقيقة وافية متكاملة. صورة لا نجدها فى كتبه المشهورة الأخرى كالشفاء والنجاة. بل يمكن القول بأن ابن سينا فى القسم الثالث من كتاب الإشارات والتنبيهات، وهو القسم الخاص بالإلهيات، إنما يذكر لنا بعض آرائه الصوفية، وهذا يدلنا على أهمية كتابه "الإشارات والتنبيهات" فى مجال التصوف بصفة خاصة. وكم نجد ثناء كبيرا من جانب الدارسين العرب والمستشرقين على القسم الصوفى من كتاب الإشارات والتنبيهات. وكم ترجمت الأنماط الخاصة بالتصوف إلى أكثر من لغة من اللغات واهتم الدارسون بتحليلها وبيان مغزاها.

يقول الدكتور إبراهيم مدكور عن كتاب الإشارات والتنبيهات وخاصة القسم الصوفى منه وبعض الأقسام الخاصة بالتصوف والتى نجدها بين ثنايا الأنماط الإلهية: إن كتاب الإشارات والتنبيهات يعد بين المؤلفات السينوية، يتيمة العقد وجوهرة التاج الثمينة وثمرة النضوج الكامل. يمتاز بسمو أسلوبه وعمق أفكاره وتعبيره عن آراء ابن سينا الخالصة، التى لا تشوبها نظريات المدارس الأخرى. وقد أوقف صاحبه الجزء الأخير منه على البحوث الصوفية، ويقع فى نحو خمسين صفحة تعد من أحسن ما خلفته المدرسة الفلسفية الإسلامية فى هذا الباب، فقد أخذ ابن سينا على حسب عادته أفكار الفارابى وفصل القول فيها وعرضها عرضا مسهبا مرتبا.

والواقع أننا نجد أكثر آراء ابن سينا الصوفية فى كتاب الإشارات والتنبيهات. ونود أن نقف قليلا عند بعض الآراء الصوفية التى نجدها عند ابن سينا من خلال القسم الرابع والأخير من هذا الكتاب، كتاب الإشارات والتنبيهات.

يبين لنا ابن سينا أن اللذات الباطنة والعقلية تعد أفضل من اللذات الحسية فلاعب الشطرنج مثلا قد يعرض له نوع من الطعام فيرفضه مفضلا اللذة التى يجدها فى لعب الشطرنج. والكريم قد يؤثر لذة إيثار الغير على نفسه فيما يحتاج إليه ضرورة، على لذة التمتع به. وكبير النفس ينظر باستخفاف إلى الجوع والعطش ويقاسى

أهوال الموت والهلاك فى سبيل المحافظة على ماء الوجه. بل إنه قد يهجم على العدو متعرضاً للخطر، نظراً لما يتوقعه من لذة الحمد ولو بعد الموت. فهذه اللذة أفضل عنده من لذة الحياة.

ويبين لنا ابن سينا فى معرض دراسته للتصوف أن الزاهد هو المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها، أى يمثل حال الإعراض عن كل شئ ما عدا الحق تعالى، وخاصة الإعراض عن الأشياء التى تشغله عن زهده. أما العابد فهو الذى يواظب على فعل العبادات مثل الصلاة والصيام وغيرهما. والعارف هو المتجه بفكره إلى قدس الجبروت، والذى يتنزه تماماً عما يشغله عن الحق.

ولهذا نجد ابن سينا يرفع من مكانة العارف على مكانة الزاهد ومكانة العابد. إنه يبين لنا أن قصد أو هدف العارف أفضل من قصد أو هدف غير العارف.

ثم يحدثنا ابن سينا حديثاً يعد غاية فى الدقة والسمو عن درجات حركات العارفين. إنه يقول إن درجاتهم تتمثل فى الإرادة ثم الرياضة ثم الأوقات وأخيراً الوصول التام. وهو يتحدث عن الصلة بين كل درجة والدرجة الأخرى وكيف تترتب الرياضة مثلاً على الإرادة ثم كيف تؤدى الإرادة والرياضة إلى الأوقات ثم الوصول التام والذى يقترب من حالة الفناء.

كما يجد ابن سينا أنه من الضرورى تحليل أخلاق العارفين، ولذلك نجده باحثاً فى العديد من الصفات الخلقية والأصول التى يرى أنها تنطبق على العارفين ومن بينها أن العارف طيب، يحترم الكبير والصغير، وينبسط من الشخص الخامل تماماً كما ينبسط من الفرد المشهور، إنه يسوى بين الناس لأن الجميع عنده سواسية، ولا يهتم بتفحص أحوال الناس ولا معرفة أخبارهم، يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، لا يخشى الموت لأنه شجاع، ينسى الأحقاد ويعد غافلاً عنها، وهكذا إلى آخر الصفات الخلقية التى يرى ابن سينا بأنها تميز العارف عن غيره من الناس.

وابن سينا فى أواخر دراسته للتصوف، يحدثنا حديثاً شاملاً عن غرائب الأفعال التى تنسب إلى العارفين. ويعطينا العديد من الأمثلة لكى يبين لنا أن العارف قد يقدر على حركة أو فعل لا يقدر عليهما غيره من الناس. وكم نجد عنده تحليلات وتبريرات لهذه الأفعال. وهو بوجه عام يرى أنه لا يصح حينما نسمع عن هذه الأفعال الغريبة، أن نبادر بالتصديق أو نبادر بالتكذيب.

والواقع أن كتاب الإشارات والتنبيهات لا غنى عنه فى دراسة فكر ابن سينا وفلسفته من قريب أو من بعيد. إنه يعد علامة مضيئة مشرقة فى تاريخنا الحضارى الفكرى وقد بذل فيه مؤلفه جهداً قلما نجده عند فلاسفة آخرين. ويمكننا القول بوجود علوم كثيرة يمكننا الإستفادة من هذا المصدر الهام ومن بينها:

١- علم الطبيعة ٢- علم المنطق.

٣- تاريخ الفلسفة ٤- التصوف.

٥- الفلسفة الإلهية.

وهذا كله يدلنا على الأهمية الكبرى التى يحتلها فيلسوفنا ابن سينا فى تاريخنا الفكرى الإسلامى، كما يدلنا على عمق كتابه الإشارات والتنبيهات والذى يعد آخر كتبه. نقول هذا رغم أننا نختلف مع ابن سينا سواء فى منهجه أو فى العديد من آرائه.

الفصل الرابع

الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة
وكتاب تذكارى عنه وتحقيق كتاب ثمرة الحكمة
لابن الهيثم

ويتضمن هذا الجزء:

أولاً: الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة وحياته الفكرية.

ثانياً: كتاب تذكارى عن الدكتور "أبو ريدة"

ثالثاً: تصدير كتاب يشمل مقالاته الفكرية.

رابعاً: تحقيق لكتاب ثمرة الحكمة لابن الهيثم.

أولا

أبو ريدة (د. محمد عبد الهادى) وحياته الفكرية

(١٩٠٩-١٩٩١)

أستاذ مصرى للفلسفة. عمل بالعديد من الجامعات المصرية والجامعات العربية. ولد بالعريش (سيناء) فى ٢٤ نوفمبر ١٩٠٩م والتحق بكلية الآداب - جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول) وحصل على درجة الليسانس من قسم الفلسفة عام ١٩٣٤م وكانت دفعته تضم أربعة من بينهم الأديب نجيب محفوظ، والدكتور توفيق الطويل. وحصل على درجة الماجستير فى الفلسفة الإسلامية من كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٣٩م وموضوع رسالته "إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية". أما درجة الدكتوراة فقد حصل عليها من جامعة بازل بسويسرا عام ١٩٤٥م وكان موضوعها: الغزالى ونقده للفلسفة اليونانية.

حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٦٣م وعمل كما قلنا بالعديد من الجامعات المصرية والعربية والجامعة الليبية ومن بينها جامعة القاهرة وجامعة عين شمس وجامعة الزقازيق وجامعة الكويت، وحضر العديد من المؤتمرات داخل مصر وخارجها، وله بحوث عديدة بتلك المؤتمرات وقد نشرت بالعربية وباللغات الأجنبية.

توفى فى الأسبوع الثانى من شهر نوفمبر عام ١٩٩١م، ودفن بسويسرا التى كان يعمل بها قبيل وفاته - وذلك تنفيذا لوصيته، حيث أوصى بأن يدفن فى مكان وفاته.

ترك لنا العديد من الكتب والبحوث. وعمل بمجال التأليف والترجمة والتحقيق، ومن بينها، بحوثه فى كتابه الحضارة الإسلامية الذى تصدره اليونسكو،

وترجمة كتاب وجهة الإسلام للمستشرق جب، وترجمة كتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز، وأيضا ترجمة كتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام من تأليف دى بور وقد أورد فى ترجمته العديد من التعليقات والإضافات الهامة.

ومن بين تحقيقاته، ثمرة الحكمة للحسن بن الهيثم، ورسائل الكندى الفلسفية، وكتاب التوحيد لأبى رشيد النيسابورى، وجزء من كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار المعتزلى.

وكتب العديد من المقالات فى سنواته الأخيرة، نشر بعضها بالقبس الكويتية، ولم ينشر بعضها الآخر، وهذه المقالات سواء ما نشر منها، أو مالم ينشر تم الإعداد لصدورها فى وقت قريب تحت إشراف وتصدير كاتب هذه المادة.

وناقش العديد من الرسائل العلمية للماجستير والدكتوراة بالعديد من الجامعات، ومن بينها رسالة عن النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد وكانت موضوعا للماجستير لكاتب هذه المادة.

كما ألف بعض الكتب، ومن بينها: إبراهيم بن سيار النظام والذى كان موضوعا لرسالته للماجستير كما أشرنا، وفلسفة الكندى.

عمل أستاذا زائرا بجامعة السوربون، واختير مستشارا ثقافيا بالسفارة المصرية بأسبانيا، وشارك فى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية بمدريد.

اهتم الدكتور أبو ريدة بتراث الكندى اهتماما بالغا، وأبرز مكانة هذا الفيلسوف فى الفكر الفلسفى العربى، وخاصة أنه يعد أول فيلسوف من قبيلة عربية صميمة ونشر أكثر رسائل هذا الفيلسوف فى مجلدين.

ويمثل الدكتور أبو ريدة فى اتجاهه، الإتجاه الإسلامى المعتدل وقد يكون ذلك من جانبه تأثرا بأستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق والذى حاضر فى الجامعة

المصرية منذ السنوات الأولى لإنشائها، كما يدافع كثيرا عن آراء الغزالي، وكانت رسالته للدكتوراة عن الغزالي كما سبق أن أشرنا.

واهتم الدكتور أبو ريدة بتراث ابن الهيثم، ونشر له كما أسلفنا، "ثمرة الحكمة" والذى تضمن جوانب فلسفية وجوانب علمية.

يقول الدكتور أبو ريدة في تصدير تحقيقه لثمرة الحكمة لابن الهيثم:

"أبو على الحسن بن الحسن – أو كما يسمى أحيانا: محمد بن الحسن بن الهيثم – عالم فذ في تاريخ العلوم عند المسلمين وفي تاريخ العلم العالمي، بفضل اجتهاده في البحث عن الحقائق وعكوفه على طلبها في ميادين العلم بمعناه الخاص، وذلك من غير إغفال لحياة الفكر في الإسلام وحضارته. تفرغ ابن الهيثم للعلم منذ وقت مبكر في حياته في زهد رفيع وقناعة نادرة، فدرس مؤلفات الفلاسفة خصوصا أرسطو وجالينوس وبطليموس وإقليدس وشرح منها الكثير، وكان ينعم النظر فيما يقرأ ويدرس فينقد بعد فهم دقيق. وقد استطاع أن يضع معيارا للمعرفة الصحيحة من جهة، وأن يجدد المعرفة بوجه عام من جهة أخرى، وأن يبتكر من جهة ثالثة. وهذا الإبتكار يتجلى في نقده لمذاهب القدماء وإكماله لأبحاثهم. نجد ذلك مثلا في كتابه: "الشكوك على بطليموس" وكتابه "حل شكوك كتاب إقليدس في الأصول". وفي مقدمة ابن الهيثم للكتابين شئ من نوع اهتمام هذا العالم وروحه وغاياته العلمية وخلقه العلمي. على أنه إذا كان عالمنا قد نبغ وجدد في دراسة الفلك والرياضيات، فإن أبحاثه في علم الطبيعة وخصوصا كشوفه في "علم البصريات" أو "علم المناظر" كما سماه هو، هي التي دعت مؤرخي العلم إلى القول بأنه مؤسس علم الضوء بمعناه الحديث. والحق أنه قلب النظرية القديمة في كيفية حدوث الإبصار رأسا على عقب، بأن أثبت أن الإبصار لا يكون بشعاع يخرج من العين كما تصور القدماء، بل بانعكاس الضوء من المبصرات ووصوله إلى العين. وقد اخترع ابن

الهيثم من الأجهزة والآلات ما مكنه من البحث العلمى الدقيق ومن الوصول إلى ما انتهى إليه من نتائج.

ويشير الدكتور أبو ريدة إلى أن عمل ابن الهيثم لم يقتصر على تصحيح تصورات القدماء ونظرياتهم، بل إنه قد توصل بكشوفاته إلى استحداث فروع جديدة فى علم البصريات. كما يحيلنا الدكتور أبو ريدة إلى الكثير من الدراسات عن ابن الهيثم وعلى رأسها الدراسة الرائدة التى كتبها مصطفى نظيف عام ١٩٤٢ بالقاهرة وذلك تحت عنوان: "الحسن بن الهيثم: كشوفه البصرية".

كما يذكر الدكتور أبو ريدة مجموعة من العلماء الذين وضعوا بصماتهم على تاريخ العلوم من بينهم جابر بن حيان الذى وضع قواعد المنهج فى علم الكيمياء على أساس نظرى هو أن الأجسام كلها ترجع إلى أصول واحدة وأن الإختلاف بينها يرجع إلى تفاوت النسب والمقادير فى تركيبها، وأيضا على أساس الإعتماد على التجربة ونتائجها.

ومن بين العلماء أيضا الشيخ الرئيس ابن سينا، والذى كان منهجه فى الطب يعتمد على استبعاد الإستدلال النظرى فى أمور العلاج ويؤكد على التجربة. وهو قد أعطانا مثالا جيداً للتجربة على الدواء من حيث تأثيره فى المرض بحسب شروط وضعها لامتحانات الدواء. وهذا ما نجده مفصلا فى كتاب القانون لابن سينا.

أما بالنسبة لابن الهيثم، فإننا نجده مهتما فى البداية بوضع معيار للمعرفة الصحيحة فى مجال البحث فى العلم الطبيعى، وهو أن تكون المعرفة معتمدة على الحس والعقل معا.

لقد شرح لنا ابن الهيثم – كما يقول الدكتور أبو ريدة – كيف أن البحث فى الإبصار والمبصرات تجمع بين النظر فى العلوم الطبيعية من جهة والنظر فى العلوم التعليمية أى الرياضيات من جهة أخرى.

مصادر المادة:

- الكتاب التذكارى الذى صدر عام ١٩٩٣ عن جامعة الكويت - إعداد د. عبد الله العمر.
- دراسة لكتاب "ثمرة الحكمة" للحسن بن الهيثم - بقلم د. عاطف العراقى - مجلة عالم الكتاب - القاهرة سبتمبر ١٩٩٢.
- تصدير لمقالات بجريدة القبس الكويتية - بقلم د. عاطف العراقى.

ثـــانيـــاً

الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة

(كتاب تذكارى)

إعداد: د. عبد الله العمر

ثانياً

الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة (كتاب تذكارى)

إعداد: د. عبد الله العمر

يحتل الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العربى المعاصر لقد كان واحداً من أبرز الدارسين لفكرنا الفلسفى العربى تأليفاً وتحقيقاً وترجمة. وهل يمكن أن ننسى تحقيقه الرائع لرسائل الكندى الفلسفية، هل يمكن أن نتغافل عن تعليقاته الدقيقة على كتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور.

ولد الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بالعريش (سيناء) فى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٠٩، والتحق بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وحصل على درجة الليسانس من قسم الفلسفة عام ١٩٣٤م، وكانت دفعته تضم أربعة من بينهم نجيب محفوظ، والدكتور توفيق الطويل. وكان موضوع رسالته للماجستير "إبراهيم بن سيار النظام" من آداب القاهرة. أما رسالته للدكتوراة فكان موضوعها: "الغزالى ونقده للفلسفة اليونانية"، وقد حصل عليها من جامعة بازل بسويسرا.

وقد عمل الدكتور أبو ريدة بوظائف التدريس، وترأس أقسام الفلسفة فى جامعات مصر والبلدان العربية، وكان أستاذاً للفلسفة منذ عام ١٩٦٣م. وشرف مصر فى العديد من المؤتمرات الفكرية والفلسفية، وله العديد من البحوث ألقاها فى المؤتمرات الدولية، ونشرت بالعربية واللغات الأجنبية. وتوفى فى الأسبوع الثانى من نوفمبر عام ١٩٩١م بسويسرا حيث دفن فيها تنفيذاً لوصيته.

جمع الدكتور أبو ريدة كما ذكرنا منذ قليل بين الإهتمام بالتحقيق والترجمة والتأليف. وبالإضافة إلى ما ذكرنا من تحقيقاته وترجماته، نود أن نشير إلى ترجمته لكتاب وجهة الإسلام لجب، وكتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز وتحقيقه لكتاب التوحيد لأبى رشيد النيسابورى، وتحقيقه لكتاب ثمرة الحكمة لابن الهيثم (راجع دراستنا عن تحقيقه لكتاب ثمرة الحكمة والتى نشرت بمجلة عالم الكتاب - سبتمبر ١٩٩٢م).

لهذا كله لم يكن غريباً أن تهتم الجامعات العربية بالكتابة عنه. ونود فى مقالتنا هذه أن نحلل بإيجاز موضوعات الكتاب التذكارى الذى أصدرته كلية الآداب بجامعة الكويت، وعنوانه : الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة - كتاب تذكارى. وقد صدر عام ١٩٩٣ وقام بإعداده الدكتور عبد الله العمر.

يقع الكتاب فى ٦٠٨ صفحة ويتضمن أربعة أبواب، بالإضافة إلى مقدمة كتبتها الدكتورة سهام الفريح، وكلمة حول الكتاب التذكارى، وكلمة أخرى موضوعها: الأستاذ والإنسان للدكتور فؤاد زكريا. أما الكلمة حول الكتاب التذكارى فكانت بقلم المشرف على الكتاب، الدكتور عبد الله العمر.

قلنا إن الكتاب قد تضمن أبوابا أربعة، وذلك على النحو التالى:

الباب الأول: أبو ريدة سيرة حياته وفكره.

الباب الثانى: فى الفكر الإسلامى.

الباب الثالث: قضايا وهموم.

الباب الرابع: إسهامات باللغة الإنجليزية.

ويمكن أن نقسم موضوعات هذه الأبواب الأربعة إلى قسمين رئيسين، قسم منهما يدور حول جوانب تتعلق تعلقا أساسيا بالدكتور أبو ريدة ومجهوداته فى مجال التأليف والتحقيق والترجمة، والقسم الثانى يعد من نوع الدراسات المهداة.

وغير خاف علينا أن الكتب التذكارية تعد على نوعين: نوع يقتصر على موضوع الكتاب التذكارى، أى الشخصية التى يكتب عنها. ونوع آخر يتضمن مجموعة من الدراسات المهداة وقد لا تتعلق تعلقاً رئيسياً بموضوع الكتاب التذكارى، وإن كانت تتعلق تعلقاً غير مباشر بشخصية الكتاب، أى تتحدث ولو من بعيد عن مجال من المجالات التى كان يهتم بها المؤلف الذى اختير كموضوع للكتاب.

فإذا رجعنا على سبيل المثال إلى مجموعة من الكتب التذكارية التى صدرت سواء بمصر أو بالكويت، ككتب تذكارية، وجدنا كتبا تذكارية صدرت عن السهروردى، وابن عربى ومصطفى عبد الرازق وأحمد لطفى السيد وابن رشد وتعد من النوع الأول، إذ كل بحوثها تتعلق تعلقاً رئيسياً بالشخصية موضوع الكتاب. أما الكتب الأخرى، فمن بينها كتاب عن معلم الجيل الدكتور زكى نجيب محمود، وكتاب عن يوسف كرم، وهما من نوع الكتب التذكارية التى تتضمن بحوثاً مهداة.

ومن المنطقى أن يتضمن الكتاب التذكارى، بحوثاً مهداة، إذا كانت الشخصية موضوع الكتاب، إسهاماتها قليلة فى مجال الإبداع الفكرى. ومن غير المنطقى أن يتضمن الكتاب التذكارى بحوثاً مهداة إذا كانت الشخصية التذكارية لها إسهاماتها العديدة والمتنوعة فى مجال الإبداع الفكرى الإنسانى.

من المنطقى إذن أن تصدر كلية الآداب بجامعة الكويت كتاباً تذكارياً عن الدكتور أبو ريدة وهو من هو فى مجال الفكر الفلسفى العربى، وبحيث يتضمن هذا الكتاب كما سنرى مجموعة من الدراسات المهداة، إذ من الصعب، بل من المستحيل أن نتحدث من خلال ستمائة صفحة، هى صفحات الكتاب، عن أفكار الدكتور أبو ريدة. ولكن من غير المنطقى أن تصدر جامعة الكويت منذ سنوات كتاباً عن الدكتور زكى نجيب محمود، وبحيث يتضمن مجموعة من الدراسات المهداة. ليس هذا من المنطق فى شئ بالنسبة لرجل عملاق كزكى نجيب محمود، يمكن أن

تصدر عنه وحده مجموعة من الكتب والدراسات والرسائل العلمية، وبحيث تتحدث كل واحدة منها عن جانب واحد من جوانب شموخ زكى نجيب محمود وما أكثرها وما أعظمها.

لقد تضمن الكتاب التذكارى الذى نعرض له الآن، عن الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، مجموعة من الدراسات المهداة، وهذا يعد، كما سبق أن أشرنا، شيئاً منطقياً. ولكن مما يؤسف له أننا نجد أكثر من مقالة أو دراسة، لا صلة بينها وبين الإلتزام بالجوانب المنهجية الأكاديمية من قريب أو من بعيد. أكثر من مقالة تعد من المقالات المتسرعة ولا تتضمن أية جوانب جديدة، وكأنها تذكرنا ببحوث الطلاب الصغار، وأشباه المثقفين.

بل مما يؤسف له أننا نجد أكثر من دراسة، يتحدث صاحبها عن نفسه أكثر مما يتحدث عن الدكتور أبو ريدة، وينسب إلى الدكتور أبو ريدة مجموعة من الأقوال والتصريحات تعد من قبيل التزوير الفكرى، وتعتمد على ضعف الذاكرة عند الباحثين والدارسين. ولكن ماذا نفعل فى الوقت الذى نجد فيه فى عالمنا العربى، محاكم للغش التجارى، ولا نجد فيه محاكم للغش الفكرى، وكأن معدة الإنسان أفضل من عقله ووجدانه.

وإذا كان النطاق المسموح به للمقالة لا يتسع لتحليل جميع الدراسات التى تضمنها هذا الكتاب، فإننا سنقف عند مجموعة من النماذج والتى نجدها فى كل باب من الأبواب الأربعة للكتاب التذكارى، بالإضافة إلى كلمة المشرف على الكتاب، ومقالة الدكتور فؤاد زكريا.

لقد كتب الدكتور عبد الله العمر كلمة دقيقة حول الكتاب التذكارى، وبين علاقته بالدكتور أبو ريدة. وهذه الكلمة تكشف عن جوانب هامة فى حياة الفقيد، الجوانب العلمية والجوانب الخلقية، وإن كنا نلاحظ أن الدكتور عبد الله العمر قد

أفاض فى الحديث عن طريقة نشر الكتاب، وأسعار الورق وغيرهما من جوانب تعد نوعاً من الحشو الزائد والذى لا مبرر له فى كتاب تذكارى من المفترض أن يتسم بالسمة الأكاديمية العلمية.

أما مقالة الدكتور فؤاد زكريا، فإنها وإن كانت موجزة، إلا أنها تتسم بالدقة والصراحة، وتكشف أيضاً عن جوانب هامة من الحياة الفكرية والشخصية للدكتور أبو ريدة، وكان من الضرورى وجودها فى هذا الكتاب.

قلنا إن الكتاب التذكارى بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من كلمة حول الكتاب التذكارى (د. عبد الله العمر)، (وأبو ريدة الأستاذ والإنسان) (فؤاد زكريا)، قد تضمن أربعة أبواب.

فالباب الأول والذى جاء تحت عنوان: أبو ريدة: سيرة حياته وفكره، قد تضمن أربعة دراسات، من بينها دراسة عن النظر العقلى فى الإسلام للدكتور عبد القادر محمود، وهى مقالة تتسم بالوضوح، مما يدلنا على أن الدكتور عبد القادر محمود قد تفهم أبعاد الموضوع الذى اختاره كمجال للدراسة، وإن كنا نختلف مع زميلنا العزيز الدكتور عبد القادر محمود فى بعض النقاط والآراء التى ذهب إليها.

ونجد فى هذا الباب دراسة أخرى بعنوان: أبو ريدة وتجديد الفكر الإسلامى، وهى دراسة لا تخلو من جهد، وإن كان المؤلف لم يبين لنا بدقة ما يقصده بالتجديد. نقول هذا بعد أن انتشر بيننا أناس أخذوا فى الكلام عن التجديد دون أن يحددوا من جانبهم بواعث التجديد وأهداف التجديد.

وبطبيعة الحال سوف لا نقف عند كل دراسات الباب الأول والتى زادت عن مائة صفحة، إذ أننا وكما قلنا سوف نشير إلى مجموعة من النماذج وفى حدود النطاق المرسوم للمقالة.

أما الباب الثانى فقد تضمن إحدى عشرة دراسة، ذلك على النحو التالى:

١- ثلاثة مناهج فى دراسة الفلسفة الإسلامية.

٢- القرآن والبحث التجريبى.

٣- التأويل وقضية الجدل (رؤية معاصرة)

٤- الفكر الشرقى القديم والإسلام مصدران هامان للحضارة الأوروبية الحديثة.

٥- دور الفلسفة اليونانية فى صياغة الفكر الفلسفى عند المسلمين.

٦- الصابئة والحرنانية.

٧- الكيمياء عند جابر بن حيان.

٨- الإستقراء العلمى عند العلماء العرب.

٩- تأنيس الإنسان. (رؤية حضارية فى التصوف الفلسفى).

١٠- الإنسان عند إخوان الصفا.

١١- الشيخ زاهد الكوثرى وجهوده فى مجال الفكر الإسلامى.

وسوف نشير إلى بعض هذه البحوث، دون أن تعنى إشارتنا إلى نماذج منها دون نماذج أخرى، أننا نقلل من البحوث التى سوف لا نشير إليها.

فالدكتور حامد طاهر يحدثنا من خلال بحثه: ثلاثة مناهج فى دراسة الفلسفة الإسلامية إلى وجود أكثر من منهج لدراسة هذا النوع من الفلسفة. وعبارة المؤلف واضحة كما أنه يستشهد على رأيه بالرجوع إلى العديد من المصادر والمراجع، مما يدلنا على ثقافته الغزيرة، وإن كنا نختلف معه فى التركيز على باحثين معينين دون باحثين آخرين، كما أنه يطلق على فلسفتنا، مصطلح الفلسفة الإسلامية، ونحن نرى أنها فلسفة عربية وليست إسلامية، فالفلسفة لها مجالها، والدين له مجاله.

كما يعرض الدكتور إمام عبد الفتاح إمام لقضية القرآن والبحث التجريبى ويضرب العديد من الأمثلة من خلال الرجوع إلى العديد من الآيات القرآنية.

أما البحث الخاص بكاتب هذا المقال، فكان موضوعه: التأويل وقضية الجدل المذهبى لدى الفرق الإسلامية (رؤية معاصرة)، فقد ركز فيه على موضوع التأويل لدى مجموعة من الفرق الإسلامية، وبين مدى حاجتنا إلى التأويل لحل العديد من مشكلاتنا الفكرية فى العصر الحديث.

وتتحدث الدكتورة مرفت عزت بالى من خلال بحثها، الصابئة والحرنانية عقيدة ومذهبا، عن عديد من الجوانب التى تعد بالغة الأهمية. إنها تتحدث عن تعريف الصابئة وتنتقل من ذلك إلى دراسة العديد من العناصر، ومن بينها:

- الأصل الإشتقاقى لكلمة صابئة والسبب فى تسميتهم بهذا الإسم.
- متى سموا بالصابئة، والصابئة فى القرآن.
- هل الصابئة هم الحرنانية؟
- جذور الصابئة فى الحضارة العربية.
- الفروق الظاهرية بين الصابئة والحرنانية.
- الحرنانية وفرقة السامرة اليهودية.

وتقول الباحثة فى ختام دراستها الأكاديمية الدقيقة: إن الصابئة الحقيقية قد أثرت فى الدروز والقرامطة، وكذلك الحرنانية كان لها تأثير كبير على فرقة الإسماعيلية، بل وامتد تأثيرها إلى الفلاسفة. ولا يبعد فى رأينا أن تكون المؤثرات اليونانية الأفلوطينية المصدر فى الفلسفة العربية مشرقها ومغربها، كتلك التى نجدها عند الكندى والفارابى وابن سينا وابن مسرة... أن يكون مرجعها ومصدرها صابئيا أو حرنانياً، خاصة وأنهم قد استمدوا مذاهبهم من أصول يونانية وأعنى بها أفلاطون وأرسطو (ص ٢٣٦-٢٣٧).

وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأن هذا البحث الخاص بالدكتورة مرفت عزت، يعد واحداً من بين أفضل البحوث الموجودة بالكتاب التذكارى.

ويدرس الدكتور أحمد صبحى موضوع الكيمياء وجابر بن حيان (من ص ٢٤٧ إلى ص ٢٥٥). وهذا الموضوع يعد من الموضوعات الهامة، وقد ألقى الدكتور أحمد صبحى العديد من الأضواء على هذا الموضوع. وعبارته تعد غاية فى الدقة، وكما عهدناه دائماً فإننا نجده ملتزماً بالأسلوب العلمى الأكاديمى الدقيق.، إنه يحلل مداخل علم الكيمياء فيتحدث عن المدخل الأول الذى يتمثل فى البعد الفلسفى، والمدخل الثانى الذى يتمثل فى البعد المنهجى، والمدخل الثالث الذى يتعلق بأساسيات العلم، والمدخل الرابع الذى يتعلق بالجانب الدينى والجانب الصوفى.

هذا البحث كما قلنا يعد من البحوث الهامة والرئيسية وقد بذل فيه باحثنا الدكتور أحمد صبحى جهداً كبيراً يكشف عن أستاذيته وريادته فى مجال البحوث العلمية والفلسفية، وإن كنا نلاحظ أن المؤلف يستخدم كلمة الكيمياء حين يتحدث عن الكيميا القديمة والكيميا فى العصور الوسطى، ومن الأفضل استخدام مصطلح الكيميا وليس الكيمياء، وذلك للتمييز بين الكيميا القديمة والوسطى، والكيمياء فى العصر الحديث.

وقد اختار الدكتور محمود زيدان موضوع الإستقراء العلمى عند العلماء العرب. وقد قسم موضوعه تقسيماً دقيقاً يكشف عن غزارة اطلاعه وعمق نظرته، وهو من هو فى مجال البحث فى مناهج وفلسفة العلوم. إنه يقسم بحثه إلى مجموعة من العناصر وذلك على النحو التالى:

- مراحل المنهج الإستقرائى.
- المصادر العربية للمنهج الإستقرائى.
- الإتجاه التجريبى عند العرب الأوائل.
- المصادر الأجنبية للعلوم العربية.

ويقول الدكتور محمود زيدان في خاتمة بحثه (ص ٢٦٧): "إن البيئة الفكرية العربية رحبت بالإتجاه التجريبي في مجال الفكر الفلسفي، يدل ذلك على اهتمام الفلاسفة مثل ابن سينا والمتكلمين مثل الباقلاني والغزالي وأهل السنة والجماعة مثل ابن تيمية بالقضايا التجريبية أو (المجربات) واعتبارها من طائفة القضايا اليقينية أو الضرورية التي لا يتطرق إليها شك، مثلها كمثل القضايا اليقينية، كما أن ابن تيمية بوجه خاص رأى أن الكليات والمجردات لا وجود لها إلا في الأذهان، أما الموجودات المحسوسة فهي فقط التي لها واقع محسوس. وكانت هذه المواقف مخالفة لما رآه أرسطو من أن القضايا التجريبية حادثة لا ضرورة لها، كما أن للكليات وجودا واقعيا على نحو ما".

وعلى الرغم من اختلافنا مع الأستاذ الدكتور محمود زيدان حول بعض أحكامه التي تتعلق بالعلوم عند العرب، وبابن تيمية، إذ أننا نرى أن العلوم عند العرب قد غلب عليها الجانب الكمي والوصفي، وبحيث أننا إذا كتبنا تاريخا للعلم العالمي، فلن يظفر العرب في هذا التاريخ إلا بمجموعة من السطور أو الصفحات، وأيضا بالنسبة لابن تيمية الذي كان عدوا لدودا لكل فكر عقلاني جاد، وبحيث نراه يتحدث عن العفاريت والكائنات الخرافية في بعض رسائله، نقول إننا رغم اختلافنا مع الدكتور محمود زيدان، إلا أن هذا الإختلاف لا يقلل من أهمية البحث الجاد الذي قدمه لنا في هذا الكتاب التذكاري. إنه بحث يكشف عن دقة الأسلوب وغزارة الإطلاع وتحليل نقدي لا نجده عند أشباه المثقفين، وعند من يزعمون لأنفسهم أنهم من أصحاب المشروعات الفلسفية، وغير ذلك من الكلام الفارغ والطبل الأجوف.

ويدرس الدكتور إبراهيم ياسين موضوع تأنيس الإنسان في التصوف الفلسفي. وهو موضوع بذل فيه مؤلفه جهدا واضحا، وإن كنا نجد بعض عناصر هذا الموضوع قد غلب عليها الإيجاز، وبحيث كانت تحتاج إلى وقفة متأنية.

إنه يقسم موضوع بحثه تقسيما دقيقا وذلك على النحو التالى:

- تأنيس الإنسان: رؤية تاريخية.
- العلاقة بين الإنسان كنظام طبيعى ومرتبة تأنيسه كنظام إلهى.
- قلب الإنسان الواصل إلى مرتبة تأنيسه.
- فكر الإنسان المتأنس.
- صفات الإنسان الواصل إلى مرتبة تأنيسه.

وأسلوب المؤلف يعد أسلوبا علميا واضحا، مما يدلنا على أن الدكتور إبراهيم ياسين قد استطاع التوصل إلى حقيقة الكثير من الأفكار الصوفية فى المجال الذى اختاره، كمجال للدراسة فى هذا الكتاب التذكارى.

أما بحث الدارسة رابحة نعمان عبد اللطيف والتى تتلمذت على فى مرحلة الماجستير، وما زالت تواصل دراستها للدكتوراة، فكان موضوعه: الإنسان عند إخوان الصفا. وقد عولت بالدرجة الأولى على رسائل إخوان الصفا وقدمت دراسة أكاديمية بذلت فيها جهدا واضحا، وإن كنا لا نجد خلال الدراسة بيانا دقيقا لمدى تأثر إخوان الصفا بالإتجاهات الفلسفية التى سبقتهم.

وتقسم الدارسة بحثها إلى مجموعة من العناصر من بينها:

- النظر فى الجسد.
- النظر فى النفس.
- علاقة النفس بالجسد.
- مركز الإنسان فى الكون.
- الإنسان بين الحياة والموت.

وقد استطاعت الربط ربطا دقيقا بين كل عنصر، والعنصر الآخر من عناصر بحثها، وهذا يدلنا على وضوح الهدف من البحث عندها.

وقد اختار الدكتور محمد أحمد عبد القادر شخصية من الشخصيات كمجال للدراسة فى هذا الكتاب التذكارى، وهى شخصية الشيخ زاهد الكوثرى. لقد تحدث عن نشأته وظروف عصره وجهوده فى الكتابة والتحقيق ومذهبه الفقهى ونزعته الأشعرية وخصومته الفكرية لأهل السلف وموقفه من العلمانيين.

تحدث الدكتور محمد عبد القادر حديثا هادئا موضوعيا من خلال بحثه عن هذه الموضوعات والقضايا واستطاع الكشف عن كثير من الجوانب الفكرية عند الشيخ زاهد الكوثرى، وإن كنا نرى من جانبنا أن بعض مواقف زاهد الكوثرى وخاصة بالنسبة للفكر العلمانى كانت تحتاج إلى وقفة نقدية من جانب المؤلف، بالإضافة إلى أن نزعته الأشعرية كانت أيضا بحاجة إلى وقفة نقدية، إذ لا يخفى علينا ما نجده فى الفكر الأشعرى من أخطاء ومغالطات.

وإذا كان الباب الثانى من أبواب الكتاب التذكارى قد جاء تحت عنوان: فى الفكر الإسلامى، فإن "قضايا وهموم" كانت عنوان الباب الثالث من أبواب الكتاب التذكارى والذى صدر اعترافا بمكانة الأستاذ الراحل محمد عبد الهادى أبو ريدة. ونجد بعض البحوث والتى لا تخلو من أهمية داخل نطاق هذا الباب، وخاصة بحث الدكتور عبد الغفار مكاوى بعنوان: الأزمة أم الإبداع. وجهد الباحث فى بحثه يعد واضحا وبارزا ويكشف عن عمق المؤلف وغزارة اطلاعه وحسه الأدبى والفلسفى.

أما بحوث القسم أو الباب الرابع، فإنها لا تخلو من أهمية وإن كان بعضها لا يتصل اتصالا مباشرا بالدكتور أبو ريدة، كتب فى هذا القسم أو الباب، الدكتور عبد الحميد صبرة، والدكتور رشدى راشد والدكتور ريتشارد مارتن والدكتور أنتونى ججا والدكتور ميشيل ميتاس، ولعل من أكثر بحوث هذا القسم اتصالا بمجهودات الدكتور أبو ريدة، البحث الذى كتبه الدكتور عبد الحميد صبرة حول الكندى، والبحث

الذى كتبه ريتشارد مارتن عن تحقيق كتاب فى التوحيد لأبى رشيد النيسابورى والذى قام بتحقيقه الدكتور أبو ريدة.

ونقول أخيراً إن هذا الكتاب التذكارى يعد إسهاماً مفيداً فى التعرف على الجوانب الفكرية للمفكر الكبير الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، سواء من حيث مؤلفاته أو ترجماته أو تحقيقاته هذا الإسهام يعد شيئاً ملفتا للنظر ويقينى أنه سيفتح أمام الباحثين الكثير من المجالات التى ستساعدهم على تقدير الرجل حق قدره، وإن كنا نجد بعض البحوث التى لا تتصل بجوانب مجهودات الدكتور أبو ريدة، اتصالاً مباشراً، وكان من الأفضل استبعاد هذه البحوث من كتاب تذكارى يصدر عن أستاذ كبير من أساتذة الفلسفة فى مصر والعالم العربى ولكن ماذا نفعل وقد انتشر بيننا فى أرض الفلسفة من يفسد فى تلك الأرض، انتشر بيننا أناس يقدمون لنا بحوثاً تعد جهلاً على جهل، لأنها صادرة عن أشباه مثقفين.

ومهما يكن من أمر، فسيظل هذا المجلد، عملاً من الأعمال الفكرية المفيدة غاية الفائدة وذلك رغم ما وجهناه إليه من أوجه نقد. ويكفى أنه يعد سعياً مشكوراً للتعريف بالرجل وإحياء ذكراه. الرجل الذى سيظل باقياً بيننا، ما بقيت حياة على وجه الأرض إنه الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة.

ثـــالثـــا

تصدير لكتاب يشمل مقالاته المنشورة وغير المنشورة

ثالثا

تصدير لكتاب يشمل مقالاته المنشورة وغير المنشورة

يحتل الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العربى المعاصر. كان رحمه الله شعلة نشاط، لا يكل ولا يمل. واعتقد اعتقادا لا يخالجنى فيه أدنى شك، أنه كان واحدا من الدارسين البارزين لفكرنا العربى. لقد حلل العديد من قضايا الفكر العربى قديما وحديثا، وما أهمها وما أكثرها. كانت له وجهة نظر ثاقبة لا يمكن لأى دارس أن يتخطاها.

كان أستاذا بكل ما تحمله كلمة الأستاذية من معان ودلالات سامية نبيلة. لم يكن من أشباه الأساتذة الذين انتشر وجودهم للأسف الشديد فى حياتنا التى نحياها وفى جامعاتنا. كان أستاذا عملاقا ولم يكن من هؤلاء الذين تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة، بل أشباه أساتذة.

درست على يديه العديد من الدروس الفلسفية وخاصة فى مجال المنطق الصورى، ومجال علم الكلام. وأشهد بنفسه الطويل فى الجدال والمناقشة. أشهد بتواضعه الشديد وبأنه لم يكن ساعيا إلى الشهرة الإعلامية والطبل الأجوف، بل سعت الشهرة إليه. أتشرف بمناقشته لى فى رسالتى للماجستير والتى أشرف عليها زميله. الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى، وكان موضوعها: النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد. لقد ناقشنى فى هدوء وتواضع وكان دليله قول القائل: إن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية، إذ كان رحمه الله مؤيدا للغزالى وفكره؛ وخاصة أن رسالته للدكتوراة بجامعة بازل بسويسرا كان موضوعها: "الغزالى ونقده للفلسفة اليونانية"، وكنت من جانبى وبحكم تأثرى بفكر ابن رشد العملاق، أرى أن الغزالى قد حشر حشرا فى

زمرة الفلسفة والفلاسفة، والفلسفة منه براء، لأنه كان عدوا للفلسفة وممهدا للعديد من الأفكار التى وجدت بعده عند عديد من الرجال ومن أبرزهم ابن تيمية الذى يمثل فى فكرنا العربى مساحة كبيرة من التخلف والرجعية وفكر الظلام والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية.

وقد باعد بيننا المكان سنوات طويلة، وخاصة أثناء وجوده بالكويت، وحين استقر به المقام بمصر، التقينا واستمر النقاش بيننا حول العديد من القضايا وكنا نتفق تارة ونختلف تارة أخرى.وكنت وما زلت ما حييت أقدر أفكار الرجل وأقول إن الإختلاف بيننا يعد دليلا على عمق فكره وثراء اتجاهه الفلسفى.

لقد استمرت اللقاءات بيننا داخل جامعة القاهرة وخارجها. وتم أكثر من حوار بيننا من خلال العديد من الأجهزة الثقافية والإعلامية. وكنت فى غاية الحزن حين شهدت بنفسى موقف بعض أشباه الأساتذة منه وكنت أقول له: هون عليك يا أستاذى الكبير، فقد أصبح الناس غير الناس. أصبح عدد أشباه الأساتذة أضعاف عدد الأساتذة. كان وفيا غاية الوفاء لأساتذته وزملائه. أشهد أنه كان دائم الزيارة لصديقه وزميل دفعته فى التخرج الدكتور توفيق الطويل، وكان أيضا فى غاية الحزن واللوعة والأسى حين علم بوفاة الدكتور توفيق الطويل وكان فى مقدمة من حرصوا على تقديم العزاء فى الرجل فى مسجد عمر مكرم بالقاهرة.

كنت أقف بجواره فى سرادق العزاء وأقول له: أين هؤلاء الذين يقولون عن أنفسهم إنهم أساتذة بالجامعة، والجامعة منهم براء. لم أجد أثرا يذكر لهم وغاب أكثرهم عن تقديم واجب العزاء.

عمل الدكتور أبو ريدة بوظائف التدريس، وترأس أقسام الفلسفة فى جامعات مصر والبلاد العربية. وكان أستاذا للفلسفة منذ عام ١٩٦٣م. ومثل مصر فى العديد من المؤتمرات الفكرية والفلسفية وله بحوث عديدة فى تلك المؤتمرات

الدولية وقد نشرت بالعربية وباللغات الأجنبية (راجع دراستنا عن تحقيقه لكتاب ثمرة الحكمة لابن الهيثم - مجلة عالم الكتاب - عدد سبتمبر ١٩٩٢م). وتوفى فى الأسبوع الثانى من نوفمبر عام ١٩٩١م، بسويسرا حيث دفن فيها تنفيذا لوصيته) وجمع الدكتور أبو ريدة بين الإهتمام بالتحقيق والترجمة والتأليف. ومن الكتب الهامة التى قام بترجمتها، كتاب وجهة الإسلام لجب، وكتاب الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز، وكتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور. ومن تحقيقاته بالإضافة إلى ثمرة الحكمة لابن الهيثم، تحقيق رسائل الكندى، وتحقيق كتاب فى التوحيد لأبى رشيد النيسابورى.

والدكتور أبو ريدة كان طوال حياته مثلا يحتذى فى التأليف والبحث. إن كل سطر يكتبه يفتح الآفاق لعديد من الدراسات الأكاديمية. وعلاقته بطلاب البحث تمثل خير تمثيل وظيفة المشرف كما ينبغى أن يكون. يمد طلابه بالعديد من المصادر الهامة ويضع أيديهم على المنهج الدقيق فى البحث والدراسة، ويأخذ بأيديهم طوال فترة الإشراف عليهم.

كان الدكتور أبو ريدة شعلة نشاط كما قلنا. لقد عمل بالعديد من الجامعات العربية (آداب القاهرة وآداب عين شمس والجامعة الليبية وجامعة الكويت) والجامعات الغربية، وعمل مستشارا ثقافيا بالسفارة المصرية فى أسبانيا، وشارك فى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد.

وهل يمكن أن ننسى تحقيقه الرائع لرسائل الكندى الفلسفية، هل يمكن أن ننسى أو أن نتناسى تعليقاته الدقيقة على كتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور. لقد تعلمت منه أمانة الكلمة ودقة التحقيق. تعلمت منه أهمية أن يكون الدارس على صلة بالعديد من اللغات الأخرى غير العربية. لقد كان يتقن العديد من اللغات

الأوروبية ومن بينها الفرنسية والألمانية والإنجليزية والأسبانية واللاتينية لقد تزود بالثقافتين العربية والأجنبية.

كان غاية فى الذكاء ودقة الملاحظة. يعرف هذا تماما كل من تتلمذ على يديه. كان فى غاية الطموح العلمى. واعتقد من جانبى اعتقادا لا يخالجنى فيه أدنى شك أن الرجل كانت لديه مئات الأفكار التى يود الكتابة عنها وسبر أغوارها، ولكن القدر لم يمهله، بالإضافة إلى أن زواج المشتغل بالفلسفة، يقف عادة عقبة فى طريق الطموح العلمى والإبداع الفكرى، وبحيث يمكن القول بالتعارض التام بين الزواج والأبناء من جهة، والطريق الفلسفى الإبداعى من جهة أخرى.

والكتاب الذى نقوم بالتصدير له اليوم[1] وبعد مرور عدة أعوام على وفاة المفكر العربى المصرى الدكتور أبو ريدة لا يمكن أن يستغنى عنه أى مهتم بالفكر العربى الإسلامى من قريب أو من بعيد. إنه يدرس العديد من الموضوعات البالغة الأهمية، والكثير من القضايا التى تحتل حتى اليوم مكانة بارزة، وهذا الكتاب كان فى الأصل مجموعة من المقالات الممتازة نشرت بالقبس الكويتية، بالإضافة إلى مقالات أخرى لم تنشر. أقول هذا لأن القارئ قد يجد نوعا من التكرار فى بعض المقالات، إذ يوجد عادة فرق بين الكتاب الذى يمثل الوحدة العضوية، وبين الكتاب الذى كان فى الأصل مجموعة من المقالات، منشورة أو غير منشورة.

لقد تحدثت مع أستاذى الجليل الدكتور أبو ريدة حول أهمية نشر هذه المقالات، وقد استجاب لى بعد عدة محاولات، ولكن القدر لم يمهله حتى يراها فى كتاب. وقد رأيت أن الواجب يقتضينى أن أقوم بإعداد هذه المقالات للطبع والنشر. إن هذا أقل القليل من جانبى نحو الرجل الذى تعلمت منه، تعلمت على يديه منذ

[1] لم يصدر الكتاب بعد.

عام ١٩٥٤، وحتى قبيل وفاته. نحو الرجل الذى كان يكتب فى ثقة، وواثق الخطوة يمشى ملكا. نحو الرجل صاحب المبادئ والقيم السامية النبيلة والذى شق طريقه وسط الأشواك والصخور. الرجل الذى دخل تاريخنا الفكرى الفلسفى من أوسع الأبواب وأرحبها. ومن حقنا أن نفخر بعالمنا المصرى الكبير، ومن واجبنا أن نتأمل فى كل كلمة قالها، وفى كل فكرة دعا إليها، وفى كل قيمة جليلة دعانا إليها.

والله هو الموفق للسداد،

رابعــاً

ثمرة الحكمة لابن الهيثم

تحقيق د. محمد عبد الهادى أبو ريدة

رابعا

ثمرة الحكمة للحسن بن الهيثم

تحقيق: د. محمد عبد الهادى أبوريدة

يحتل الحسن بن الهيثم مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العلمى والفلسفى عند العرب. إنه يعد علامة بارزة ومضيئة فى سماء حياتنا الفكرية والعلمية. وإذا كان الحسن بن الهيثم قد ترك لنا العديد من الكتب والرسائل فى المجال العلمى وخاصة الرياضى، فإنه قد ترك لنا بعض الرسائل والكتب التى تعالج موضوعات فلسفية. وقد كان هذا يعد شيئا متوقعا، إذ أن العلم كان يدخل فى إطار الفلسفة بمعناها القديم، والمعنى الذى وجد فى العصر الوسيط أيضا.. ومن هنا وجدنا ابن سينا فيلسوفا وطبيبا ووجدنا ابن رشد فيلسوفا وطبيبا وهكذا إلى آخر المفكرين الذين جمعوا بين العلم والفلسفة، وإن كان يغلب على واحد منهم الجانب العلمى وبحيث يعد أكثر بروزا عنده من الجانب الفلسفى، ويغلب على الآخر الجانب الفلسفى وبحيث يعد أكثر شهرة فى هذا المجال منه فى المجال الآخر، أى المجال العلمى.

ومقالة "ثمرة الحكمة" لابن الهيثم والتى تعد موضوع دراستنا فى هذه المقالة، تعد على جانب كبير من الأهمية، إذ تمثل الحسن بين الهيثم العالم والفيلسوف. قام بتحقيق هذه الرسالة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة. وهو من هو فى دقة تحقيقاته ودراسته الرائدة والعميقة غاية العمق. إنه يمثل جيلا من المحققين والدارسين من النادر أن نجده الآن. وهل يستطيع أى دارس أن يتغافل عن تحقيق الدكتور أبو ريدة لرسائل الكندى الفلسفية وغيرها من الكتب والرسائل التى قام بتأليفها أعلام كبار فى تاريخنا الفكرى الفلسفى.

وإذا كان الحسن بن الهيثم كما أشرنا منذ قليل قد ترك لنا العديد من الكتب والرسائل فى المجال الفلسفى، والمجال العلمى الرياضى، فإن سعادتنا كانت بالغة حين قام الدكتور أبو ريدة بتحقيق هذه الرسالة النادرة لابن الهيثم، رسالة "ثمرة الحكمة"، إذ لا يستغنى عنها الدارس للمجال العلمى عند ابن الهيثم، والمهتم بالمجال الفلسفى أيضا عند مفكرنا العربى. لقد بذل الدكتور أبو ريدة جهدا كبيرا فى تحقيق المقالة تحقيقا يعد آية فى الدقة ووضع للنص مجموعة من العناوين تجعل قراءته أمرا ميسورا، بالإضافة إلى مقدمته الرائعة والمستفيضة التى تسبق نص الكتاب أو الرسالة.

تقع الدراسة التى كتبها عالمنا الدكتور أبو ريدة فى ١٤ صفحة. ويقع النص فى ٢٠ صفحة. وقد أشار المحقق فى أول صفحة من صفحات مقدمته إلى أن دراسته عن ثمرة الحكمة كانت قد نشرت فى الكتاب التذكارى المهدى إلى الأستاذ الكبير الدكتور زكى نجيب محمود.

وتنقسم رسالة "ثمرة الحكمة" لابن الهيثم إلى مجموعة من النقاط والعناصر وذلك على النحو الآتى:

- قوى النفس.
- النفس الناطقة وقواها.
- أصول الحكمة وقواعدها.
- نظرية الأحلام.
- العقل وقواه.
- الإنسان والخير والسعادة.
- نظرية اللذة والألم.
- الراحة الإنسانية.

- الإنسان الحقيقى.
- أقسام الفلسفة وفوائدها.
- الإنسان التام.
- فوائد الحكمة وفضائلها.
- المنهج للوصول إلى الحكمة.
- أصول الهندسة والعلوم المستفادة منها.
- مدخل إلى صناعة الهندسة.
- أنواع البرهان – مراتب البرهان.
- أقسام البرهان الهندسى.
- فضيلة علم الهندسة وفوائده.
- الحكمة تحقق إنسانية الإنسان.
- أقسام العوام الذين لم يحصلوا الحكمة.

وقبل أن نشير إلى أبرز الآراء التى قال بها ابن الهيثم من خلال هذه العناصر، نود أن نقف قليلاً عند المقدمة أو التصدير الرائع والدقيق الذى كتبه الدكتور العلامة محمد عبد الهادى أبو ريدة وقد ركز فى تصديره على إبراز مكانة ابن الهيثم من جهة، وأهمية رسالة ثمرة الحكمة من جهة أخرى.

لقد أشار الدكتور أبو ريدة إلى أهمية ابن الهيثم فى مجال تاريخ العلوم عند العرب، وذلك فى قوله (ص ١ من التصدير): أبو على الحسن بن الحسن – أو كما يسمى أحياناً: محمد بن الحسن بن الهيثم – عالم فذ فى تاريخ العلوم عند المسلمين وفى تاريخ العلم العالمى، بفضل اجتهاده فى البحث عن الحقائق وعكوفه على طلبها فى ميادين العلم بمعناه الخاص، وذلك من غير إغفال لحياة الفكر فى الإسلام وحضارته. تفرغ ابن الهيثم للعلم منذ وقت مبكر من حياته فى زهد رفيع وقناعة

نادرة، فدرس مؤلفات الفلاسفة خصوصاً أرسطو وجالينوس وبطليموس وإقليدس وشرح منها الكثير، وكان ينعم النظر فيما يقرأ ويدرس فينقد بعد فهم دقيق. وقد استطاع أن يضع معياراً للمعرفة الصحيحة من جهة، وأن يجدد المعرفة بوجه عام من جهة أخرى، وأن يبتكر من جهة ثالثة وهذا الإبتكار يتجلى فى نقده لمذاهب القدماء وإكماله لأبحاثهم. نجد ذلك مثلاً فى كتابه: "الشكوك على بطليموس" وكتابه "حل شكوك كتاب إقليدس فى الأصول". وفى مقدمة ابن الهيثم للكتابين شئ من نوع اهتمام هذا العالم وروحه وغاياته العلمية وخلقه العلمى. على أنه إذا كان عالمنا قد نبغ وجدد فى دراسة الفلك والرياضيات، فإن أبحاثه فى علم الطبيعة وخصوصاً كشوفه فى "علم البصريات" Optics أو "علم المناظر" كما سماه هو، هى التى دعت مؤرخى العلم إلى القول بأنه مؤسس علم الضوء بمعناه الحديث. والحق أنه قلب النظرية القديمة فى كيفية حدوث الإبصار رأساً على عقب، بأن أثبت أن الإبصار لا يكون بشعاع يخرج من العين كما تصور القدماء، بل بانعكاس الضوء من المبصرات ووصوله إلى العين. وقد اخترع ابن الهيثم من الأجهزة والآلات ما مكنه من البحث العلمى الدقيق ومن الوصول إلى ما انتهى إليه من نتائج.

ويشير الدكتور أبو ريدة إلى أن عمل ابن الهيثم لم يقتصر على تصحيح تصورات القدماء ونظرياتهم، بل إنه قد توصل بكشوفاته إلى استحداث فروع جديدة فى علم البصريات. كما يحيلنا الدكتور أبو ريدة إلى الكثير من الدراسات عن ابن الهيثم وعلى رأسها الدراسة الرائدة التى كتبها مصطفى نظيف عام ١٩٤٢ بالقاهرة وذلك تحت عنوان: الحسن بن الهيثم: كشوفه البصرية.

كما يذكر الدكتور أبو ريدة مجموعة من العلماء الذين وضعوا بصماتهم على تاريخ العلوم من بينهم جابر بن حيان الذى وضع قواعد المنهج فى علم الكيمياء على أساس نظرى هو أن الأجسام كلها ترجع إلى أصول واحدة وأن الإختلاف بينها

يرجع إلى تفاوت النسب والمقادير فى تركيبها، وأيضاً على أساس الإعتماد على التجربة ونتائجها.

ومن بين العلماء أيضاً الشيخ الرئيس ابن سينا، والذى كان منهجه فى الطب يعتمد على استبعاد الإستدلال النظرى فى أمور العلاج وعلى التجربة. وهو قد أعطانا مثالاً جيداً للتجربة على الدواء من حيث تأثيره فى المرض بحسب شروط وضعها لامتحان الدواء. وهذا ما نجده مفصلاً فى كتاب القانون لابن سينا.

أما بالنسبة لابن الهيثم، فإننا نجده مهتماً فى البداية بوضع معيار للمعرفة الصحيحة فى مجال البحث فى العلم الطبيعى، وهو أن تكون المعرفة معتمدة على الحس والعقل معاً.

لقد شرح لنا ابن الهيثم – كما يقول الدكتور أبو ريدة – كيف أن البحث فى الإبصار والمبصرات تجمع بين النظر فى العلوم الطبيعية من جهة والنظر فى العلوم التعليمية أى الرياضيات من جهة أخرى.

ونلاحظ من جانبنا – رغم الجهد الكبير الذى قام به الدكتور أبو ريدة فى مجال التنبيه إلى أهمية بعض العلماء من أمثال جابر بن حيان وابن سينا وابن الهيثم أنه كان من الأفضل بيان كيف اختلط الجانب الكمى بالجانب الكيفى عند أكثر علماء العرب، إن لم يكن عند كل علماء العرب. إننا حين نقرأ كتابات جابر بن حيان (الكيميا) وكتابات ابن سينا (الطب) وكتابات ابن الهيثم (الرياضيات) نلاحظ بعض الأبعاد الكيفية عند هؤلاء العلماء. والعلم كم وكم فقط ولا يصح أن يختلط الجانب الكيفى بالجانب الكمى. إن أهم ميزة نجدها فى العلم الحديث هى التركيز على الجانب الكمى فقط ، والجانب الكيفى لا يتصل بالعلم من قريب أو من بعيد.

يضاف إلى ذلك أنه بالنسبة لابن سينا، فإنه رغم الجهد الذى بذله فى مجال الطب، وعلى النحو الذى أشار إليه الأستاذ الدكتور أبو ريدة، إلا أننا نلاحظ أن الجانب التجريبى فى الطب عند ابن سينا يعد أقل درجة من الجانب التجريبى فى مجال الطب عند أبى بكر الرازى والذى يعد أعظم طبيب أنجبته الحضارة العربية الإسلامية. وإذا كنا نفرق عادة بين فلاسفة أطباء، وأطباء فلاسفة، فإننا يمكن أن ندرج ابن سينا ضمن الفلاسفة الأطباء على اعتبار غلبة الجوانب الفلسفية على المجال الطبى عند ابن سينا، أما أبو بكر الرازى فإنه يعد ممثلا بحق للأطباء الفلاسفة، إذ غلب على طبه الجانب التجريبى أساسا والذى يعتمد على المشاهدة والملاحظة والفحص وإجراء التجارب الطبية المعملية.

ويشير الدكتور أبوريدة فى مقدمته الرائعة والدقيقة لكتاب ابن الهيثم "ثمرة الحكمة" إلى طريقة ابن الهيثم فى نقد المعرفة العلمية وتجديدها أو إكمالها، واهتمامه بالحقيقة العلمية واجتهاده فى الوصول إليها. ويحيلنا الدكتور أبو ريدة إلى مجموعة من النصوص الهامة فى كتاب ابن الهيثم "حل شكوك كتاب إقليدس فى الأصول وشرح معانيه". ومن بين النصوص التى يقول بها ابن الهيثم، والتى يشير الدكتور أبو ريدة إلى أهميتها، قول ابن الهيثم: الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده. وأيضا قول ابن الهيثم: ووجود الحق صعب والطريق إليه وعر والحقائق منغمسة فى الشبهات، وحسن الظن بالعلماء فى طباع جميع الناس... وما عصم الله العلماء من الزلل ولا حمى علمهم من التقصير والخلل، ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء فى شئ من العلوم ولا تفرقت آراؤهم فى شئ من حقائق الأمور، والوجود بخلاف ذلك.

والواقع أن الدكتور أبو ريدة قد بذل جهدا كبيرا فى إثارة العديد من النقاط التى تعد بالغة الأهمية، وفى طرح الكثير من القضايا الجوهرية والتى ترتبط

بفكر ابن الهيثم العلمى والفلسفى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. لقد استطاع الدكتور أبو ريدة أن يربط بين العديد من الآراء التى قال بها ابن الهيثم فى رسالته عن ثمرة الحكمة، والآراء التى قال بها فى رسائله وكتبه الأخرى. وهذا يعد شيئاً ضرورياً لإيجاد نسق تدخل فى إطاره أبرز الآراء العلمية والفلسفية عند عالمنا ومفكرنا الحسن ابن الهيثم.

لقد حلل الدكتور أبو ريدة فى مقدمته موضوع الشك ومعيار المعرفة الصحيحة عند ابن الهيثم يقول الدكتور أبو ريدة: دخل ابن الهيثم فى مجال البحث فى الفلسفة والعلم من باب التفكير والشك، وكان فى أول أمره فتى ذكيا معتزاً بتوثبه العقلى مستنكفاً من مماثلة الجاهلين والأغبياء والمقلدين... ولم يفت عن تفكير عالمنا فى أثناء طموحه العلمى، أن طبيعة الإنسان بعد الإزدهار والقوة، مآلها إلى الضعف والإنحلال، لكن ذلك لا يفت فى عضد المفكر المتوثب المؤمن، ولا يوقف عقله عن وظيفته التى فطره الله عليها... إن العالم والمفكر الحق يشعر أن العلم لا نهاية له (ص ٨-٩ من تصدير د. أبو ريدة)

ويحدثنا الدكتور أبو ريدة عن ابن الهيثم والفكر الإسلامى فى عصره وخاصة أن حياة ابن الهيثم كانت فى فترة ازدهار علم الكلام المعتزلى وبلوغه درجة كبيرة عالية فى مؤلفات القاضى عبد الجبار المعتزلى، بالإضافة إلى إزدهار علم الكلام الأشعرى (المرحلة الأولى) على يد القاضى أبى بكر الباقلانى.

إن حياة ابن الهيثم تقع بين عام ٣٥٤هـ و٤٣٢هـ تقريباً. ووفاة القاضى عبد الجبار كانت سنة ٤١٥هـ أو ٤١٦هـ، ووفاة الباقلانى كانت فى حدود سنة ٤٠٣هـ.

لقد كان ابن الهيثم معاصراً لمسكويه (٤٢١هـ) وابن سينا الفيلسوف والعالم (٤٢٨هـ) والبيرونى (٤٤٠هـ)

وبعد حديث الدكتور أبـو ريدة عن اهتمـام ابن الهيثم باتخاذ موقف إزاء التيارات الفكرية فى عصره والدليل على ذلك رده على ابن الراوندى، وأبى بكر الرازى، والمعتزلة فى بعض آرائهم، وحديثه عن ابن الهيثم العالم الزاهد المتعفف عن عطايا الناس، يحدد لنا أهمية رسالة ثمرة الحكمة باعتبار أن موضوعها يدور حول المنهج الهندسى وفائدته فى تمرين الذهن لطالب الحكمـة، وكيف عرف الفلاسفة منذ قديم الزمان أهمية دراسة الهندسة وعلوم الرياضيات بوجه عام فى تقويم الذهن (أفلاطون والكندى والفارابى).

إن رسالة ثمرة الحكمة – فيما يقول الدكتور أبو ريدة تعد تعبيرا عن سعى ابن الهيثم إلى تحقيق غاية هذه الحياة التى تتمثل فى طلب الحق ومحبة الخير والعدل ومجانبة الشرور والسعادة بالحكمة التى يصل إليها الإنسان بفضل الجـهد والعزوف عن الجرى وراء متاع الدنيا الزائف المنقضى. (ص ١٤ من التصدير).

والواقع أن المقدمة الرائعة والدقيقة التى كتبها الدكتـور أبـو ريدة تعد غاية فى الأهمية، وتعد ضرورية للتعرف على جوانب كثيرة من حياة ابن الهيثم الفكرية والخلقية، بالإضافة إلى أنها تكشف النقاب عن مجالات عديدة متنوعة ترتبط بالعناصر الرئيسية فى رسالة ثمرة الحكمة. لقد بذل محققنا الدكتور أبو ريدة جهدا كبير – كما قلنا – فى دراسته للرسالة ومؤلفها، تماما كما نشيد بدراسته الرائعة لآراء الكندى قبل تحقيق رسائله.

ولا نشك فى أن تحقيق التراث، تراثنا العربى يعد من الأمور البالغة الأهمية. وقد قلنا ونكرر القول بأنه لا خير فينا إذا أهملنا تراثنا. صحيح أننا نجد فى رسالة ثمرة الحكمة بعض الآراء التى قد نختلف مع ابن الهيثم حولها، ولكن هذا لا يقلل من أهمية الرسالة التى تدخل فى إطار التراث العلمى والفلسفى الذى تركه أجدادنا من المفكرين الكبار. نعم لا خير فينا إذا أهملنا تراثنا إذ كيف نقوم بإحياء التراث إلا

إذا سبق الإحياء، نشر التراث. وإذا كنا نفرق بين طبع التراث وتحقيق التراث، فإن العمل الذى قام به الدكتور أبو ريدة يدخل دخولا مباشرا فى مجال تحقيق التراث. لقد كتب مقدمة واعية مستفيضة للرسالة، رسالة ابن الهيثم، بذل أقصى الجهد فى ضبط النص وكتابة العديد من الشروح والحواشى عليه. لقد قدم للباحثين والمهتمين بفكرنا الفلسفى العربى خدمة كبرى. فالنص أصبح أمامهم دقيقا غاية الدقة، وما كتبه الدكتور أبو ريدة حول النص يفتح الطريق للعديد من الدراسات فى المستقبل والتى تدور حول ابن الهيثم ومدى تأثره بالسابقين وتأثيره فى اللاحقين.

قلنا إن رسالة ثمرة الحكمة قد تضمنت العديد من المجالات التى تدخل فى إطار الفكر الفلسفى والعلمى. ونود أن نقف وقفة قصيرة عند بعض المجالات أو الميادين التى اهتم ابن الهيثم بدراستها داخل إطار رسالته عن ثمرة الحكمة.

يحدد ابن الهيثم قوى النفس، ويرى أنها تتمثل فى القوة المنسوبة إلى اللذات، أى القوة الشهوانية، والقوة المنسوبة إلى الظفر والغلبة، أى القوة الغضبية، والقوة المنسوبة إلى السعادة، أى القوة الناطقة أو العاقلة.

ولكل قوة من القوى الثلاث نجد الوسط أو الفضيلة. فالوسط بالنسبة للقوة الشهوانية يتمثل فى العفة. والوسط بالنسبة إلى الغضبية يتمثل فى الشجاعة والتى تعد وسطا بين التهور والجبن، والناطقة يتمثل الوسط بالنسبة لها فى العقل والذى يعد وسطا بين الجهل من جهة والحمق من جهة أخرى.

ومن الواضح تأثر ابن الهيثم فى هذا المجال من دراسته بأفلاطون الفيلسوف اليونانى وتلميذه أرسطو. لقد اهتم الفيلسوفان الأستاذ والتلميذ، بدراسة هذا المجال الذى يتحدث عنه فيلسوفنا وعالمنا الكبير ابن الهيثم.

ويتحدث ابن الهيثم عن العقل وقواه، ويرى أن للعقل ست قوى ذاتية وثلاث قوى عرضية.

والقوى الذاتية هى:

التصور العقلى= حفظ صورة الموجودات والحكم على كل واحد منها.

الحفظ = ثبات صورة المعقولات والمحسوسات فى النفس.

الذهن = جودة التمييز بين الأشياء.

الذكاء = سرعة المعرفة.

الرأى = نهاية الفكر.

اليقين = مطابقة العقل معقوله.

أما بالنسبة للقوى العرضية فإنها تتمثل فى ثلاث هى: الظن والتوهم والشك؟

والظن هو تحاذى الرأيين.

والتوهم هو موافقة الظن من غير إثبات الحكم .

والشك هو تردد النفس بين الإثبات والنفى.

وينتقل ابن الهيثم من حديثه عن قوى العقل إلى دراسة موضوع الإنسان والخير والسعادة، كما يتحدث عن موضوع اللذة والألم. فالراحة من الألم هى التى يشترك فيها الحيوان الأرضى الناطق وغير الناطق، مثل الشبع، فإنه راحة من ألم الجوع، والرى، فإنه راحة من ألم العطش... وهكذا.

ويحدد ابن الهيثم موضوع الراحة الإنسانية، أى الراحة التى يختص بها الإنسان دون الحيوان. إنها تتمثل فى العلم بكل حق بعد الجهل به، والعمل لكل نافع بعد الإلغاء له.

والعلم بكل حق والعمل لكل نافع هما جزءا الحكمة، فإذن إدراك الحكمة هو الراحة من غير ألم. يقول ابن الهيثم: فواجب أن يكون إدراك هذا هو السعادة، لأن الإنسان يتميز عن سائر الحيوان الأرضى بالعقل، فالعقل لابد أن يتميز عن سائر

غيره من الحيوان بما لا يشاركه سائر الحيوان الأرضى فيه، ومالا يشارك الإنسان غيره من الحيوان الأرضى فيه هو إدراك الحكمة. (ص ٢١).

ومن الواضح أن ابن الهيثم فى دراسته لهذه الموضوعات يعد متأثرا إلى حد كبير بأرسطو. وكنا ننتظر من ابن الهيثم آراء جديدة، آراء يناقش من خلالها، الجوانب التى بحث فيها من سبقه من الفلاسفة، ولكنه لم يفعل. إن هذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على أن مفكرى العرب كانوا عالة إلى حد كبير على فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أرسطو.

ومما يدلنا على تأثر ابن الهيثم تأثرا كبيرا بأرسطو، حديثه عن أقسام الفلسفة وفوائدها. إن الحكمة إذا كانت تتمثل فى علم كل حق وعمل كل نافع، وذلك على النحو الذى أشرنا إليه منذ قليل، فإن الحكمة منها جانب نظرى ومنها جانب عملى. والجانب النظرى أو العلمى يتمثل فى:

- الرياضى كعلم خواص الأشكال والأعداد.
- الطبيعى كعلم خواص الموجودات وطبائعها وعللها ومبادئها.
- الإلهى كعلم ما هو خارج السماء الذى هو الفاعل الأول وأول الأوائل، أى الله تعالى وما يليق به من الصفات فى ذاته وأفعاله. (ص ٢١)

هذا عن أقسام العلم النظرى، أما الجانب العملى فإنه ينقسم إلى قسمين: أحدهما حفظ الصحة والآخر حيلة البرء. يقول ابن الهيثم: إنهما يستعملان إما فى تدبير نفس واحدة كصناعة الطب وهذا يسمى إصلاح الأخلاق، وإما فى تدبير عدة أنفس كتدبير الرجل منزله، وإما فى تدبير أمة من الناس كتدبير المدن بوضع السنن وإقامة القصاص والمجازاة، وهذا يسمى السياسة النبوية. (ص ٢١)

والواقع أن تأثر ابن الهيثم بأرسطو يعد تأثرا كبيرا. لقد استفاد العديد من الآراء من فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو وذلك على النحو الذى سبق أن أشرنا إليه.

وإذا كانت رسالة ثمرة الحكمة قد تضمنت الجوانب الفلسفية والجوانب العلمية والرياضية فإننا نجد ابن الهيثم ينتقل من دراسته للعديد من المجالات الفلسفية، إلى الحديث عن جوانب رياضية. إنه يحدثنا عن الأصول الهندسية والعلوم المستفادة منها. إن الأصول الهندسية أربعة أجزاء على النحو التالى: (ص ٢٣، ٢٤، ٢٥)

أولها: علم خواص الأشكال.

والثانى: علم خواص الأعداد.

والثالث: علم التأليف وهو الذى يسميه اليونانيون الموسيقا.

والرابع: علم هيئة الأفلاك وحركاتها.

أما العلوم التى تستفاد من هذه الأصول، فإنها على النحو التالى:

١- علم المساحة.

٢- علم حساب المعاملات.

٣- علم حساب الجبر.

٤- علم حساب الفرائض والوصايا.

٥- علم المناظر.

٦- استخراج مراكز الأثقال.

٧- استخراج المسائل الرياضية.

٨- علم الحيل.

٩- علم هيئة السماء والأرض وعدد أفلاك الكواكب وأقدار أجرامها وأبعادها من الأرض.

١٠- علم صناعة الرصد والكواكب واستخراج الآلات التى ترصد بها وتحصيل حركات الكواكب فى الطول والعرض والصعود والهبوط والسرعة والإبطاء.

١١- علم أظلال المقاييس.

١٢- علم سطح الكرة.

١٣- استخراج آلات الماء وقسمتها بأزمان النهار والليل.

١٤- علم تأليف الألحان.

١٥- علم الأبنية وحفر الأنهار ... الخ.

والواقع أن حديث ابن الهيثم عن أصول الهندسة والعلوم المستفادة منها، يكشف عن تعمقه فى دراسة العلوم الهندسية الرياضية. إنه يدرس أدق التفاصيل ويورد الكثير من التعريفات. فموضوع الهندسة أربعة أشياء:

- شئ لا بعد له وهو النقطة، والنقطة شئ لا جزء له.

- شئ له بعد واحد وهو الخط، والخط طول لا عرض له.

- شئ له بعدان وهو السطح، والسطح هو طول وعرض فقط.

- شئ له أبعاد ثلاثة وهو الجسم، والجسم هو طول وعرض وعمق.

ومن الواضح تأثر ابن الهيثم بإقليدس فى دراسته للمجالات الرياضية الهندسية. إن الكثير من التعريفات التى يذكرها، تعد تأثرا واضحا من جانبه بإقليدس.

ويعتز ابن الهيثم بعلم الهندسة اعتزازا كبيرا. إن لعلم الهندسة أثره على تصور الإنسان وحدة ذكائه وصفاء ذهنه وتهذيب أخلاقه. (ص ٣٣)

والواقع أن رسالة ثمرة الحكمة رغم إيجازها تعد بالغة الأهمية ولا غنى عنها للمهتم بالفكر الفلسفى والعلمى من قريب أو من بعيد. إنها تكشف عن جانب من الجوانب الوضاءة والمشرقة فى تراثنا الذى تركه أجدادنا من العرب. ومن حقنا أن نفخر بما تركوه لنا من تراث.

لقد قدم الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة للمهتمين بالتراث الفلسفى والعلمى خدمة كبرى. إن تحقيقه للرسالة جاء معبرا عن اهتمامه البالغ بتراثنا العلمى

والفلسفي، جاء معبرا عن دقته الكبرى في التحقيق. والدراسة التي قدمها لنا الدكتور أبو ريدة عالمنا الكبير لرسالة ثمرة الحكمة، تعد دراسة رائدة. دراسة معبرة عن ثقافته العلمية والفلسفية واطلاعه الواسع، الإطلاع بغير حدود. إنه في تصديره يمشي واثق الخطوة، وواثق الخطوة يمشي ملكا. فمن حقنا أن نفخر بعالمنا ابن الهيثم، ومن حقنا أن نفخر بالدكتور أبو ريدة محققا لرسالة ثمرة الحكمة، ودارسا دراسة متأنية لكل أبعاد الرسالة. ومن واجبنا أيضا أن نوجه شبابنا إلى العناية بتراثنا ودراسته حق الدراسة.

الفصل الخامس

كتاب تدبير المتوحد لابن باجة



كتاب تدبير المتوحد
لابن باجة[1]

إذا كان الفيلسوف الأندلسى أبو بكر ابن الصائغ المعروف بابن باجة قد ترك لنا الكثير من الكتب والرسائل إلا أن أشهر كتاب من الكتب التى تركها لنا هذا الفيلسوف هو كتابه "تدبير المتوحد" الذى تضمن أكثر جوانب فلسفة هذا الفيلسوف سواء كانت تلك الجوانب، جوانب إلهية أو جوانب خلقية سياسية ولهذا فسنتحدث عن فلسفته من خلال كتابه "تدبير المتوحد".

فهذا الكتاب يعد أهم وأشهر كتب هذا الفيلسوف على وجه الإطلاق. وإذا أراد أى دارس التعرف على فكر هذا الفيلسوف، فلا مفر من الرجوع إلى هذا الكتاب لأنه – كما ذكرنا – قد تضمن أكثر جوانب فكر هذا المفكر العظيم. فلا يذكر ابن باجة إلا ويذكر معه هذا الكتاب.

ولهذا فإن الدارسين إذا تحدثوا عن أثر ابن باجة فى الفلاسفة والمفكرين الذين أتوا بعد ابن باجة ، فإنهم يقصدون إلى حد كبير أثر كتاب تدبير المتوحد على فكر الذين أتوا بعد هذا الفيلسوف. إذ أن هذا الكتاب يدلنا على عمق ثقافة هذا الفيلسوف وكيف استفاد من المصادر الإسلامية والمصادر اليونانية وخاصة الأفلاطونية والأرسطية.

---

[1] يمكن الرجوع إلى ما كتبناه عن ابن باجة فى كتابنا: الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل، وكتابنا الفلسفة العربية (مدخل جديد).

وقبل أن نكشف عن محتوى هذا الكتاب وأثره فى المفكرين سواء أكانوا عرباً أو كانوا من الغربيين، يجدر بنا أن نتحدث بإيجاز عن أبرز ما تضمنه هذا الكتاب من جوانب.

يعرض لنا ابن باجة فى هذا الكتاب لكثير من الجوانب الفلسفية والإجتماعية التى تعد فى نظره تخطيطا لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان الكامل الذى يطلق عليه ابن باجة لفظة "المتوحد".

ولهذا نجده فى أول كتابه يحدد لنا معنى "التدبير" ومعنى "المتوحد". إن التدبير يعنى ترتيب أفعال نحو غاية مقصودة ولهذا فلفظة "التدبير" لا تطلق على الفعل الواحد وإنما تقال على جملة أفعال. ولهذا نقول إن الله هو مدبر العالم. ولكن لابد لنا من التمييز بين تدبير الإنسان المتوحد وتدبير الله، لأن تدبير الله يعتبر تدبيراً مطلقاً يشمل العالم كله.

كما يحدد لنا ابن باجة معنى المتوحد. إنه يعنى بهذه اللفظة، لفظة المتوحد، الإنسان المفرد الذى يحيا سواء فى نفسه أو مع غيره حياة مفردة يحصل فيها على سعادة مفردة أيضاً.

ونود أن نشير إلى أن ابن باجة كما هو واضح فى أول كتابه يطلق هذه اللفظة على الفرد الواحد كما يطلقها على الجماعة والمدينة المكونة من أفراد مفردين، يعيش كل منهم فى نفسه ويحيا كلهم فيما بينهم نمطاً من الحياة التى يدبرها الفكر.

وبعد أن يحدد لنا ابن باجة ما يعنيه بلفظة "التدبير" وما يعنيه بلفظة "المتوحد" يبين لنا أن أفعال هؤلاء المتوحدين لما كانت تصدر عن الفكر وتلتزم بمنهجه، فإنهم أصبحوا فى غير حاجة إلى الأطباء والقضاة، إنهم لا يأكلون إلا الملائم من الغذاء ومن هنا لا يحتاجون إلى الأطباء، كما أن حياتهم تسودها المحبة والإخاء

والمودة ومن هنا لا يحتاجون إلى القضاة. يقول ابن باجة: فمن خواص المدينة الكاملة ألا يكون فيها طبيب ولا قاض".

ويقسم ابن باجة الأفعال إلى أفعال اضطرارية خاصة بالجماد وأفعال غريزية خاصة بالحيوان وأفعال إنسانية تصدر عن الإختيار والفكر ولها غاية وهى خاصة بالإنسان.

ويلاحظ ابن باجة أننا نجد بعض أفراد الإنسان يغلب عليهم الأفعال الحيوانية. ولكن ابن باجة يرى ضرورة خضوع النفس الحيوانية للنفس الناطقة أو العاقلة كما يرى ضرورة تحلى الإنسان بالفضائل الأخلاقية وإلا لأصبح فى عداد الحيوانات.

إن الإنسان لو تحلى بالفضائل الأخلاقية: أصبح جديراً بلفظة الإنسان، كما أن أفعاله خليقة بأن تصبح إلهية.

ومن هنا يذهب ابن باجة إلى أن أسمى غاية يجب على المتوحد أن يسعى إلى تحقيقها هى إدراك الأمور الروحانية، وهنا نجد ابن باجة يعرض للصور الروحانية ودرجاتها المتنوعة وذلك فى كتابه تدبير المتوحد.

إنه يقسم هذه الصور الروحانية إلى صور الأجرام المستديرة وإلى العقل الفعال والعقل المستفاد وإلى المعقولات الهيولانية وإلى المعانى الموجودة فى النفس.

وينتقل ابن باجة من ذلك إلى بيان أن الفلاسفة هم على رأس أعلى مرتبة من مراتب الناس. وقد تأثر فى ذلك بأفلاطون. وسبب رفع ابن باجة لمرتبة الفيلسوف على غيره من الناس أن الفيلسوف يفعل أفعالاً روحانية كثيرة كما أنه لا يعتمد على الأفعال الجسمانية إلا بالقدر الضرورى واللازم لأسباب حياته ولكن بشرط أن لا تبعده الأفعال الجسمانية عن مقصده الروحانى.

ومن هنا نجد ابن باجة وهو فى معرض ذكره لواجبات المتوحد يبين لنا أن الإنسان المتوحد يجب عليه عدم مشاركة الإنسان العادى فى أفعاله بل على العكس من ذلك تماماً إنه يجب عليه مشاركة أهل العلم من الفلاسفة والذين يبحثون فى الأمور المعقولة. إنه يجب عليه الإتصال بالشيوخ الذين يتميزون بالعلم والحكمة والخبرة إذ أن هذا أفضل له من الإتصال بالشبان الذين لا نجد عندهم – فيما يرى ابن باجة – ما نجده عند هؤلاء الشيوخ.

وهكذا يمضى ابن باجة فى بيان واجبات الإنسان المتوحد بعد تحديده لما يعنيه بلفظة تدبير ولفظة "المتوحد".

ولا شك أن كتاباً مثل هذا الكتاب يحفل بالعديد من الموضوعات الفلسفية وبالطرائف من النظريات لابد وأن يحظى باهتمام المفكرين فى أرجاء العالم كله شرقاً وغرباً. إننا نستطيع القول بأن ابن باجة قد وضع حجر الأساس بالنسبة للمدرسة الفلسفية فى بلاد الأندلس.

يقول رينان Renan فى كتابه "ابن رشد ومذهبه": لقد كان ابن باجة من أبرز الذين عملوا على ازدهار عصرهم ومن الذين اهتموا بأن تبلغ الفلسفة العقلية فى عصرهم المستوى الذى بلغته.

فإذا أردنا الآن أن نكشف عن أثر هذا الكتاب. وجدنا أنه من المناسب أن نبدأ بتأثيره على الفلاسفة الذين أتوا بعد ابن باجة وعاشوا فى بلاد الأندلس وخاصة ابن طفيل وابن رشد.

فإذا بدأنا بابن طفيل وجدنا أثر هذا الكتاب كتاب "تدبير المتوحد" واضحاً فى الطريق الذى سار فيه ابن طفيل فى كتابه "حى بن يقظان".

لقد عرف ابن طفيل كتب ابن باجة، ويتضح هذا إذا رجعنا إلى كتاب ابن طفيل. إن ابن طفيل لا يخفى إعجابه بابن باجة. وحديث ابن طفيل عن ابن باجة

يدلنا على معرفته بكتب هذا الفيلسوف. فهو فى رسالة حى بن يقظان بعد أن يتحدث عن فلاسفة المشرق العربى كالفارابى وابن سينا، يتحدث عن ابن باجة فيقول: " ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحذق منهم نظرا وأقرب إلى الحقيقة ولم يكن فيهم أثقب ذهنا ولا أصح نظرا ولا أصدق رؤية من أبى بكر بن الصائغ (ابن باجة) غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته"

ويذكر ابن طفيل فى رسالته كتاب تدبير المتوحد. والمقارن بين هذا الكتاب وبين رسالة حى بن يقظان يجد أن ابن طفيل قد تأثر بالكثير من الأفكار التى نجدها بين ثنايا كتاب تدبير المتوحد لابن باجة. فإذا كان ابن طفيل يذكر شخصية حى وشخصية أبسال وشخصية سلامان فإننا نستطيع القول بأن شخصية حى وشخصية أبسال تقتربان من بعض الزوايا من الإنسان المتوحد الذى يذكر ابن باجة فضائله فى كتاب تدبير المتوحد فكل من أبسال والمتوحد يعتمدان إلى حد كبير على العقل وعلى التفكير العقلانى.

يضاف إلى ذلك أن حديث ابن طفيل عن الإتصال بالله وبالعقل الفعال وحديثه عن الإتصال عند الصوفية والذى يعتمد على الزهد والعبادة، نقول إن حديث ابن طفيل عن هذا الجانب يذكرنا بما نراه موجودا فى كتاب تدبير المتوحد. ولا أدل على ذلك من أن كلا من ابن باجة فى تدبير المتوحد وابن طفيل فى حى بن يقظان ينقدان الغزالى وخاصة فى موقفه من التصوف، ولم يقتصر تأثير هذا الكتاب كتاب تدبير المتوحد إلى الوقوف عند ابن طفيل فحسب، بل لقد عرف الفيلسوف الأندلسى ابن رشد كتاب تدبير المتوحد وكتب ابن باجة الأخرى وتأثر بالأفكار الموجودة فى كتاب تدبير المتوحد تأثرا كبيرا فابن رشد يعد تلميذا لابن باجة، ولا نعنى بذلك أنه تتلمذ على يديه، بل نعنى أنه تتلمذ على كتب ابن باجة وخاصة كتاب تدبير المتوحد. ولهذا يكون من الصحيح القول بأن ابن باحة قد

شق الطريق أمام المدرسة العقلية فى بلاد الأندلس وخاصة أن ابن رشد أكبر فيلسوف عقلى فى تلك البلاد.

فإذا كان ابن باجة كما سبق أن ذكرنا حين عرض كتابه - قد تحدث عن مشكلة الإتصال، فإن ابن رشد فى تلخيصه لكتاب النفس يعرض لرأى ابن باجة ويفضل طريق ابن باجة العقلى على طريق المتصوفة الذى يقوم على الزهد والعبادة. ويقول إن الطريقة التى قصد إليها ابن باجة تعد حقاً ويصفها بأنها طريقة برهانية. والبرهان هو أسمى صور اليقين عند ابن رشد ثم يفرق ابن رشد متأثراً فى ذلك بابن باجة بين طريق الجمهور وطريق السعداء الذين يتمسكون بالتأمل العقلى الفلسفى.

والواقع أننا لو رجعنا إلى فلسفة ابن رشد وجدناه قد تأثر تأثراً كبيراً بكتاب تدبير المتوحد. حتى أنه يمكننا القول بأن ابن باجة أبرز فيلسوف تأثر به ابن رشد وقد ظهر هذا التأثر بابن باجة فى مواضع كثيرة من فلسفة ابن رشد.

وإذا كان كتاب تدبير المتوحد قد وصل إلى ابن رشد وتأثر به، فإنه وصل أيضاً إلى ابن سبعين المتصوف الأندلسى. وقد نقد ابن سبعين فى رسائله ابن باجة وقد كان هذا النقد متوقعاً من جانب ابن سبعين نظراً لأن المسلك الصوفى لابن سبعين يختلف عن المسلك العقلى لابن باجة.

فإذا انتقلنا من بيان أثر هذا الكتاب على مفكرى بلاد الأندلس كابن طفيل وابن رشد وابن سبعين إلى الكشف عن أثر هذا الكتاب فى العالم الغربى، وجدنا أن هذا الكتاب قد عرفه الكثيرون من المفكرين الأوروبيين.

ونود أن نشير فى البداية إلى كيفية التعرف على هذا الكتاب. إذ أن هذا الكتاب لم يعرف فى البداية بطريقة مباشرة. لقد ظل هذا الكتاب لا يعرفه أحد فترة طويلة إلا من خلال التلخيص الذى وضعه له أحد الكتاب فى أواخر القرن الرابع

عشر الميلادى وهو موسى النربونى وذلك من خلال شرحه العبرى على رسالة حى بن يقظان لابن طفيل. ثم عرفت بعض أجزاء من هذا الكتاب بعد قيام مونك munk بنشر بعض فصول كتاب ابن باجة فى كتابه "مزيج من الفلسفة اليهودية والعربية". ثم قام المستشرق الأسبانى بلاثيوس بنشر ما استطاع التوصل إليه من أجزاء هذا الكتاب مع ترجمتها إلى الأسبانية وقد صدر هذا الكتاب فى طبعته هذه عن المجلس الأعلى للبحوث العلمية بمدريد عام ١٩٤٦م كما ترجم إلى اللغة الألمانية فى أواخر القرن التاسع عشر وترجم أيضاً إلى اللغة الإنجليزية.

لقد ذاع صيت هذا الكتاب لابن باجة فى دوائر الفكر فى أوروبا إذ أثر تأثيراً كبيراً على فلاسفة المسيحية كالقديس توما الأكوينى وألبرت الأكبر لدرجة أنهما ألفا كتباً لنقد بعض الآراء التى ذهب إليها ابن باجه وخاصة الآراء التى تتعلق باتحاد النفوس، إذ أن هذه الآراء قد تتعارض مع التسليم بالخلود الفردى.

نخلص من ذلك إلى القول بأن كتاب تدبير المتوحد لابن باجة الفيلسوف الأندلسى قد أثر تأثيراً كبيراً على مفكرى الأندلس الذين عاشوا بعد ابن باجة كابن طفيل وابن رشد وابن سبعين، كما أثر على فلاسفة المسيحية فى العصر الوسيط وعصر النهضة. يضاف إلى ذلك الدعوات التجديدية فى عالمنا العربى كدعوات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى والتى تنادى بالإعتزاز بالعقل ولا تخلو من التأثر بالإتجاه الموجود فى كتاب تدبير المتوحد إذ أن هذا الكتاب - كما ذكرنا - قد رفع مرتبة الفلسفة العقلية والتفلسف القائم على المنهج العقلانى وكان بذلك ممهداً لبعض الحركات العقلانية فى العالم العربى.

الفصل السادس

التحقيق العلمى وإحياء التراث

(دراسة لكتاب جامع الرسائل لابن تيمية

تحقيق د. محمد رشاد سالم)

ابن تيمية: جامع الرسائل
تحقيق د. محمد رشاد سالم

إن صح تقديرى فسيكون لهذا الكتاب الذى نتناوله بالدراسة والتحليل فى هذه المقالة من الأهمية والمكانة ما يجعله من الكتب الهامة التى ظهرت فى مجال التحقيق العلمى الدقيق فى السنوات الأخيرة.

هذا الكتاب هو كتاب "جامع الرسائل" لابن تيمية والذى يتضمن ست عشرة رسالة قام بتحقيقها تحقيقا ممتازا الدكتور محمد رشاد سالم. وسيرى القارئ معى مقدار الجهد الذى بذله المحقق ومزايا منهجه فى تحقيق هذه الرسائل النادرة، هذا المنهج الذى يستحق أن يطلع عليه المشتغلون بتحقيق التراث فى دوائر الفلسفة فى مصر وخارجها.

ولسنا بحاجة إلى القول بأن القيام بتحقيق التراث الذى تركه أسلافنا من المفكرين يعد أمرا غاية فى الأهمية. إذ ليس من المناسب ونحن نتحدث فى هذه الأيام عن قضية "الأصالة والمعاصرة" وعن قضية "إحياء التراث"، أن تبقى مؤلفات هذا المفكر أو ذاك من مفكرى العرب مخطوطة ومبعثرة فى أرجاء المكتبات المنتشرة فى أرجاء العالم شرقا وغربا. وكلما باعد الزمان بيننا وبين هذه المخطوطات، كلما امتدت يد الإهمال إليها، بحيث تؤثر فيها حوادث الأيام. فيفقد بعضها تارة، وتتآكل أوراق بعضها الآخر تارة أخرى، حتى يجيئ وقت لا ندرى فيه شيئا عن الكتب والرسائل التى تركها هذا المفكر أو ذاك من مفكرى العرب، إلا من خلال الفهارس القديمة التى تقتصر على ذكر أسماء الكتب التى تركها المفكر، مجرد أسماء.

فلكي نفهم مذهب وآراء مفكر ما ولكي نستطيع الحكم على هذه الآراء وحظها من الإبداع أو التقليد، لابد أن يكون بين أيدينا كل ما كتبه. وكم أدى ضياع الكتب القديمة إلى عدم التعرف على آراء مفكر ما، أو فهم مذهبه فهما ناقصا غير دقيق. وهناك أمثلة كثيرة على ما نقوله، منها أن الدارسين لفكر المعتزلة مثلا لم يكن بإمكانهم إلى حد كبير معرفة آرائهم إلا من خلال كتب خصومهم، وذلك لأن حوادث الأيام قد فعلت في كتبهم ما فعلت. ولكن حين قامت لجنة في مصر بتحقيق كتاب كالمغنى مثلا بعد العثور على نسخة نادرة منه، أصبح أمام الدارسين أكبر موسوعة فيها تعبير عن فكر المعتزلة بوجه عام وعلم من أعلامهم على وجه خاص. ومن هذه الأمثلة التي لا نجد حصرا لها، عدم معرفة ابن رشد آراء المعتزلة، إلا من خلال كتب خصومهم، بسبب عدم وصول رسائلهم إلى جزيرة الأندلس فيما يقول هو نفسه.

هذا بالإضافة إلى أن القيام بتحقيق التراث يتضمن محاولة لربط ماضينا بحاضرنا وإذا كنا نعيش حاضرنا، فيجب أيضا أن نتعرف على أفكار وآراء من سبقونا من المفكرين والفلاسفة. إذ لا يستطيع واحد من المنصفين اليوم أن ينكر ما قام به هؤلاء المفكرون في مجالات شتى متنوعة. ومن هنا يجب علينا نحن أبناء العروبة، أن نتعرف على فكرهم وتراثهم الذي تركوه أمانة بين أيدينا. فكم من أفكار تركها هؤلاء المفكرون وانتقلت إلى أذهان مفكرين جاءوا بعدهم وعاشوا في أوطان أخرى. وإذا كان رجال السفينة رع١ ورع٢. يحاولون إثبات الصلة بين أهرام مصر وأهرام المكسيك، فإننا في مجال الفكر الفلسفي نقوم بمحاولة تشبه هذه المحاولة من زاوية ما، وذلك لإثبات عملية التأثر والتأثير. تأثر مفكري العرب بآراء الفلاسفة الذين سبقوهم وخاصة فلاسفة اليونان، وتأثيرهم في تشكيل آراء واتجاهات بعض من جاء بعدهم.

ومن هنا تبدو أهمية العمل العظيم الذى قام به الدكتور محمد رشاد سالم فى هذا المجال، مجال التحقيق العلمى. ولكى ندلل على هذا القول، سنشير أولاً إلى مزايا منهجه فى النشر والتحقيق على ضوء المقدمة الموجزة التى قدم بها لنشرته. ثم نعرض لرسائل ابن تيمية التى تضمنها هذا المجلد النفيس. وأخيراً لنا بعض الملحوظات النقدية الطفيفة على هذا العمل الذى استحق بجدارة جائزة الدولة التشجيعية فى الفلسفة.

يشير الدكتور رشاد سالم فى مقدمة تحقيقه لهذه الرسائل، إلى منهجه فى التحقيق فيقول: أساس هذا المنهج أن أثبت فى النص ما يصح عندى وأن أشير فى التعليقات إلى القراءة المرجوحة - إن وجدت نسخة أخرى - أو إلى الخطأ... وكذلك جعلت الزيادات التى أضفتها بنفسى بين معقوفتين. وكما فعلت من قبل فى تحقيق "منهاج السنة" حرصت على ألا أدخل على الأصل ما ليس فيه..."

والواقع أننا لو تساءلنا هل التزم المحقق بهذا المنهج الدقيق فى تحقيقه لكل الرسائل التى نشرها، فإننا نجيب بالإيجاب فالقارئ لكل رسالة يجد أن الدكتور رشاد سالم قد التزم بتطبيق هذا المنهج التزاماً تاماً.

وإذا كنا قد قلنا بأن هذا التحقيق لهذه الرسائل، يعد تحقيقاً علمياً ممتازاً، وأن هذا المنهج فى النشر يتضمن ميزات لا حصر لها، فإن ذلك يتضح من خلال ما سنذكره فيما يلى:

١ - لم يعتمد المحقق على نسخة خطية واحدة. بل نجده يقارن بين عدة نسخ خطية ويثبت ما صح عنده. وهذا يدلنا على الدقة والأمانة. كما يدلنا على الجهد الكبير من جانبه أيضاً. فإصلاح الأخطاء فى النسخ الخطية ليس من الأمور السهلة الهينة. وقد عرف الجاحظ - فيما يقول روزنتال فى كتابه "مناهج العلماء المسلمين فى

البحث العلمي - للمصنف أن يسود عشر صفحات بالنثر الرفيع المليئ بالأفكار الجيدة، من أن يكتشف فى مصنفه أغلاطاً ارتكبها أو أموراً أخرى ارتكبها.

فمن الإنصاف إذن الإعتراف بالجهد الكبير الذى بذله المحقق حين يرجع إلى أكثر من مخطوطة وحين يقارن بين مخطوطة وأخرى حتى يصل إلى القراءة الصحيحة للنص من خلال عدة نسخ خطية. ويكفى أن ننظر إلى مئات الكتب التى تظهر فى مصر وغيرها من البلدان، وتتضمن نصوصاً قديمة لكثير من المفكرين القدماء، يحسب ناشروها أنها نشرات علمية، ويطلقون عليها تحقيقاً، فى حين أنها لا تتعدى نقل المكتوب من على ورق أصفر قديم، إلى ورق أبيض فى ثوب قشيب. ولا نجد فيها اعتماداً دقيقاً على مخطوطة أو أكثر من مخطوطة، بل هى مجرد عملية نقل حين أصبح التحقيق عند الكثير ممن يقومون به على هذه الصورة المشوهة، عملية تجارية رابحة كل الربح وتتم إما عن طريق مجرد إعادة المكتوب على ورق أصفر مرة أخرى على صفحات بيضاء، وإما عن طريق إعادة نشر نصوص سبق لمحققين آخرين أن نشروها وحققوها تحقيقاً ممتازاً. ومع هذا يطلقون على هذا النقل أنه عملية تحقيق ونشر علمى!!!

أما هذه الرسائل التى بين أيدينا لابن تيمية فهى رسائل لم يسبق نشرها كما أشار المحقق فى مقدمة نشرته. وهى لا توجد فى مخطوطة واحدة، بل توجد فى أكثر من مخطوطة، رجع إليها كلها. وهى لا توجد فى مكان واحد، بل موزعة بين مصر واستانبول ودمشق.

ولا يخفى علينا أن الإقتصار على نسخة خطية واحدة يتضمن الكثير من المطاعن. فقد توجد كلمات وجمل بأكملها ناقصة فى مخطوطة ما، ولا نستطيع أن نتوصل إلى معرفتها إلا بالرجوع إلى مخطوطة أخرى. بل إن هذا يعد أمراً ضرورياً حتى نستطيع أن نقابل بين نص مخطوطة لكتاب ونص مخطوطة أخرى لنفس

الكتاب. فكم اختلف النساخ في نسخهم لكتب المؤلفين. وكم نجد أمثلة كثيرة يذكرها القدماء والمحدثون. فابن خلكان مثلاً - فيما يقول روزنتال - يعتقد أن بعض النصوص التي سقطت سهواً من اختصار ابن الأثير لكتاب الأنساب للسمعاني، لم يكن سببه ابن الأثير نفسه، بل قد يكون مرد ذلك أن المخطوطة التي استعملها ابن الأثير في اختصاره لكتاب الأنساب كانت ناقصة، أو أن ابن الأثير قد نسي سطراً أو أكثر عندما كان ينسخ، كما يحدث كثيراً للنساخ.

بل إن ضرورة الرجوع إلى أكثر من مخطوطة تبدو لنا حين نعرف أن النسخ الخطية لكتاب ما، ليست في مرتبة واحدة. وقد كان علماء المسلمين قديماً يعلمون أن هناك مخطوطات أقرب إلى النص الأصلي من مخطوطات أخرى، بل كانوا يرتبونها فيما يقول روزنتال - من حيث الدرجة والأهمية. فأعلاها درجة وأهمية تلك التي كتبها المؤلف نفسه، ثم تلك التي نسخها أحد طلابه كما سمعها منه في حلقة الدرس أو بإشرافه. أي كانوا يعتبرون القدم مظهراً من مظاهر الضمان والوثوق والصحة.

٢- يقول الدكتور رشاد سالم في مقدمة تحقيقه لهذه الرسائل: لقد أفدت أيضاً من الوسائل المطبعية الحديثة في توضيح تسلسل أفكار ابن تيمية في بعض المواضع بأن وضعت خطا رفيعا مثلا تحت بعض الكلمات مثل (قلت) التي يعلق بها ابن تيمية على أفكار تعرض لها أو على ترتيب وجوه وأنواع يعرض لها في حديثه".

والواقع أن الدارس لكتب مفكرينا الإسلاميين في العصور الوسطى بصفة خاصة يدرك تمام الإدراك هذه الميزة الكبرى في تحقيق الدكتور رشاد لهذه الرسائل. إذ لا نجد في كثير مما كتبه هؤلاء المفكرون التزاما بمنهج مرتب واضح يعني تسلسل الأفكار، بل كثيرا ما يكتب مفكر كالكندي مثلا في موضوع من

الموضوعات ثم سرعان ما ينتقل منه إلى موضوع آخر ثم يعود إلى الموضوع الأول وهكذا، بحيث نجد صعوبة فى بعض كتاباته بسبب عدم التزامه بالتسلسل والترتيب والنظام. ولكننا لو رجعنا إلى رسائل ابن تيمية المنشورة فى هذا الكتاب، فإننا نحس بوضوح أن هناك نظاماً وتسلسلاً فى عرض أفكاره،وذلك راجع إلى مجهود محقق الرسائل.

بالإضافة إلى ذلك فقد أشار المحقق إلى كثير من الأخطاء فى أصول النسخ الخطية والتى وقع فيها النساخ. تلك الأخطاء التى كانت تغير المعنى لولا أن تنبه إليها الدكتور رشاد. ومن أمثلتها ما نبهنا إليه فى صفحات ٥٢، ٥٦، ١١٢، ١١٣، ١٣٤، ١٣٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٧.

٣- ميزة ثالثة نطالعها فى كل صفحة من صفحات هذا العمل العظيم. وتتمثل هذه الميزة فى المجهود الذى قام به المحقق من جانبه إزاء كل ما ذكره ابن تيمية سواء عن شخصية من الشخصيات أو مذهب من المذاهب أو مسألة من المسائل. فحينما نطالع تحقيقه لهذه الرسائل نجد أنه يحاول أن يتأكد باستمرار من حقيقة ما يقوله ابن تيمية فى كل مجال من المجالات. ويضع أمامنا المصادر التى رجع إليها فى الهوامش. وهى مصادر تعد بالمئات وتفتح الطريق أمام كل الباحثين فى الفكر الإسلامى فى أى مجال من مجالاته العديدة المتنوعة. بل إنه لا يكتفى بذلك،إذ نراه يربط بين ما يقوله ابن تيمية فى رسالة من رسائله، وما يقوله فى رسائل أخرى غير موجودة فى هذه المجموعة.

ونود أن نضرب على هذه الميزة الكبرى أمثلة متنوعة من بين مئات الأمثلة التى نطالعها فى كل هامش من هوامش هذا التحقيق.

أ - حين يذكر ابن تيمية فى رسالته "فى الرد على ابن عربى فى دعوى إيمان فرعون" أن ابن عربى يقول:

مقـــــام النبــوة فـــى بـــرزخ فـــويق الرســول ودون الولى

نجد المحقق ٠في هامش ص ٢٠٩) يقول: لم أعثر على هذا البيت ولكن وجدت بيتاً بمعناه في كتاب لطائف الأسرار لابن عربي ص ٤٩ ونصه:

سماء النبوة في بـــــرزخ دوين الولى وفوق الرسول

وفي الفتوحات المكية جزء ٢ ص ٢٥٢ يقول:

بين الولاية والرســــــالة برزخ فيه النبــــوة حكمهـــا لا يجهل

وهذا كما قلنا فيه دليل على أن المحقق لم يطمئن إلى ما ينسبه ابن تيمية إلى مفكر من المفكرين، بل نراه يرجع إلى الكثير من كتبه ليتأكد من صحة هذا القول من جانب ابن تيمية أو خطئه.

ب- حين ينسب ابن تيمية إلى الحلاج تعلم السحر وذلك في رسالته "الجواب عن الحلاج هل كان صديقاً أو زنديقاً"، نجد المحقق يبحث في مسألة السحر هذه ونسبها إلى الحلاج فيقول في تعليقاته (هامش ص ١٨٧): قال ابن الجوزي في ترجمة الحلاج في كتابه المنتظم: "وطاف البلاد وقصد الهند وخراسان وما وراء النهر وتركستان. ثم قال: سمعت على بن أحمد الحاسب يقول: سمعت والدي يقول: وجهني المعتضد إلى الهند، وكان معي في السفينة رجل يعرف بالحسين ابن منصور (الحلاج). فلما خرجنا من المركب قلت له: في أي شئ جئت إلى ها هنا؟ قال: جئت لأتعلم السحر وأدعو الخلق إلى الله.

ج- حين يذكر ابن تيمية في رسالته "في تحقيق مسألة علم الله رأى أبي البركات البغدادي وكتابه المعتبر. نجد المحقق يضع أيدينا على الكثير من المراجع التي تؤرخ لأبي البركات وتعرض طرفاً من مذهبه. (هامش ص ١٨٠-١٨١ من تحقيقه).

هذا مثال من الأمثلة العديدة. ونستطيع أن نقول إن محقق الرسائل لم يترك شخصية من الشخصيات أشار إليها ابن تيمية، إلا وكتب عنها فى هوامش تحقيقه فكرة موجزة اعتماداً على أوثق المصادر. وقد رجعنا إلى هذه المصادر والصفحات التى ذكرها فوجدنا دقة بالغة وأمانة من جانب المحقق.

د- إذا تكلم ابن تيمية بإيجاز عن مسألة معينة فى رسالة من رسائله، فإننا نجد إشارات فى هوامش التحقيق تهدينا إلى رسائل أخرى تكلم فيها ابن تيمية عن هذه المسألة. ففى رسالة ابن تيمية الموجزة "فى الدليل على فضل العرب" نجد المحقق فى هامش ص ٢٩٠ يقول: تكلم ابن تيمية عن فضل العرب بمزيد من التفصيل فى "اقتضاء الصراط المستقيم" ص ١٤٨-١٦٢.

هـ- إذا ورد إسم فرقة من الفرق فى رسالة من رسائل ابن تيمية، فإننا نجد إشارة فى هوامش التحقيق تهدينا إلى التعرف على أفكار هذه الفرقة أو تلك من الفرق (راجع مثلاً ما كتبه عن فرقة السالمية فى هامش صفحتى ١٨١-١٨٢ من تحقيقه).

و- ميزة رابعة من مزايا هذه النشرة العلمية الدقيقة. وتعد أهم مزاياها على الإطلاق.

هذه الميزة تتمثل فى الفهارس الموجودة فى "جامع الرسائل". فما أن ينتهى المحقق من نشرته لهذه الرسائل الست عشرة، حتى يقدم لنا مجموعة من الفهارس الدقيقة غاية الدقة. وحين يطالعها الدارس يدرك مجهوداً لا نجده إلا فى القليل النادر من الكتب المحققة سواء فى مصر أو غيرها.

وجدير بالذكر أن هذه الفهارس تعد ضرورة من ضرورات التحقيق العلمى الدقيق، وبدونها يكون من العسير جداً دراسة هذا الكتاب أو ذاك من الكتب القديمة، لأن أصحابها لم يكونوا يهتمون بهذه الفهارس. إنها تكشف عما ورد فى

النص من أسماء فلاسفة أو فرق فلسفية أو أحاديث نبوية أو آيات قرآنية وغير ذلك من مجالات شتى.

لقد وضع الدكتور رشاد سالم مجموعة من الفهارس الضخمة بلغت عشرة فهارس، استغرقت ما يقرب من مائة صفحة (من ص ٢٩١ إلى ص ٣٨٨) وإن دراسة هذه الفهارس وأنواعها العديدة، لتؤكد لنا التزام المحقق بكل ما تتطلبه الدراسة العلمية في معالجة نص من النصوص. فهناك فهرس للآيات القرآنية. وفهرس للأحاديث النبوية يعد أجل ما قام به المحقق، وقد استغرق هذا الفهرس وحده ما يقرب من عشرين صفحة. فأمام الحديث نجده يذكر الصحابي راوي الحديث، كعبد الله بن عمر، وعلي بن أبي طالب وابن عباس وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة وعائشة وغيرهم. بالإضافة إلى فهارس الشعر واللغة والأعلام والقبائل والفرق والطوائف والأماكن والبلدان والمصطلحات والكتب والموضوعات، إلى جانب فهرس مراجع التحقيق وقد تأكد لنا بمقابلة هذه المراجع على هوامش صفحات هذا العمل العظيم، استفادته من كل هذه المراجع بلا استثناء.

بعد هذا نود أن نحلل في إيجاز موضوع هذه الرسائل الستة عشر، ومن هذا التحليل سيتكشف أمامنا فكر ابن تيمية في بعض جوانبه ومواقفه حيال كثير من الفرق الكلامية، والفلاسفة، ورجال التصوف.

في الرسالة الأولى وموضوعها في قنوت الأشياء كلها لله تعالى يعرض ابن تيمية لمعنى القنوت في القرآن ومعنى السجود والتسبيح. ويبين المقصود من القنوت في اللغة. فيقول إن القنوت في اللغة دوام الطاعة، والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله.

بعد هذا يعرض ابن تيمية لأنواع القنوت. وجدير بالذكر أنه يمس حين بيانه لهذه الأنواع مشكلة القضاء والقدر ويعارض المعتزلة مؤيدا أقوال أهل السنة.

ومن هنا تجيئ – فيما نرى – أهمية رسالته هذه. فهو حين يبين لنا النوع الأول من القنوت يقول: إنه طاعة كل شئ لمشيئة الله وقدرته وخلقه، فإنه لا يخرج شئ عن مشيئة الله وقدرته وملكه ويأخذ ابن تيمية فى تعديد أنواع القنوت الأخرى. فهناك على سبيل المثال سؤال الله وقت الحاجة والخضوع له وهناك الإيمان بالرسل والكتب المنزلة وهناك الخضوع لجزائه فى الدنيا والآخرة وهكذا.

فإذا انتقلنا من هذه الرسالة من رسائل ابن تيمية إلى الرسالة الثانية من رسائله وموضوعها" فى لفظ السنة فى القرآن"، وجدناه يستخرج من القرآن المواضع التى ذكرت فيها لفظة "السنة" كقوله تعالى "فهل ينظرون إلا سنة الأولين. فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا"

فإذا تساءلنا عن الأهمية الفلسفية لهذه الرسالة وجدناها تكمن فى الإشارة إلى قضية من أهم القضايا فى الفكر الفلسفى العربى وهى قضية السببية. هل العلاقات بين الأسباب ومسبباتها علاقات ضرورية أم أن العلاقات بينهما ليست ضرورية، بمعنى أن الله يستطيع التبديل والتغيير وقلب هذه العلاقات بين الأسباب ومسبباتها.

والدارس للفكر الفلسفى العربى يجد من الفلاسفة من يذهب إلى الرأى الأول وعلى رأسهم ابن رشد ومن المفكرين من ذهب إلى الرأى الثانى كالأشاعرة والغزالى على وجه الخصوص.

وابن تيمية من الفريق الثانى لأنه يريد أن يفتح الطريق لإثبات المعجزات التى تعد خرقا لقوانين الطبيعة. فهو يقول فى هذه الرسالة... وهذه السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته فى الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم: كما حبس الشمس على يوشع، وكما شق القمر لمحمد (ص) وكما ملأ السماء بالشهب وكما أحيا الموتى غير مرة، وكما جعل العصى حية..."

أما الرسالة الثالثة فهى رسالته فى قصة شعيب عليه السلام. ولا يثير فيها ابن تيمية قضية من القضايا الكلامية أو الفلسفية، بل يورد بعض أقوال المفسرين المتعلقة بقصة شعيب ويتطرق إلى الحديث عن بعض الأنبياء كموسى والمسيح.

وإذا انتقلنا من الرسالة الثالثة إلى الرسالة الرابعة وهى تدور حول المعانى المستنبطة من سورة الإنسان، وجدنا علاقة بين بعض ما يثيره ابن تيمية فيها وبين ما أثاره فى رسالته الأولى التى سبق أن أشرنا إليها. وهذه العلاقة تتمثل فى أن ابن تيمية يشير فى هذه الرسالة إلى مسألة الإرادة وهل نحن أحرار الإرادة أم مجبرون مسيرون. فإذا كان قد نقض رأى المعتزلة فى رسالته الأولى، فإنه فى هذه الرسالة ينقض بالإضافة إلى رأى المعتزلة - رأى الجبرية. فهو يقول إن هذه السورة تضمنت فيما تضمنت، إثبات السبب وكون العبد فاعلا مريدا حقيقة، وأن فاعليته ومشيئته إنما هى بمشيئة الله، ففيها الرد على طائفتين: القدرية والجبرية.

ويرى ابن تيمية أن هذه السورة العجيبة على قصرها قد احتوت مسائل عدة ككيفية خلق الإنسان من النطفة والأخلاط ونقله من حال إلى حال حتى تتم خلقته وتكمل صورته.

فإذا تساءلنا عن الصلة بين خلق الإنسان وما يثيره ابن تيمية حول قضية القضاء والقدر، وجدنا ابن تيمية يذهب إلى أن الإنسان بعد أن يخلقه الله، يهديه إلى طريقى الخير والشر والهدى والضلال. وهذا يؤدى بابن تيمية إلى إثارة مسألة الحرية والجبر. وأيضا إثارة موضوع الثواب والعقاب يوم القيامة وكيف سيعاد خلق الأجسام الموجودة فى هذا العالم، وصنوف اللذات التى سيجدها الأبرار والمقربون فى الجنة.

وفى الرسالة الخامسة وموضوعها "تفسير قول الله واستعينوا بالصبر والصلاة، يستعرض ابن سينا السور والأقوال التى تدور حول الصبر. فيبين لنا أهمية الصبر لأن

الله يقرن الصبر بالصلاة حين يقول: "فاستعينوا بالصبر والصلاة"، ولأن على بن أبى طالب يقول "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد".

أما الرسالة السادسة فموضوعها "التوكل" ونكاد نقول من جانبنا إن ما يذكره ابن يتمية فى هذه الرسالة يدلنا جملة وتفصيلا على نزعته الدينية السلفية الواضحة. فهو يرد على الذين يذهبون إلى أن التوكل لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة. بمعنى أن ما كان مقدرا بدون التوكل فهو مقدر مع التوكل. تماما كالقول إن الدعاء لا يحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة، بل هو عبادة يثاب عليها الفرد.

ثم يذهب إلى القول بأن الذى عليه الجمهور أن المتوكل يحصل له بتوكله من جلب المنفعة ودفع المضرة ما لا يحصل لغيره، وكذلك الداعى، كما أن القرآن يدل على ذلك فى مواضع كثيرة. ثم هو سبب عند الأكثرين، وعلامة عند من ينفى الأسباب.

وواضح – فيما يبدو لنا – أن تسليم ابن تيمية بالتوكل والدعاء، يكشف فى صراحة لا يعوزها الدليل عن أنه من الذين لا يسلمون بالعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها. أى أنه لا يعترف بمنطق الأسباب والمسببات فى مجال الوجود المادى طالما أنه ينسب للتوكل والدعاء قدرة وتأثيرا.

الرسالة السابعة من الرسائل التى ضمها هذا السفر النفيس موضوعها "تحقيق الشكر".

ونستطيع أن نقول إن ابن تيمية يقصد هنا بالحمد والشكر، موضوع الإيمان والكفر إلى حد كبير. بمعنى أنه حين يهاجم فرقة من الفرق الكلامية أو فيلسوفا من الفلاسفة ويقول إنه لا يشكر الله، يعنى بذلك أنه لا يلتزم بكل القضايا الدينية حسب مفهوم ابن تيمية.

فهو يذهب فى رسالته هذه إلى أن الجبرية أو الجهمية أتباع جهم بن صفوان، وكذلك القدرية لا يحمدون الله ولا يشكرونه. وأيضا أهل الإلحاد من المتفلسفة والباطنية – فيما يرى – أبعد عن حمده وشكره.

وهو يدلل على ذلك بأمثلة كثيرة. فالقدرية النافية مثلا حين يقولون إن الإنعام من الله على العباد واجب عليه، فإن هذا يدل على أنهم لا يشكرون الله، لأن من فعل الواجب الذى يستحقه غيره عليه لم يستحق الشكر المطلق (ص ١٠٣ من جامع الرسائل)

وأرسطو وأتباعه – فيما يقول – يرون أن الله لا يفعل شيئا ولا يريد شيئا ولا يعلم شيئا ولا يخلق شيئا، فعلى أى شئ يشكر؟

والمتصوفة كابن عربى مثلا حين يقولون إن الوجود واحد: وجود المخلوق هو وجود الخالق، فإن هذا يدل على عدم الشكر، لأن كل موجود يجب أن يكون عابدا لنفسه شاكرا لنفسه حامدا لنفسه.

الرسالة الثامنة من الرسائل التى تضمنها "جامع الرسائل" رسالة غاية فى الأهمية. إذ أنها تدرس موضوعا من الموضوعات احتل مكانة كبيرة فى الدراسات التى تركها لنا متكلمو الإسلام وفلاسفته، وهو موضوع العدل الإلهى.

إذ لا يخفى علينا أن المعتزلة مثلا قد جعلوا أصل العدل من أهم أصولهم الخمسة التى يعتقدون بها. وهم يطلقون على أنفسهم أهل العدل والتوحيد دلالة على أهمية هذا الأصل عندهم.

هذه الرسالة من رسائل ابن تيمية موضوعها "فى معنى كون الرب عادلا وفى تنزهه عن الظلم وفى إثبات عدله وإحسانه"

وابن تيمية فى هذه الرسالة يكشف لنا عن تنازع فرق المسلمين حول معنى العدل ومعنى الظلم ويعرض لرأى أهل الجبر وكذلك رجال الإعتزال. ثم يبين لنا

الرأى الذى يذهب إليه ويعتقد بصحته فيقول: إن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه والعدل وضع كل شئ فى موضعه، وهو سبحانه حكم وعدل يضع الأشياء مواضعها، ولا يضع شيئاً إلا فى موضعه الذى يناسبه وتقتضيه الحكمة والعدل ولا يفرق بين متماثلين، ولا يسوى بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة فيضعها موضعها لما فى ذلك من الحكمة والعدل" (جامع الرسائل ص ١٢٣-١٢٤)

أما الرسالة التاسعة فهى رسالته فى دخول الجنة وتساؤله: هل يدخل أحد الجنة بعمله، أم ينقضه قوله (ص) لا يدخل أحد الجنة بعمله.

وفى هذه الرسالة يحاول ابن تيمية الإجابة عن السؤال السالف الذى وجه إليه ويذهب أنه لا تناقض بين ما جاء فى القرآن من أن بنى الإنسان سيدخلون الجنة بأعمالهم وبين ما جاء فى قول الرسول "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله"

ومحاولته فى إزالة هذا التناقض تكمن فى اعتقاده أن السبب لا يستقل بالحكم. وهذا يعنى أن هناك أسباب أخرى لدخول الجنة بالإضافة إلى العمل كالشفاعة ورجاء رحمة الله وهكذا.

ونود أن نشير من جانبنا إلى أن ابن تيمية يحاول تأييد رأيه فى آخر رسالته هذه باللجوء إلى فكرة سبق أن أشرنا إليها فى رسائله الأخرى وهى عدم اعتقاده بوجوب السبب للمسبب أى عدم وجود علاقة ضرورية بينهما دليل هذا قوله: ... وليس كل ما يحصل بسبب لا يحصل بدونه، كالموت الذى يكون بالقتل ويكون بدون القتل، ومن فهم أن <u>السبب لا يوجب المسبب</u> بل لابد أن يضم الله إليه أموراً أخرى، وأن يدفع عنه آفات كثيرة، وأنه <u>قد يخلق المسبب بدون السبب</u>، (انفتحت له حقيقة الأمر من هذا وغيره" (جامع الرسائل ص ١٥٢).

الرسالة العاشرة من الرسائل المنشورة فى جامع الرسائل تتضمن إجابة عن سؤال من يقول إن صفات الرب تعالى نسب وإضافات وغير ذلك"

وابن تيمية فى هذه الرسالة يعرض لمشكلة أثارها متكلمو الإسلام وفلاسفته والصوفية أيضاً على نحو من الأنحاء. ويشير أيضاً لمشكلة خلق القرآن، تلك المشكلة الشهيرة فى تاريخ الفكر الدينى والكلامى.

ويناقش ابن تيمية الفلاسفة ويعارض أقوالهم شأنهم فى ذلك شأن الصابئة. وهو يثبت الصفات الفعلية لله. ثم يذهب إلى القول بأن كلام الله غير مخلوق مخالفاً بذلك المعتزلة فى قضية خلق القرآن ويذكر مؤيداً الإمام أحمد: كلام الله من الله ليس بائناً منه."

وإذا كان ابن تيمية قد بحث فى هذه الرسالة موضوع الصفات الإلهية وأثبت ماهية لله تعالى، فإنه فى الرسالة الحادية عشرة من المنشور فى "المجموع" يدرس موضوعاً متفرعاً عن موضوع الصفات الإلهية وهو موضوع علم الله. ويناقش بإيجاز مختلف الآراء حول موضوع علم الله وينتهى إلى إثبات علمه تعالى.

بيد أننا لا نجد فى رسالته هذه تعرضاً تفصيلياً لجوانب كثيرة تتعلق بموضوع العلم الإلهى كالتساؤل عن إدراك الله لحوادث الكون وهل هذا الإدراك على نحو كلى، أم إدراك لكل الجزئيات جزئية جزئية، أم أن الله لا يعرف شيئاً عما يحدث فى الكون لا على نحو كلى ولا على نحو جزئى.

أما الرسالتان التاليتان لما سبق من رسائل فتتعلقان بشخصيتين صوفيتين هما الحلاج وابن عربى. الأولى منهما تجيب عن سؤال عن الحلاج وهل كان صديقاً أو زنديقاً والثانية فيها رد على ابن عربى الصوفى الشهير فى دعوى إيمان فرعون.

وابن تيمية فى الرسالة الأولى يذهب إلى أن الحلاج كان زنديقاً ولهذا وجب قتله. وهو يعرض علينا فى رسالته طرفاً من أخبار الحلاج وحياته وهو يركز على جوانب معينة تفيده فى وجهة نظره، دون جوانب أخرى قد تظهر لنا ناحية أو أكثر

من نواحى عظمة الحلاج أو على الأقل تدعو إلى التفكير فى حقيقة آرائه وكيف توصل إليها ومبررات دفاعه عنها.

ولا نقول هذا الآن دفاعاً عن الحلاج لأننا نخالف كثيراً من آرائه وآراء المتصوفة واتجاههم بوجه عام، ولكن كان يجدر بابن تيمية عرض قضية الحلاج فى موضوعية ودقة بدلاً من التركيز على عبارات وجمل إنشائية فيها تهويل كبير. كقوله مثلاً: فهذا هو الدجال الكبير ودونه دجاجلة (ص ١٦٨ من جامع الرسائل) كما يقطع بدجله حين يقول: فالحلاج كان من الدجاجلة بلا ريب (ص ١٦٩)

أما الرسالة الأخرى فإن ابن تيمية يذهب فيها إلى تكفير فرعون بل يراه أعظم الخلق كفراً. وهو لهذا يرد على ابن عربى والإتحادية حين يعظمون – فيما يقول ابن تيمية عنهم –أمر فرعون ويدعون أنه مات مؤمناً وأن تغريقه كان بمنزلة غسل الكافر إذا أسلم، وأنه ليس فى القرآن ما يدل على كفره محتجين على إيمانه بما جاء فى سورة يونس "حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين".

ويأخذ ابن تيمية فى عرض كثير من الأدلة على رأيه فى كفر فرعون ومخالفة من يقولون بإيمانه. بل يذهب إلى أنهم حين يعظمون فرعون يشاركون من جهةٍ فى حقيقة كفره. ويعنى بذلك ابن عربى إلى حد كبير.

بعد هاتين الرسالتين نجد فى المجموع الذى بين أيدينا والذى تضمن كما قلنا ست عشرة رسالة، ثلاث رسائل أخرى لابن تيمية.

نجد رسالة طويلة له فى التوبة وهى الرسالة الرابعة عشرة. وهى فى مجملها رسالة دينية يعدد فيها ابن تيمية الآيات التى تتعلق بالتوبة ويقسم التوبة إلى واجبة ومستحبة محاولاً بيان الفرق بينهما.

أما الرسالة الخامسة عشرة فهى رسالته فى أن دين الأنبياء واحد" وهى أقصر الرسائل فى هذا "المجموع". يقول فيها ابن تيمية أن دين الأنبياء واحد وأنه الإسلام. وحجته على ذلك أن بعض الشرائع تتنوع فقد يشرع فى وقت أمرا آخرا لحكمة ثم يشرع فى وقت آخر أمرا لحكمة. مثال ذلك تشريع الصلاة إلى بيت المقدس فى أول الإسلام ثم نسخ ذلك بحيث أمر بالصلاة إلى الكعبة.

بقيت الرسالة الأخيرة من هذا المجموع. وهى رسالة من الرسائل القصيرة كالرسالة السابقة عليها. وفى هذه الرسالة وموضوعها "فى الدليل على فضل العرب" يقدم لنا ابن تيمية نماذج لهذا الفضل فيرى أن الفضل إما بالعلم النافع أو العمل الصالح. فبالنسبة للعلم نجد العرب - فيما يقول - أفهم وأحفظ وأقدر على بيان العبارة ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعانى. وبالنسبة للعمل نجدهم أقرب إلى السخاء والحلم والشجاعة والوفاء.

وهو كما هو واضح فى الرسالة يمس موضوع العرب والعجم ذلك الموضوع الذى طال النقاش حوله فى كثير من الكتابات. وهو يفضل العرب ويركز على بيان أفضالهم أكثر من العجم.

بعد هذا العرض والتحليل الوجيز لهذه الرسائل، نقول إن لنا بعض الملحوظات النقدية على هذا العمل الكبير. وهى ملحوظات لا تقلل من الميزات العديدة لهذا الجهد.

١- كنا نود وخاصة فى الجزء الأول من نشرة هذه الرسائل أن نجد مقدمة نتعرف من خلالها أهم القضايا التى ثارت وما زالت تثار حول فكر ابن تيمية، أو على الأقل تلك القضايا المرتبطة بموضوع هذه الرسائل الست عشرة. قد يقال إن هذا مجاله دراسة خاصة عن ابن تيمية. ولكن كان من الضرورى أن نعرف موقف المحقق من ابن تيمية وآرائه وآراء من كتبوا عنه، وخاصة أن هناك أحكاما كثيرة قال بها

مؤرخون وأساتذة للفلسفة وتحتاج إلى أن يثار النقاش حولها منها هل عقليته عقلية علمية؟ ما سبب هجومه على الفلسفة الأرسطية وغيرها من الفلسفات القديمة؟ هل هناك اتساق بين وصفه مجددا وبين قوله إن العلم ما كان موروثا عن نبى وكل ما سواه فهو علم لا ينفع أو ليس من العلم؟ ما روى عن تأثيره فى تلميذه ابن قيم الجوزية حين يهاجم المنطق والفلسفة؟ ما سبب حملته على رجال التصوف؟ هل هناك صلة بين دعوة ابن تيمية التى يقال إنها دعوة تجديدية، وبين دعوة عبد الرحمن الكواكبى والأفغانى ومحمد عبده؟ هل موقف المؤيدين له كالذهبى مثلا وموقف المعارضين له كابن بطوطة وتقى الدين السبكى يدور حول محور دينى أم هناك أكثر من محور. هل هناك صلة بين آراء ابن تيمية وبين الظروف السياسية والحربية فى هذا العصر كظهور الصليبيين من الغرب وظهور التتار من الشرق؟ هل صحيح - فيما يقول البعض -إن هناك مشابهة بين آرائه المنطقية والفلسفية وبين اتجاهات جون ستيوارت مل ورسل وهيوم وكارناب وفتجنشتين؟ أو على الأقل هل كان سابقا عليهم فى بعض دراساته المنطقية وبحثه فى العلية؟!! كيف نوفق بين آراء ناضجة يقول بها ابن تيمية وبين آراء وأقوال أخرى تظهر فيها السذاجة إلى أكبر حد مثل قوله مثلا فى كتاب "الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان": "فإنى أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذى دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول هنيئا لك يا ولى الله فيقرا آية الكرسى فيذهب ذلك، وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول خذنى حتى يأكلنى الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل فى الإنس ويخاطبه بذلك، ومنهم من يكون فى البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس، وكذلك أبواب

المدينة، وتكون الجن قد أدخلته أو أخرجته بسرعة.." (نقلاً عن كتاب مصطفى عبد الرازق)

٢- إذا كان محقق الرسائل قد نشر رسائل تتناول موضوعات مختلفة كالتفسير والقدر وصفات الله ليكون ذلك أروح للقارئ فيما يقول، إلا أننا كنا ننتظر منهجاً فى التصنيف يقوم إما على أساس جمع رسائل ابن تيمية على أساس الموضوع، أى نجمع كل رسائله التى تهاجم التصوف مثلاً فيكون فيها بياناً متكاملاً لموقفه من التصوف. ورسائله التى تهاجم بعض الفرق الكلامية بحيث تكون معبرة عن موقفه من هذه الفرق وهكذا على أساس الموضوع. وإما على أساس التصنيف الزمنى. إذ لعلنا نجد تطوراً فى أفكار ابن تيمية من سنة إلى أخرى، أو أن نحكم بأنه لم يغير من آرائه فى مؤلفاته المتأخرة عن آرائه فى مؤلفاته المتقدمة وهكذا.

٣- القارئ لهذه الرسائل لابن تيمية كان ينتظر من محققها مقدمة تحليلية لكل رسالة على حدة تتناول دراسة أبرز الأفكار الموجودة فى كل الرسالة وبيان مدى تشابهها أو اختلافها عن الأفكار التى قال بها من سبقه من المفكرين وكذلك الصلة بين هذه الرسالة أو تلك والرسائل الأخرى. والمقارنة بين رأيه فى مشكلة معينة من خلال رسالته والآراء الأخرى حول هذه المشكلة سواء كانت متقدمة عليه أو معاصرة له أو تالية لآرائه. مثال ذلك رسالته فى قنوت الأشياء ورسالة الكندى فى سجود الجرم الأقصى وطاعته لله عز وجل ومثال ذلك أيضاً رسائله التى فيها حديث عن السببية ومقارنته بالمؤلفات التى فيها دراسة لهذه المشكلة كبعض مؤلفات الغزالى وابن رشد والمعتزلة وأهل السنة.

٤- إذا كنا قد قلنا بأن التحقيق العلمى الدقيق يعد الخطوة الأولى نحو إحياء التراث، فإننا كنا ننتظر من الدكتور رشاد سالم الخطوة الثانية نحو هذا الإحياء. وهى القيام بتقييم أفكار ابن تيمية وبيان مدى شبهها أو اختلافها عن أفكارنا ومدى ما فيها

من خطأ أو صواب وإلى أى مدى يمكن الأستفادة من آرائه الناضجة فى بعض المجالات ثم التنبيه إلى أوجه الخطأ التى وقع فيها سواء فى آرائه واتجاهاته. هذا ما نرجوه من الدكتور رشاد سالم فى دراسة مقبلة لابن تيمية أو فى الطبعة الثانية لهذه الرسائل حتى يتحقق المفهوم الدقيق لما نسميه "بإحياء التراث".

وأخيراً نقول بأننا لا نشك فى أن كل المشتغلين بالتراث الفلسفى سيستفيدون أكبر فائدة من هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه الدارس للفكر الإسلامى عامة وفكر ابن تيمية على وجه الخصوص من قريب أو من بعيد. وهو الذى استحق من أجله أن يدخل الدكتور محمد رشاد سالم ميدان التحقيق من أوسع وأدق أبوابه كما أصبح علماً بارزاً من أعلام المشتغلين بهذا الفن فى مصرنا المعاصرة.

الفصل السابع

الشيخ محمد عبده

كتابان له وكتابان عنه

أولاً - رسالة التوحيد.

ثانياً - العلم والمدنية.

ثالثاً - الكتاب التذكارى عن الشيخ محمد عبده بعنوان: الشيخ محمد عبده: مفكراً عربياً ورائداً للإصلاح الدينى والإجتماعى - إشراف وتصدير: د.عاطف العراقى.

رابعاً - كتاب رائد الفكر المصرى للدكتور عثمان أمين.

تصدير رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده

لم يكن الشيخ محمد عبده كواحد من أعلام فكرنا العربى المعاصر، مهتما بدراسة المشكلات الحديثة والمعاصرة فحسب، بل إننا نجده بالدرجة الأولى واضعا نصب عينيه دراسة المشكلات التراثية القديمة. لقد قدم لنا العديد من الكتب والرسائل والتى تكشف عن اهتمام بالغ من جانبه بالمشكلات الكلامية والفلسفية. ومن بين تلك الكتب والرسائل، رسالة التوحيد.

إن هذه الرسالة تكشف عن خلفية دينية واضحة وبارزة، وهذا هو شأن علم الكلام والفرق الإسلامية. وكم وجدنا الشيخ محمد عبده وبحكم مناصبه الدينية على الأقل، مهتما بالدراسات القرآنية، مهتما بتفسير آيات القرآن الكريم، بالإضافة إلى دراساته المنطقية، ومن بين ما قدمه لنا، تفسير سورة الفاتحة، وتفسير سورة العصر، وتفسير جزء عم، والإسلام والنصرانية، و العلم والمدنية، وشرح كتاب نهج البلاغة، وحاشيته على شرح الدوانى لكتاب العقائد العضدية، والعقيدة المحمدية، وشرح كتاب البصائر النصيرية فى المنطق لعمر بن سهلان الساوى وترجمته لرسالة الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغانى... إلى آخر تلك الكتب والرسائل والتى تدخل فى الإطار الدينى من جهة، والإطار المنطقى من جهة أخرى، وإن كان الإطار الدينى هو الغالب على ما تركه لنا الشيخ الإمام.

قلنا إن رسالة التوحيد تكشف عن خلفية دينية عند محمد عبده، وخلفية فلسفية أيضا. لقد نظر الكثيرون إلى الفلسفة الإسلامية على أساس أنه يدخل فى إطارها، علم الكلام، والتصوف أيضا، بالإضافة بطبيعة الحال، إلى أثار فلاسفة العرب

ابتداء من الكندى فى المشرق العربى، وانتهاء بابن رشد آخر فلاسفة العرب، فى المغرب العربى.

وتتضمن الرسالة دراسات موجزة عن عديد من العناصر والجوانب زادت عن مائتى عنصر ومبحث. ومن بين المباحث التى نجدها فى هذه الرسالة، رسالة التوحيد، ما يلى:

- تاريخ علم التوحيد وموضوعه وتسميته.
- تاريخ علم العقائد ومنهج القرآن فيه.
- سنن الله فى الخلق وتآخى الدين والعقل فى الإسلام.
- مذاهب الفلسفة فى الإسلام.
- أفعال العباد.
- المعجزة ودلالتها على صدق الرسول وصفات الرسل.
- حاجة البشر إلى الرسالة.
- الوحى: تعريفه وكونه ممكن الوقوع.
- وظائف الرسل عليهم السلام.
- وظيفة الدين ووظيفة العقل والنسبة بينهما.
- رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
- الدين الإسلامى أو الإسلام.
- تقرير ثبوت النبوة بإعجاز القرآن.
- انتشار الإسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ وسببه.

ويعرف الشيخ محمد عبده فى الصفحات الأولى من رسالته، علم التوحيد، قائلا: التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن

أولاً

تصدير رسالة التوحيد

للشيخ محمد عبده

يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم. وأصل معنى التوحيد: اعتقاد أن الله واحد لا شريك له. وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد. وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز.

والدارس لرسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، يدرك غزارة اطلاع صاحبها ودقته فى التعبير عن الموضوعات التى اختارها مجالا للتحليل والدراسة. وإنه يتحدث عن العديد من الآراء، ويشير إلى الكثير من أسماء رجال علم الكلام، وأشهر الكتب التى تركوها لنا. كما يتحدث عن الفرق بين طبيعة علم الكلام وطبيعة الفكر الفلسفى، ويقول إن مذاهب الفلسفة كانت تستمد آراءها من الفكر المحض، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول.

ونلاحظ أن الشيخ محمد عبده يحاول الإبتعاد عن التركيز على الخلافات الجدلية والتى ثارت بين رجال علم الكلام والفرق الإسلامية، كما أنه يلاحظ أن مما يساعدنا على الوئام دون الخصام والخلاف، الإعتماد على الإجتهاد والدليل.

إنه يقول فى عبارة هامة: والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد. العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين، وشهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه فى صوابه وخطله. الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب. فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما

بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلا لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد مما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم. وتبشيع ماكانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملى، وحق ما قال، فإن التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان، ولا تجمل بحال الإنسان.

هذا ما يقول به الشيخ محمد عبده فى موضع من رسالة التوحيد. والعبارة تكشف عن نزعة توفيقية نجدها واضحة بارزة فى رسالته من أول صفحاتها حتى آخر الصفحات. ويمكننا القول بأن الشيخ محمد عبده ليس من خلال هذه الرسالة فحسب، بل فى سائر رسائله وكتبه التى اهتم من خلالها بدراسة علم الكلام، صاحب نزعة اعتزالية أشعرية ما تريدية. إننا إذا حللنا آراءه فإننا سنجد ما نقول واضحا وبارزا.

ورغم الجهد الذى قام به الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد، إلا أن عرضه لبعض الآراء والأفكار كانت تحتاج من جانبه إلى وقفة نقدية أكثر عمقا وتفصيلا. كما أن حديثه عن الفلاسفة، فلاسفة العرب، جاء مختزلا، وشابه النقص بوجه عام، بالإضافة إلى أننا نجد الشيخ يلجأ إلى التعميمات أحيانا، وهذه التعميمات لها أضرارها الفكرية والمنهجية. وإذا عرض الشيخ محمد عبده لرأى من الآراء، فإنه يكون غالبا عليه التركيز على الرأى الذى يؤمن به، دون الرأى الذى يختلف معه. ومعنى هذا أنه يسلط الأضواء على الرأى الذى يميل إليه، ويجعل الأضواء خافتة أو شاحبة بالنسبة للآراء الأخرى. ولعل مما أوقعه فى ذلك طبيعة المنهج الجدلى الكلامى، وذلك على العكس من المنهج الفلسفى البرهانى، والذى يدخل فى دائرة اليقين أكثر من المنهج الكلامى.

لكن هذا لا يقلل بوجه عام من الجهد الذى بذله الشيخ الإمام فى رسالة التوحيد ويكفى أن هذه الرسالة تكشف كما قلنا عن غزارة اطلاع ودقة فى العرض والتحليل.

وفى ذكرى الرجل نقول إن من حقنا أن نفخر به، ومن واجبنا دراسة أفكاره، تلك الأفكار التى جعلته مفكراً عربياً معاصراً من طراز ممتاز والله هو الموفق للسداد.



ثانيا: تصدير كتاب العلم والمدنية للشيخ محمد عبده

ويتضمن مقالات نشرت فى مجلة المنار الإســـــلامى

لمنشئها السيد محمد رشيد رضا.

تصدير كتاب العلم والمدنية للشيخ محمد عبده[1]

أعظم ما يجب أن نهتم به، تخليد ذكرى مفكرينا الكبار. والشيخ محمد عبده يعد واحدا منهم، لا شك فى ذلك. إنه من مفكرينا المعاصرين الكبار. شق طريقه وسط الأشواك والصخور. وخاض العديد من المعارك الفكرية، وارتبط اسمه بالإصلاح الدينى والإجتماعى، وترك مدرسة متعددة الإتجاهات، مدرسة اجتماعية، ومدرسة فكرية، ومدرسة دينية. وليس بإمكان أى باحث منصف، إهمال الدور الرائد والحيوى للشيخ محمد عبده. لقد كان مفكرا، ولم يكن من أشباه المفكرين، الذين انتشروا الآن كالجراد والخفافيش. كان مؤمنا بالتجديد، تجديد الفكر الدينى، ولم يكن من أنصار التقليد والجمود والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية وبئس المصير. كان ينظر إلى المستقبل، ولم يكن هدفه أن يظل الحال على ما هو عليه.

كم ضاق بمناهج التعليم فى المدارس الأزهرية، والجامع الأزهر وكان تواقا باستمرار إلى إصلاح تلك المناهج، حتى يكون الأثر غير الأثر فى النفوس والعقول.

كانت حياته غاية فى النشاط. فكان كثير التنقل والترحال من بلدة إلى بلدة أخرى من البلدان العربية والبلدان الأوروبية. لا يكل ولا يمل. ينشر النور والضياء فى كل مكان، عن طريق دروسه ورحلاته ومقابلاته والمناصب التى تولاها. صحيح أننا قد نختلف معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، ولكن هذا الإختلاف من طبيعة الفلسفة والتفلسف، ويكفيه أن إيجابياته أكثر من سلبياته.

ولد عام ١٨٤٩ بإحدى قرى مصر (محلة نصر)، ولكنه ملأ بقاع الأرض علما ومعرفة. وتوفى فى الحادى عشر من يوليو عام ١٩٠٥م، وهو نفس العام الذى ولد فيه

---

[1] راجع الفصل الخاص بالشيخ محمد عبده فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر، وأيضاً: تصديرنا ودراستنا النقدية لكتاب: الإسلام دين العلم والمدنية - دار قباء - القاهرة.

مفكرنا العملاق زكى نجيب محمود، وأيضاً الأب الدكتور جورج قنواتى، سفير مصر الفكرى فى أرجاء المعمورة شرقا وغربا، اهتزت أسلاك البرق لوفاته، وكان يوم الوفاة حدادا عاما فى كل البلدان الإسلامية، والتى أدركت مكانة الرجل علما وخلقا.

دافع عن الإسلام دفاعا مجيدا، وأدرك أن المشكلة ليست فى الدين، ولكن فى الفهم الخاطئ للدين. نجد هذا حين نبهنا من خلال العديد من كتاباته وفى الفتاوى التى قال بها إلى أهمية تأويل النص الدينى، وربط مبادئ الدين بقضايا العصر والحضارة.

كان إذن مجددا ولم يكن مقلدا متزمتا. كان يرى أن الحال فى المستقبل ينبغى أن يكون غير الحال فى الحاضر وفى الماضى أيضا. وكم حورب الرجل فى حياته وبعد مماته. لأنه كان صاحب نزعة تنويرية. ولم يكن من دعاة الظلام والإرهاب الفكرى.

أدرك محمد عبده بثاقب نظره أنه من الضرورى والحيوى والجوهرى، فهم الدين فهما صحيحا وذلك حتى نتقدم إلى الأمام، وكأنه كان يدرك أن ذلك إنما يعد تعبيرا عن سنة الله فى خلقه. لقد خلق الله عيوننا فى مقدمة رؤوسنا ولم يخلقها فى مؤخرة رؤوسنا. والله تعالى كما يقول ابن سينا فى مناجاته، فالق ظلمة العدم بنور الوجود. إن هذا إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على ارتباط الوجود بالنور، أرتباط الحياة بالضياء، وفى نفس الوقت، ارتباط العدم والفناء بالظلام. إننا إذا أردنا لأنفسنا الوجود، فلا مفر من السعى بكل قوتنا نحو النور والضياء والتنوير. أما إذا أردنا لأنفسنا الفناء والعدم والهلاك، فإننا سوف لا نسعى إلا إلى الظلام. فمرحبا إذن بالنور. ولعنة الله على الظلام ودعاة الظلام.

كان محمد عبده خلال حياته، والتى كانت قصيرة نسبيا، حريصا على أن يقدم لنا المثل والقدوة والريادة.فنشاطه الصحفى داخل مصر وخارجها كان يدعو إلى الإعجاب،. مؤلفاته نجد فيها مئات الأفكار الناضجة المثمرة والبالغة الأهمية.

لم يكن محمد عبده من خلال الوظائف التى تولاها، ومن بينها عمله فى القضاء بالمحاكم الشرعية، وعمله كمستشار فى محكمة الإستئناف، وتوليه الإفتاء، وعضويته فى مجلس شورى القوانين، وغيرها من الأعمال والوظائف، لم يكن مجرد مقلد للآخرين، بل كان ساعيا بكل قوته نحو التجديد، وتحويل الأرض الخراب إلى حديقة فياضة بالزهور والثمار.

صحيح أن الرجل لا يعد فيلسوفا. هذا ما قلنا به وما زلنا نقول به تصحيحا لمفاهيم خاطئة انتشرت عند أصحاب الفهم البليد ومن متخلفى العقول. نعم لم يكن محمد عبده فيلسوفا، ودوره فى الحاضر كان أقل بكثير من دور العملاق الفيلسوف ابن رشد فى الماضى. ولكن هذا لا يقلل من شأن محمد عبده، وخاصة أننا لا نجد فلاسفة فى عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه وطوال ثمانية قرون. لقد أنقطع وجود الفلاسفة منذ العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م أى منذ وفاة الرائد والمعلم والعملاق ابن رشد. ولكن الشيخ محمد عبده يعد على الأقل مفكرا ومصلحا، ترك بصماته الواضحة والبارزة على مسار فكرنا العربى الحديث منه والمعاصر. ومن يحاول إنكار ذلك فوقته ضائع عبثا.

صحيح أن الرجل لم يدافع عن الفكر الغربى الأوروبى بمثل ما نجده عند مفكرين كبار ورواد عظام، آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم، ومن بينهم أحمد لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود والأب جورج قنواتى، ولكن للشيخ محمد عبده العديد من الإيجابيات. له آراؤه الإصلاحية الدقيقة. لم يكتب عن التراث إلا بعد دراسة متأنية للتراث لقد وضع يده على المفيد

من تراثنا وبحيث فرق بينه وبين الخاطئ والسلبى من التراث. لم يقف شيخنا عند سكون وظلام التقليد والنظر إلى أسفل، بل آثر لنفسه وللأمة العربية، حركة وحيوية النور والتنوير، ونظر إلى أعلى، مثله فى ذلك مثل المجدد الذى يصعد بنفسه إلى أعلى الشجرة ليلتقط ثمارها، وبحيث لا يلتقطها من أسفل الشجرة، وبحيث يكون عالة على جهد الآخرين وترديد أفكار السابقين مجرد ترديد.

لقد قال محمد عبده بالعديد من الأفكار لكى تبقى وتظل بيننا على امتداد العصور والزمان. إنها أفكار حية وليست أفكارا ميتة. أفكار لا يصح أن توضع فى زوايا النسيان والإهمال. ألا يكفيه فخرا الجرأة التى تميز بها، والمعارك التى خاضها؟ ألا يكفيه أنه كان مدركا للدور الحقيقى للمثقف، والدور الإجتماعى للثقافة. لقد كانت أعماله تدلنا على إدراكه أن المثقف لا يكون مقتصرا على الدرس الأكاديمى، بل لابد وأن يضيف إلى ذلك اهتماما بالمشكلات الإجتماعية والفكرية. والجوانب العملية الإصلاحية، والتى تهم بلده من جهة، وسائر البلدان الأخرى من جهة ثانية.

تميز الشيخ محمد عبده بالحس النقدى، ولم يكن مجرد عارض لأفكار من سبقوه، كعارض الأزياء، بل إنه كان يلجأ إلى التحليل والمقارنة والموازنة تعبيرا عن إيمانه بالنقد ودوره الخلاق فى صياغة وتشكيل العقل والوجدان. نجد هذا فى أكثر الكتب التى تركها لنا والرسائل التى قام بتأليفها، والحكم والأمثال التى تعد معبرة عن خلاصة تأملاته. ومن بين كتبه ورسائله، رسالة التوحيد، والإسلام والرد على منتقديه، والإسلام دين العلم والمدنية، والعديد من الفتاوى التى قال بها والتى كانت فى زمانه تعد فتحا جديدا وجريئا، وطريقا إلى الأمام وما يرتبط بالتقدم إلى الأمام، من التمسك بالقوة والإعتزاز بطريق العقل الذى خلقه الله فينا. هذه سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد غادرنا إلى عالم الآخرة منذ أكثر من تسعين عاما، فيقيني أنه من الواجب علينا الإستفادة من أفكاره، وما أعظمها وأروعها. لقد دخل الرجل تاريخ حياتنا الفكرية المعاصرة من أوسع الأبواب وأرحبها. وإذا كان من حقنا كمصريين أن نفخر بالرجل، فإن من واجبنا إحياء أفكاره وكم نجد فيها من دلالات عميقة وخاصة أنها كانت معبرة عن اعتزازه بالعقل واعتزازه بالنور والتنوير.

والموضوعات التى نجدها فى كتاب العلم والمدنية قد نشرت أساسا بكتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية كما نشر أكثرها بكتاب الإسلام دين العلم والمدنية.[1]

وتوجد فصول بكتاب الإسلام والنصرانية لا نجدها فى كتاب الإسلام دين العلم والمدنية، كما نجد أيضاً فصولا بالكتاب الثانى على نحو غير تفصيلى بالكتاب الأول. وعلى كل، فإن الفصول التى نقدمها، يجمعها الإهتمام بموضوع العلم والمدنية.

وأبرز المجالات التى تحدث عنها محمد عبده على صفحات هذا الكتاب، هى على النحو التالى:

- طبيعة الإسلام مع العلم بمقتضى أصوله.
- الإسلام اليوم.
- فى العلم والدين ومستقبل الإسلام والمسلمين.
- أصول الإسلام.
- أشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية.

---

[1] راجع فى ذلك كتابنا: العلم والتنوير فى الفكر العربى المعاصر، وأيضاً دراستنا لكتاب الإسلام دين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده (دارسينا - القاهرة). وقد تم طبع الكتاب بدار الهلال، مع عرض وتحقيق وتعليق طاهر الطناحى فى ست صفحات.

- الإسلام فى أوائل القرن العشرين.
- الإسلام ومدنية أوروبا.
- ابن رشد وفلسفته.

والكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه، كتاب العلم والمدنية، إنما يكشف عن سعة اطلاع الأستاذ الإمام وعمق ثقافته الدينية الإسلامية واهتمامه اهتماماً كبيراً بالدفاع عن الإسلام. وسيجد القارئ لهذا الكتاب كيف يقوم محمد عبده وهو رجل دين أساسا بتوظيف الأفكار الدينية، وبحيث لا تكون أفكارا مجردة معزولة عن مجتمعنا. ونجد الآن أنفسنا فى أمس الحاجة إلى العديد من الأفكار التى نجدها فى هذا الكتاب وغيره من كتب ورسائل تركها لنا محمد عبده رغم مرور ما يقرب من قرن من الزمان على قول محمد عبده بها. وهذا إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على أن الفهم المنفتح للدين وأحكامه هو الذى يقدر له البقاء، أما الفهم المغلق فإنه لا يقدر له البقاء، بل سيكون فى واد، وتكون حياتنا الإجتماعية والفكرية فى واد آخر.

يكفى الشيخ محمد عبده فخرا أنه كان من خلال كتبه ورسائله مدافعا عن العقل إلى حد كبير، العقل الذى يعد أشرف ما فى الإنسان، والذى عن طريقه استطاع مفكرنا محمد عبده تأويل النصوص الدينية، تأويلا معبرا عن الإجتهاد وسعة الإطلاع والرغبة فى اكتشاف الحقيقة، وخدمة أمور مجتمعنا العربى.

لهذا كله لم يكن غريبا أن يهتم كثير من المفكرين والمؤلفين سواء كانوا من العرب أو كانوا من الأوروبيين، بالكتابة عن مفكرنا الكبير محمد عبده ودراسة أفكاره وخاصة تلك الأفكار التى نجدها فى كتابه "الإسلام دين العلم والمدنية". ومن بين من اهتموا بالكتابة عنه، محمد رشيد رضا ومصطفى عبد الرازق وعثمان أمين وأحمد لطفى السيد وعباس العقاد ومحمد بخيت ومنصور فهمى وحافظ إبراهيم وأحمد

أمين ومحمد مصطفى المراغى وماكس هورتن وشارل آدمز، وشاخت، وجب، وجولد زيهر، وجومييه.

قلنا إن الشيخ محمد عبده قد بحث فى كتابه العديد من الموضوعات البالغة الأهمية، ونود أن نقف قليلا عند بعض هذه الموضوعات.

يؤكد محمد عبده فى حديثه عن الدين والمتدينين على أهمية الفعل الإنسانى، إن الإنسان يعد حرا ولا يعد مجبرا لا حول له ولا قوة. إنه لا يصح للإنسان أن يذهب إلى القول بأن الطبيعة هى التى أجبرته، بل إن الإنسان لديه القدرة أو الفاعلية.

ونحن فى عالمنا العربى فى أمس الحاجة إلى التأكيد على أهمية هذا الرأى الذى يقول به محمد عبده والذى يقترب إلى حد كبير من رأى المعتزلة فى موضوع حرية الإرادة، والبحث فى مشكلة القضاء والقدر. لقد شاع بيننا الإتجاه الجبرى، اتجاه التواكل والإستسلام، وهذا الإتجاه لا يؤدى إلى تقدم الأمم.

لقد أثار محمد عبده من خلال كتابه العديد من الأسئلة والتى يحاول عن طريقها معرفة أسباب تخلف المسلمين الآن فى حين أننا فى الماضى كنا نتمتع بالقوة والمجد والإزدهار. ولا تخلو عبارات محمد عبده من نغمة حزن وأسف على ما وصلنا إليه الآن. إنه يتساءل قائلا: هل استبدت الأبدان وسيطرت على الأرواح؟ هل انقطعت الصلة بين الأسباب ومسبباتها؟ لقد كان للمسلمين فى الحروب الصليبية آلات نارية، كان لهم العديد من الأعمال التى بهرت الأبصار وأدهشت الألباب.

ويحاول محمد عبده تحديد الأسباب التى أدت إلى ضعف المسلمين. لقد ظهر بين المسلمين رجال ارتدوا الزى الدينى ولكنهم قالوا بالكثير من البدع التى لا صلة لها بالدين. لقد انتشر بين المسلمين الإيمان بالجبر وأدى هذا إلى سخريتهم من العمل والكفاح.

وفى قسم آخر من أقسام كتابه يتحدث محمد عبده عن أصول الإسلام، وهذه الأصول التى بحث فيها هى على النحو التالى:

١- النظر العقلى لتحصيل الإيمان.

٢- تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض.

٣- البعد عن التكفير.

٤- الإعتبار بسنن الله فى الخلق.

٥- قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها.

٦- حماية الدعوة لمنع الفتنة.

٧- مودة المخالفين فى العقيدة.

٨- الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة.

والواقع أن الإنسان حينما يقرأ آراء محمد عبده أثناء حديثه عن هذه الأصول يدرك تمام الإدراك أننا الآن فى أمس الحاجة إلى مثل تلك الآراء سواء فى حياتنا الفكرية أو حياتنا الإجتماعية السياسية.

لقد ذهب محمد عبده فى دراسته لأصول الإسلام إلى أن الإسلام قد أطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد.

ويؤكد محمد عبده أن القتل ليس من طبيعة الإسلام، بل من طبيعته العفو والتسامح ولم تقع حرب إسلامية بقصد الإبادة، بل كان يكتفى بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطان الإسلام، ثم ترك الناس وما كانوا عليه من الدين، يدفعون جزية لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم وديارهم، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم أحرار. وقد جاء فى السنة المتواترة ما يفيد ذلك ومنها: لهم ما لنا وعليهم ما علينا" وأيضا: من آذى ذميا فليس منا. أما إذا كنا نجد انحرافا من جانب

بعض المسلمين عن هذه الأحكام، فإن ذلك قد ظهر - فيما يقول محمد عبده - عندما بدأ الضعف فى الإسلام، وضيق الصدر من طبع الضعيف.

هذه كلها مبادئ يكشف عنها ويقوم بتحليلها مفكرنا محمد عبده من خلال دراسته لأكثر من أصل من أصول الإسلام.

وتأكيدا على الدفاع عن الإسلام والإعتقاد بأن الدين يجب ألا يكون معزولا عن المجتمع، فإننا نجد الشيخ محمد عبده أثناء دراسته لآخر الأصول التى سبق أن أشرنا إليها، وهو الأصل الذى يتمثل فى الجمع بين الدنيا والآخرة، يعطينا العديد من الأمثلة التى تدلنا على كيفية النظر إلى الآخرة من خلال الدنيا، والنظر إلى الدنيا بعيون الآخرة. إن أوامر الدين إذا كانت تطلب من العبد الإتجاه إلى ربه وتملأ قلبه بالرهبة وتعطيه الأمل فى الرغبة، فإنها لا تحرمه من التمتع بالدنيا، بل تطلب منه الوقوف موقفا معتدلا. ومعنى هذا أنه لا يوجد غلو فى الدين، بل يوجد الإعتدال والموقف الوسط. وقد ذكر محمد عبده الكثير من الآيات القرآنية مستدلا بها على أن الإسلام يدعونا إلى الموقف الوسط فى مجال الأخلاق بصفة خاصة.

ويدعونا محمد عبده إلى الإنفتاح على العلوم الأخرى حتى لو كانت علوما غير دينية، أى غير مرتبطة ارتباطا مباشرا بالعلوم الدينية الشرعية، كما يحارب التقليد والجمود محاربة شديدة، ويرى أن الجمود عند النص الدينى هو الذى أدى بالمسلمين إلى التأخر وعدم اللحاق بالأمم الأخرى.

والواقع أننا نجد العديد من الآراء التى تعد ثرية ثراء كبيرا وعميقة غاية العمق داخل كتاب الإسلام دين العلم والمدنية والذى يمكن أن نقول عنه بحق إنه كتاب لا يمكن أن يستغنى عنه مثقف من قريب أو من بعيد، وخاصة بالنسبة للفكر التجديدى بوجه عام، وفكر محمد عبده على وجه الخصوص، إذ أن أفكاره واضحة ومشرقة وتجعلنا نقول إذا درسنا آراءه الموجودة فى هذا الكتاب إننا أمام مفكر

عملاق، بذل أقصى جهده فى الدفاع عن الحقيقة ومن حقنا أن نفخر بمفكرنا محمد عبده ومن واجبنا أن ندرس آراءه حتى نستفيد من أكثرها فى إضاءة الطريق أمامنا، وبحيث نجعل مستقبلنا أفضل من حاضرنا.

ونجد واجبا علينا ضرورة الإشارة إلى أننا نختلف مع الأستاذ الإمام فى العديد من الآراء التى قال بها. إننا لا نجده فى بعض فصول الكتاب يعتمد اعتمادا رئيسيا على التحقيق العلمى الأكاديمى الجاد، وبحيث يعول بالدرجة الأولى على كتب هذا المفكر أو ذاك من المفكرين الذين يتحدث عنهم. وليرجع القارئ العزيز وعلى سبيل المثال لا الحصر إلى الفصل الذى كتبه عن ابن رشد آخر فلاسفة العرب وأحكامه حول نظرية أو أكثر من النظريات التى بحث فيها ابن رشد عميد الفلسفة العقلية فى بلداننا العربية من مشرقها إلى مغربها. إن أحكام محمد عبده على فكر ابن رشد كانت تحتاج منه إلى العديد من المراجعات العلمية وبحيث يرجع إلى شروح ابن رشد على أرسطو، ولكنه للأسف لم يفعل ذلك، بل إننا نراه يعتمد أساسا على الأحكام الخطابية البلاغية الإنشائية.

لكن هذا لا يقلل كثيرا من أهمية الجهد الذى قام به، وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الإمام محمد عبده قد ترك لنا مدرسة فكرية ليس فى مصر وحدها، بل فى العديد من البلدان العربية والإسلامية. وكم نجد آراءه تتردد بلا انقطاع وحتى أيامنا الحالية عند كثير من مفكرينا شرقا وغربا وبصورة مباشرة أو غير مباشرة. وهذا إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على بصماته القوية على خريطة فكرنا العربى الإسلامى المعاصر. ومن يحاول إهمال أو تغافل دور محمد عبده الخلاق المبدع فإن وقته يعد ضائعا عبثا.

وآراء الشيخ محمد عبده سواء فى هذا الكتاب أو فى كتبه ورسائله الأخرى ومقالاته أيضا، تدلنا بوضوح على أن مفكرنا كان صاحب نظرة تجديدية. والنظرة

التجديدية تعد معبرة عن الثورة من داخل التراث نفسه، إنها إعادة بناء التراث وبحيث يكون متفقا مع العصر الذى نعيش فيه.

فالتجديد إذن هو إعادة بناء Reconstruction، ولا يعد التجديد تمسكا بالبناء القديم كما هو وبصورته التقليدية، كما لا يحمل فى طياته هدما أو رفضا مطلقا للتراث.

إننا نجد الدعوة إلى إعادة البناء واضحة تمام الوضوح عند كثير من المفكرين من أبناء أمتنا العربية ومن بينهم مفكرنا الشيخ محمد عبده. وهذا يدلنا على أن الإمام محمد عبده إنما كان يدرك تمام الإدراك أن العيب ليس فى التراث، ولكن العيب فى النظرة إلى التراث من خلال منظور تقليدى رجعى لا يتمشى مع العصر. صحيح أن محمد عبده كان يلجا أحيانا - وكما سيتضح لنا - إلى الدفاع عن بعض جوانب من التراث بأدلة خطابية بلاغية بعيدة كـ البعد عن الأدلة العلمية المنطقية. وصحيح أيضا أنه كان يلجأ إلى نوع من التعسف فى الفهم، التعسف الذى لا يخلو من مبالغة تارة وسطحية تارة أخرى، ولكن ذلك كله يجب ألا ينسينا أن الهدف الذى كان يسعى إليه محمد عبده إنما كان هدفا ساميا ونبيلا، بالإضافة إلى أن محاولات التجديد من داخل التراث، أى النظرة التجديدية والتى يعد داخلا فى إطارها مفكرنا محمد عبده، قد تفرض على المفكر أحيانا نوعا من التعسف لابد وأن يلجأ إليه. إنه يجدد ولكن من داخل البناء، البناء التراثى، ولا يقف من التراث موقف المتقبل المستسلم، ولا موقف الرافض. ولا يخفى علينا أن المعبرين عن موقف القبول والتسليم، لا يحتاجون إلى اللجوء إلى أى نوع من أنواع التعسف أو سوء التأويل، لأنهم يسلمون بالتراث كما هو ويقفون عند ظاهره. ونجد هذا أيضا عند أصحاب موقف الرافضين للتراث. إنهم إذا رفضوا التراث فهم ليسوا فى حاجة إلى اللجوء إلى أى نوع من أنواع التعسف.

يجب إذن أن نضع هذا فى اعتبارنا حتى نستطيع إدراك الجهد الكبير الذى قام به الشيخ محمد عبده. ويكفى الشيخ محمد عبده فخرا أنه كان من خلال كتبه ورسائله مدافعا عن العقل إلى حد كبير، العقل الذى يعد أشرف ما فى الإنسان، والذى عن طريقه استطاع مفكرنا تأويل النصوص الدينية، تأويلا معبرا عن الإجتهاد وسعة الإطلاع والرغبة فى اكتشاف الحقيقة.

نجد هذا واضحا غاية الوضوح فى العديد من الكتب والرسائل التى تركها لنا محمد عبده والتى سبق أن أشرنا إليها، ومن بينها مقالاته فى العروة الوثقى، وحاشيته على شرح الروانى لكتاب العقائد العضدية للأيجى، ورسالة التوحيد، وتقرير فى إصلاح المحاكم الشرعية، والإسلام والرد على منتقديه، والإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، وحديثه الفلسفى مع الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر، وتفسيره لسورة العصر، وسورة الفاتحة، وتفسير جزء عم، وتفسير المنار والذى أكمله رشيد رضا، ودروس دار الإفتاء.

ويبين لنا الشيخ محمد عبده كيف اهتم المسلمون والعرب اهتماماً لا حد له بالعلوم الأدبية بعد مرور عشرين عاما على وفاة الرسول (ص). كما اهتموا بالعلوم الكونية وخاصة أيام الدولة العباسية عند أمثال المنصور وهارون الرشيد والمأمون. كما اهتم المسلمون بإنشاء دور الكتب سواء فى بلدان المشرق العربى أو فى بلدان المغرب العربى، بالإضافة إلى إنشاء المدارس للعلوم والتى انتشرت فى كل الأقطار، فى بلاد المغول وفى بلاد التتار من جهة المشرق، وفى مراكش والأندلس من جهة المغرب.

كما يشير محمد عبده إلى أهمية العلوم العربية، وكيف كان علم العرب فى أول الأمر يونانيا ثم أصبح عربيا، وأن أول شئ تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم

من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة، وألا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤيدها التجربة.

ولا شك أن محمد عبده قد دافع عن أهمية العلوم العربية دفاعا مجيدا وبغير حدود، إلا أننا نلاحظ لجوء الشيخ محمد عبده إلى التعميمات دون أن يضع في اعتباره العديد من الأمثلة والحوادث التاريخية التي لا تؤيد أقواله، وهذا هو العيب الأكبر في اللجوء إلى التعميم بقصد الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية بحق وبغير حق. لابد أن نضع في اعتبارنا أن كل حضارة مع ما يوجد فيها من إيجابيات وإنجازات، إلا أننا نجد مع ذلك نوعا من السلبيات. لقد تكلم محمد عبده عن كافة العلوم عند العرب وذكر أن جميع المقالات والكتب كانت تنتشر ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شئ مما كتب صاحب الكتاب، ما عدا إشارة من جانب مؤرخ واحد إلى أنه قد وضع قانون في بعض الممالك الإسلامية لنشر كتب العقائد وبحيث لا ينشر منها شئ إلا بإذن.

والدارس لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية لابد وأن يلاحظ وقوع العديد من الأحداث التي تدلنا على قيام بعض الخلفاء وبعض رجال الدين بالتضييق على حرية الفكر حتى في العصر العباسي والذي يشير إليه محمد عبده كثيرا، بالإضافة إلى عصور أخرى في المشرق والمغرب. ألم يسمع محمد عبده عن إحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في بلاد الأندلس، وعن رجم العامة للمشتغلين بالمنطق والفلسفة ومن لديهم كتب في هذين الموضوعين، وعن احراق مئات بل آلاف الكتب بعد صدور الحكم على ابن رشد بالنفي خارج قرطبة إلى غير ذلك من مئات الأحداث التي كان ينبغي على محمد عبده الوقوف عندها. أليس ذلك أفضل له وللقراء من اللجوء إلى التعميمات وإلى الدفاع عن طريق لغة لا تخلو من النزعة الخطابية الإنشائية. هل كان موقف المسلمين من كتب المنطق والفلسفة هو نفس موقفهم من

الكتب الدينية والأدبية واللغوية. الجواب بالنفى إذا قمنا بتحليل الأحداث التاريخية تحليلا نقديا دقيقا.

إننا سنتعلم منه الكثير. سنستفيد من كتابه هذا وغيره من كتب الكثير من الدروس. وإذا كنا نختلف معه فى قليل من الآراء التى ذهب إليها، وبعض النقاط التى أثارها فإن هذا الإختلاف فى حد ذاته إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على ثراء فكره وعمق اتجاهه، يدلنا على أن الرجل قد ترك بصماته البارزة على مسار فكرنا العربى الحديث. لقد دخل تاريخ فكرنا المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها. ومن حقنا أن نفخر به وبأفكاره ومن واجبنا الوقوف عند أفكاره وسبر أغوارها. ويقينى أن من يحاول إهمال أفكاره وتخطى الدور الذى قام به، فإن وقته يعد ضائعا عبثا، إذ أن مفكرنا الإمام محمد عبده يعد علامة مضيئة فى تاريخنا الفكرى المعاصر، ورائدا من الرواد الكبار الذين سعوا إلى التجديد، إلى إنارة الطريق أمامنا، إلى الربط بين الفكر والعمل، إلى النظر نظرة مستقبلية إلى حد كبير.

يجب علينا إذن الوقوف عند أفكاره ولنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض. أما أن ننظر إليها من خلال منظور العبث والإهمال والنسيان، فإن هذه النظرة تعد مرفوضة تماما قلبا وقالبا لأننا أمام مفكر عملاق بذل أقصى ما يملك من جهد للدفاع عن الحقيقة فى كل زمان وكل مكان. إن دوره التنويرى يعد غاية فى الوضوح، ولكننا يجب أن ننظر إليه كفرد من أفراد البشر، وليس كقديس، فكم نجد لديه من الأفكار التى قد تكون بعيدة عن التنوير، كما نفهم، التنوير الذى يتخطى البكاء على أطلال الماضى، وبحيث يكون متجها نحو دنيا المستقبل، دنيا العلم، دنيا العقل.

إننا نقول ونكرر القول بأنه لا تنوير بدون العقل. وبقدر ما كان محمد عبده مقتربا من العقل، كان مؤيدا للتنوير، ولكن إذا وجدناه - كما اتضح لنا - مبتعدا عن

العقل من قريب أو من بعيد، فى موقف أو أكثر من موقف، فإنه لا يكون داخلا فى دائرة التنوير. ويبقى لنا بعد ذلك كله أن نقول إن الكم التنويرى عند الشيخ محمد عبده يفوق بكثير ما قدمه لنا من آراء قد تكون بعيدة عن التنوير، ومن هنا يكون محمد عبده، رائدا من رواد التنوير فى عالمنا العربى المعاصر.

لقد بذل مفكرنا جهدا، وجهدا كبيرا. ومن حق مجالسنا العلمية والثقافية الإحتفال بالرجل وأفكاره. وأحسب أن روح الإمام ترفرف الآن فى سعادة حين تعلم أن المجلس الأعلى للثقافة بمصر قد قرر الإحتفال بالرجل وأفكاره لأن أفكاره تعد أفكارا حية وليست من نوع الأفكار الجامدة الميتة. إنها كما نقول باستمرار تعد من جانبه دعوة إلى النور وما يرتبط به من وجود، ورفضا للظلام وما يرتبط به من عدم وفناء.

والله هو الموفق للسداد،،



ثـــالثـــا

تصدير الكتاب التذكارى عن الشيخ محمد عبده

مفكرا عربيا ورائدا للإصلاح الدينى والإجتماعى

إشراف وتصدير: عاطف العراقى – المجلس الأعلى للثقافة

تصدير الكتاب التذكارى عن الشيخ محمد عبده مفكراً عربياً ورائداً للإصلاح الدينى والإجتماعى - المجلس الأعلى للثقافة

أعظم ما يجب أن نهتم به تخليد ذكرى مفكرينا الكبار والشيخ محمد عبده يعد واحداً - لا شك فى ذلك - من مفكرينا المعاصرين. شق طريقه وسط الأشواك والصخور وخاض العديد من المعارك الفكرية، وارتبط اسمه بالإصلاح الدينى والإجتماعى، وترك مدرسة متعددة الإتجاهات، مدرسة اجتماعية، ومدرسة فكرية، ومدرسة دينية. وليس بإمكان أى باحث منصف، إهمال الدور الرائد والحيوى للشيخ محمد عبده. لقد كان مفكراً ولم يكن من أشباه المفكرين، كان مؤمناً بالتجديد، تجديد الفكر الدينى، ولم يكن من أنصار التقليد والجمود والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية وبئس المصير.

كم ضاق بمناهج التعليم فى المدارس الأزهرية، والجامع الأزهر، وكان تواقاً باستمرار إلى إصلاح تلك المناهج حتى يكون الأثر غير الأثر فى النفوس وفى العقول أيضاً، حتى يكون الحال غير الحال.

كانت حياته غاية فى النشاط، كثير الإنتقال من بلدة إلى بلدة أخرى من البلدان العربية والبلدان الأوروبية. لا يكل ولا يمل. ينشر النور والضياء فى كل مكان، عن طريق دروسه ومقابلاته والمناصب التى تولاها. صحيح أننا قد نختلف معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، ولكن هذا الإختلاف من طبيعة الفلسفة والتفلسف، ويكفى أن إيجابيات الرجل أكثر بكثير من سلبياته ويكفى أنه كان باحثاً عن الحقيقة فى كل مكان وطوال الفترة التى عاشها.

لقد ولد عام ١٨٤٩ بإحدى قرى مصر (محلة نصر)، ولكنه ملأ بقاع الأرض علماً ومعرفة. وتوفى فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٩٠٥. واهتزت أسلاك البرق لوفاته، وكان يوم الوفاة حداداً عاماً فى كل البلدان الإسلامية، والتى أدركت مكانة الرجل علماً وخلقاً.

دافع عن الإسلام دفاعاً مجيداً، وأدرك أن المشكلة ليست فى الدين، ولكن فى الفهم الخاطئ للدين. تجد هذا حين نبهنا إلى أهمية تأويل النص الدينى، وربط مبادئ الدين، بقضايا العصر والحضارة. كان إذن مجدداً، ولم يكن مقلداً متزمتاً. كان صاحب نزعة تنويرية، ولم يكن من دعاة الظلام والإرهاب الفكرى.

أدرك بثاقب نظره أنه من الضرورى والحيوى والجوهرى، فهم الدين فهماً صحيحاً، وذلك حتى نتقدم إلى الأمام. وكأنه كان يدرك أن ذلك إنما يعد تعبيراً عن سنة الله فى خلقه. لقد خلق الله عيوننا فى مقدمة رؤوسنا، ولم يخلقها فى مؤخرة رؤوسنا. والله تعالى كما يقول ابن سينا فى مناجاته، فالق ظلمة العدم بنور الوجود. إن هذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على ارتباط الوجود بالنور، ارتباط الحياة بالضياء، وفى نفس الوقت، ارتباط العدم والفناء بالظلام. فإذا أردنا لأنفسنا الوجود، فلا مفر من السعى بكل قوتنا نحو النور والضياء والتنوير. أما إذا أردنا لأنفسنا الفناء والعدم والهلاك فإننا سوف لا نسعى إلا إلى الظلام. فمرحباً إذن بالنور، ولعنة الله على الظلام ودعاة الظلام.

كان محمد عبده خلال حياته، والتى كانت قصيرة نسبياً، حريصاً على أن يقدم لنا المثل والقدوة والريادة. نشاطه الصحفى كان يدعو إلى الإعجاب. مؤلفاته نقدية متعمقة وتعبر عن روح تأملية دقيقة. لم يكن من خلال الوظائف التى تولاها، مجرد مقلد للآخرين، بل ساعياً نحو التجديد، وتحويل الأرض الخراب، إلى حديقة مثمرة.

صحيح أن الرجل لا يعد فيلسوفاً بأى حال من الأحوال، ولكن هل وجدنا في عالمنا العربى منذ ثمانية قرون فيلسوفاً من الفلاسفة؟ كلا ثم كلا. لقد انقطع وجود الفلاسفة منذ العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م، أى منذ وفاة العملاق، عميد الفلسفة العقلانية في بلداننا العربية، ابن رشد. فالشيخ محمد عبده يعد مفكراً ترك بصماته الواضحة والبارزة على مسار فكرنا العربى المعاصر، ومن يحاول إنكار ذلك فوقته ضائع عبثاً.

صحيح أن الرجل لم يدافع عن الفكر الغربى الأوروبى بمثل ما نجده عند مفكرين كبار، آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم، ومن بينهم أحمد لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وزكى نجيب محمود وهم من أعظم مفكرى مصر في حياتها المعاصرة، ولكن للشيخ محمد عبده العديد من الإيجابيات كما قلنا، ويكفى أنه لم يقف عند سكون وظلام التقليد والنظر إلى أسفل، بل آثر لنفسه، وللأمة العربية، حركة وحيوية النور والتنوير، ونظر إلى أعلى، مثله في ذلك مثل المجدد الذى يصعد إلى أعلى الشجرة ليلتقط ثمارها، وبحيث لا يلتقطها من أسفل الشجرة وبحيث يكون عالة على جهد الآخرين.

لقد قال محمد عبده بالعديد من الأفكار لكى تبقى وتظل بيننا على امتداد العصور والزمان، ولم يقل بما قال به لكى يوضع في زوايا النسيان والإهمال. ألا يكفيه فخراً الجرأة التى تميز بها، والمعارك التى خاضها؟ ألا يكفيه فخراً أنه كان مدركاً للدور الحقيقى للمثقف، وكيف أن المثقف لا يكون مقتصراً على الدرس الأكاديمى، بل لابد من أن يضيف إلى ذلك اهتماماً بالمشكلات الإجتماعية والفكرية التى تهم بلده من جهة، وسائر البلدان الأخرى من جهة أخرى.

تميز الشيخ محمد عبده بالحس النقدى. ولم يكن مجرد عارض لأفكار من سبقوه، كعارض الأزياء، بل إنه كان يلجأ الى التحليل والمقارنة والموازنة تعبيراً عن

إيمانه بالنقد ودوره الخلاق فى صياغة وتشكيل العقل والوجدان. نجد هذا فى أكثر الكتب والرسائل التى تركها لنا ومن بينها رسالة التوحيد، والإسلام والرد على منتقديه، والإسلام دين العلم والمدنية، والعديد من الفتاوى التى قال بها، والتى كان أكثرها فى زمانه يعد فتحا جديدا، وطريقا للتقدم إلى الأمام، وما يرتبط بالتقدم إلى الأمام، من التمسك بالقوة والإعتزاز بطريق العقل الذى خلقه الله فينا. هذه سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا،وانطلاقا من المعانى العديدة التى أشرنا إليها، وإدراكا لأهمية فكر الشيخ محمد عبده، واعتقادا بأننا ما زلنا فى أمس الحاجة إلى الإستفادة من دروس الإمام محمد عبده، فقد رأت لجنة الفلسفة والإجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة، ضرورة إصدار كتاب تذكارى عن الشيخ محمد عبده فى مناسبة مرور تسعين عاما على وفاته. وقد قامت اللجنة بتكليفى بالإشراف على إصدار هذا المجلد. ولا أخفى على القراء الأعزاء مدى صعوبة العمل الجماعى على طوال السنوات العديدة التى أشرفت خلالها على إصدار هذا العمل وإخراجه إلى حياة النور.

لقد شارك فى هذا العمل مجموعة كبيرة من المؤلفين والأساتذة والزملاء والذين أدركوا أهمية أفكار الرجل ودوره الرائد والحيوى. وكتب كل أستاذ وباحث فى مجال من مجالات اهتمام الشيخ محمد عبده، وما أكثر تلك المجالات.

كتب الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور عن محمد عبده الإمام. ودرس كاتب هذه السطور كتاب الشيخ محمد عبده "الإسلام دين العلم والمدنية" من خلال منظور نقدى وبحيث اختلف مع الإمام محمد عبده حول العديد من الآراء التى قال بها. وكتبت الأستاذة الدكتورة نازلى اسماعيل حسين عن حكمة التنوير فى رسالة التوحيد. وحلل الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق، مكانة العقل فى فكر الشيخ محمد عبده. وتحدث الأستاذ الدكتور عبد الفتاح فؤاد عن النزعة العقلانية فى الفلسفة التربوية عند الشيخ محمد عبده. أما الأستاذة الدكتورة زينب محمود

الخضيري، فقد اختارت موضوعا لبحثها. "التطور والإصلاح عند محمد عبده. وحدد الأستاذ الدكتور حامد طاهر مواضع الإستفادة مستقلا من فكر محمد عبده وذلك من خلال دراسته لمحمد عبده وأفكاره المستقبلية. وتحدث الأستاذ الدكتور على عبد الفتاح المغربي عن الفكر الإجتماعي عند الإمام محمد عبده. وجاء بحث الأستاذ الدكتور سعيد مراد تحت عنوان "نظرات في الإصلاح الإجتماعي عند محمد عبده أما الدكتورة زينب عفيفي شاكر فقد حللت في بحثها، النزعة النقدية في فكر محمد عبده، وكتب الدكتور أحمد الجزار عن الدين والأخلاق عند الإمام محمد عبده. وحللت مرفت عزت بالي موضوع التصوف في حياة الإمام محمد عبده وكتب الأستاذ سعيد زايد عن الإمام محمد عبده المصلح والمجدد. وكتبت الدكتورة مني أبوزيد عن منهج محمد عبده في دراسة العقيدة. وركزت الدكتورة نبيلة زكري زكي في دراستها عن محمد عبده، على فكره ومنهجه. واختار الدكتور سيد ميهوب موضوع الإنسان والمجتمع كمجال لدراسته. اما دراسة الدكتور جمال المرزوقي، فكان موضوعها، الإتجاه العقلي عند الإمام محمد عبده. وحلل الدكتور إبراهيم صقر فكرة الألوهية عند الشيخ محمدعبده.

وإكمالاً للفائدة التي نرجوها من هذا المجلد، فقد آثرنا اختيار مجموعة من النصوص الخاصة بمحمد عبده، حياته، وأفكاره، ونماذج من كتاباته، ومجموعة من الحكم والأمثال التي قال بها وهي نصوص تتعلق تعلقاً رئيسيا بموضوعات المقالات أو الدراسات التي جاءت في القسم الأول من قسمي هذا المجلد.

ونرجو أن يكون هذا المجلد تعبيراً عن المكانة الحقيقية للرجل، الرجل الذي قدم الكثير لمصر وسائر بلدان الوطن العربي. وإذا كان القدر قد شاء أن أكتب هذا التصدير في ذكرى اليوم الذي توفي فيه منذ تسعين عاماً، فلا يخالجني الشك في أن روحه التي صعدت إلى السماء، سترفرف في سعادة وغبطة حين ترى من يهتمون بأفكاره وبالقيم التي دعانا إليها، والمثل العليا التي دافع عنها طوال حياته.

والله هو الموفق للسداد..

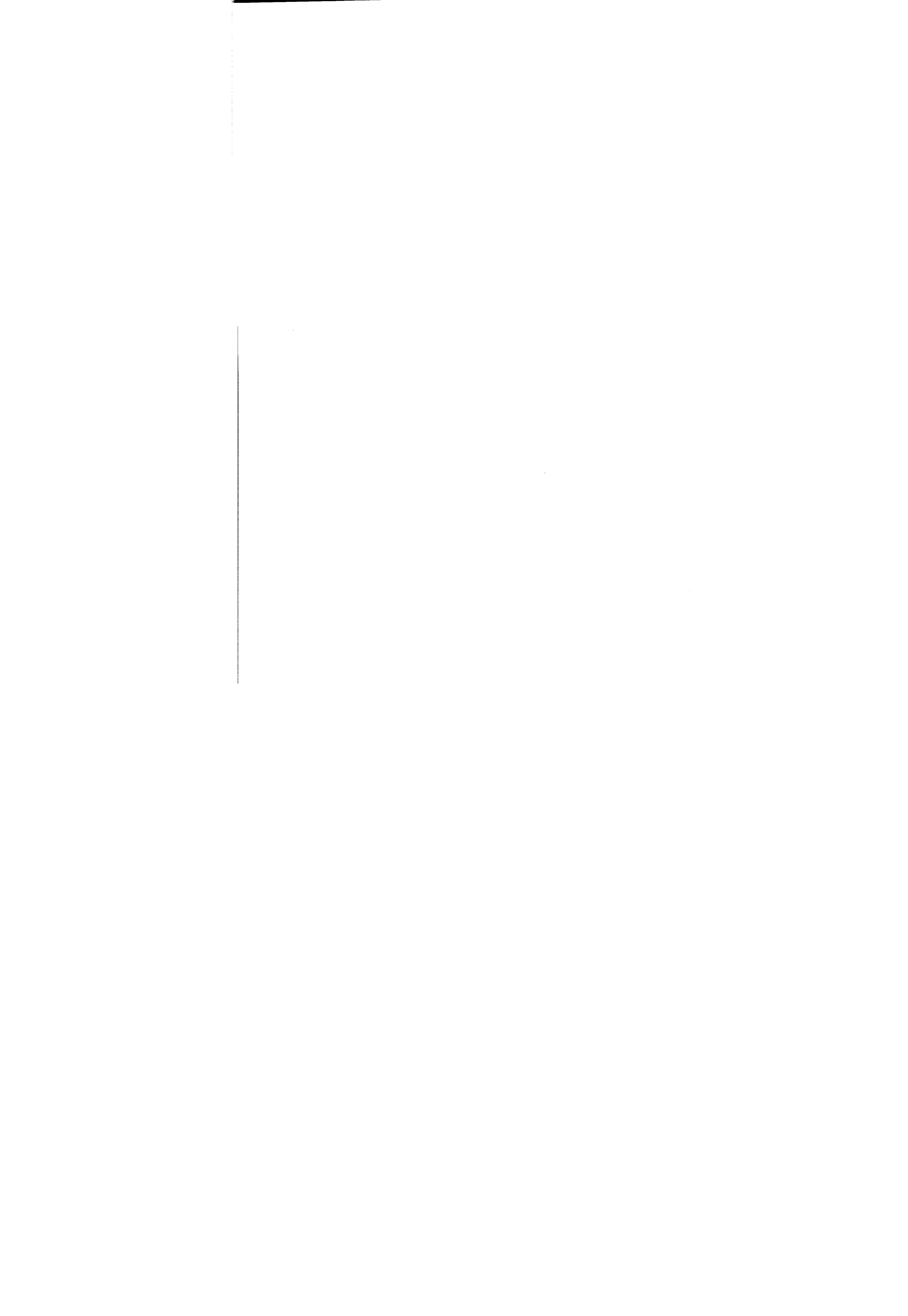


رابعــا

تصدير كتاب

رائد الفكر المصرى

الإمام محمد عبده - تأليف د. عثمان أمين.



تصدير كتاب رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده – تأليف د. عثمان أمين[1]

حسنا فكر المجلس الأعلى للثقافة بمصر فى الإحتفال بالشيخ محمد عبده. فالشيخ محمد عبده يحتل مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العربى المعاصر. ومن يحاول التغافل عن الرجل وأفكاره، فإن وقته يعد ضائعاً عبثاً. لقد قال بأفكار حية، ولم يقل بأفكار ميتة، كتلك الأفكار التى تتردد بين الحين والآخر من جانب أشباه الدارسين وأنصار الظلام والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية وبئس المصير.

إن الشيخ محمد عبده يعد خالداً بحسه النقدى، باتجاهه التنويرى وسواء اتفقنا مع الرجل، أو اختلفنا معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، إلا أن الرجل قد وضع بصماته على مسار فكرنا العربى المعاصر. وحسنا فعل حين اختلف مع جمال الدين الأفغانى. إننا إذا قارنا بين الرجلين، الأفغانى من جهة، ومحمد عبده من جهة أخرى، فإن الخلود يكون للشيخ محمد عبده، إذ كم نجد من أفكار رجعية تارة، وظلامية تارة أخرى عند الأفغانى، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وخير صورة للإحتفال بمفكرنا الشامخ محمد عبده، إنما تتمثل فى تذكير الناس بأفكاره وذلك عن طريق نشر كتبه التى قام بتأليفها، وأيضاً إعادة طبع بعض الكتب الهامة التى تم تأليفها عنه.

من هنا لم أتردد فى كتابة تصدير لمؤلف أو أكثر من مؤلفات الإمام محمد عبده، وسعدت أيضا حين أكتب الآن تصديراً لكتاب هام من الكتب التى تم تأليفها

---

[1] راجع الكتاب التذكارى الذى صدر تحت إشراف د. إبراهيم مدكور عن الدكتور عثمان أمين، وأيضاً الفصل الخاص بالدكتور عثمان أمين فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر.

عن الشيخ الإمام، وهو كتاب رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده، والذى قام بتأليفه الأستاذ الدكتور عثمان أمين، وهو من هو فى مجال دراسة الفكر العربى المعاصر.

نعم رحبت بكتابة تصدير لهذا الكتاب الهام وذلك لأسباب عديدة من بينها أنه عن واحد من مفكرينا الكبار، عن الشيخ محمد عبده، ومؤلفه يعد علماً وعلماً بارزاً فى سماء حياتنا الفكرية والفلسفية، إنه عثمان أمين الذى تمتع طوال حياته بحس فلسفى من النادر أن نجد له مثيلاً بين أساتذة الفلسفة فى مصر، وكم كانت سعادتى حين كتبت عنه فصلاً فى كتابى "العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر"، وحين أهديت له كتاباً من كتبى، وهو كتاب "تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية".

إن كتاب الدكتور عثمان أمين عن رائد الفكر المصرى الشيخ محمد عبده، يعد كتاباً بالغ الأهمية. إنه يعد دراسة أكاديمية على مستوى رفيع. بذل فيه أستاذنا عثمان أمين جهداً ضخماً استمر سنوات عديدة، ورجع فيه إلى مئات المصادر والمراجع الهامة وعوّل بالدرجة الأولى على كتب ورسائل الإمام. إنه كتاب يكشف عن غزارة مؤلفه العلمية وأفقه الواسع. ومن الصعب أن نجد كتاباً عربياً عن الشيخ الإمام يكاد يقترب من كتاب الدكتورعثمان أمين.

صحيح أننا نختلف مع الدكتور عثمان أمين حول بعض أحكامه عن آراء الشيخ الإمام. نختلف معه فى بعض جوانب المنهج الذى على أساسه قام بدراسة آراء الشيخ الإمام.

فإذا وجدنا الدكتور عثمان أمين يرى أن محمد عبده يعد فيلسوفاً، فإننا نقول من جانبنا إنه لا يعد فيلسوفاً. لقد انقطع وجود الفلاسفة العرب بعد وفاة الفيلسوف ابن رشد فى العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨م، ولا نجد فيلسوفاً عربياً طوال ثمانية قرون وحتى الآن. ومن قبيل المبالغة أن نقول عن محمد عبده إنه يعد

فيلسوفاً. وإذا زعم أى فرد لنفسه أنه يعد فيلسوفاً، فإن هذا الزعم يكون من قبيل الدعاية الجوفاء والطبل الأجوف، تماماً كالأقوال التى يزعم أصحابها أنهم أصحاب مشروعات فكرية وذلك كتعبير من جانبهم عن تضخم الأنا تارة، والكذب على الناس تارة أخرى.

وإذا اتجه الدكتور عثمان أمين فى دراسته الرائعة عن الشيخ محمد عبده، إلى الدفاع باستمرار عن الشيخ الإمام وآرائه، فإن هذه النبرة الدفاعية قد تنسينا العديد من الأخطاء التى وقع فيها الشيخ الإمام من حيث المنهج تارة، والموضوع تارة أخرى. ومعنى هذا أننا يجب أن ننظر إلى الشيخ الإمام على أساس أنه يعد فرداً من أفراد البشر، وليس قديساً. لقد قال بالعديد من الآراء الإيجابية، وما أكثرها. ولكن هذا يجب ألا ينسينا بعض الأخطاء التى وقع فيها الرجل، وأقصد الشيخ الإمام محمد عبده.

ولكن هذا كله لا يقلل من أهمية الدراسة التى قدمها لنا الدكتور عثمان أمين. لقد أخلص لدراسته إخلاصاً بغير حدود. وإذا كان قد أعجب بالشيخ الإمام، فإن هذا من حقه. فالشيخ الإمام وخاصة إذا نظرنا إليه من خلال الفترة الزمنية التى عاش فيها، له العديد من الآراء الإيجابية، الآراء التى كان القصد منها نشر النور والضياء. وإذا قلنا بالنور فقد قلنا بالوجود والتواجد. أما إذا قلنا بالظلام، فإن هذا يعنى العدم والفناء. ألم يقل ابن سينا فيلسوف المشرق العربى الكبير فى دعائه لله تعالى: يافالق ظلمة العدم بنور الوجود. إن هذا إن دلنا على شئ، فإنه يدلنا على ارتباط العدم بالظلام، وارتباط الحياة والوجود بالنور. إنها سنة الله تعالى فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

لقد كان الشيخ محمد عبده من أبرز دعاة التجديد الفكرى والدينى فى عصره لقد بذل فى سبيل ذلك جهداً، وجهداً كبيراً. لقد خاض العديد من المعارك

الفكرية، لأنه قال بأفكار حية كما قلت، ولم يكن من القائلين بأفكار ميتة. لقد دخل فى صميم المشكلات الإجتماعية والفكرية، ولم يكن متفرجاً من الخارج. ولم يرتض لنفسه أن يجلس فى الخارج متفرجاً، أى يجلس فى الفناء. ولو كان قد جلس فى الفناء، لكان قد أدركه الفناء. أما وقد خاض بشجاعة ويقين ونبل وإخلاص، العديد من المعارك بحثاً عن التجديد والتنوير وسعياً من جانبه نحو الضياء، نحو كل قيمة خالدة فى حياتنا التى نحياها، لأنها الحياة الإنسانية فإن من واجبنا إذن الإحتفال بالرجل وأفكاره، من حقنا أن نفخر به كمصرى وعربى نشر النور والضياء.

نعم إنه واجب علينا دراسة أفكاره، وما أعظمها وما أروعها، وخاصة إذا قارنا بينها وبين ما يتردد الآن من أفكار ظلامية تارة، وإرهابية تارة أخرى. يجب علينا دراسة أفكاره حتى لا يزعم البعض أننا جيل بلا أساتذة.

من هنا كان من واجبنا بالإضافة إلى الإحتفال بالشيخ الإمام محمد عبده، الثناء على الجهد الرائع الذى قام به الدكتور عثمان أمين من خلال كتابه عن مفكرنا المصرى. إنه ينتقل من دراسته لرأى من آراء الإمام، إلى تحليل لرأى آخر من آرائه، فى ثقة ويقين، وواثق الخطوة يمشى ملكاً. وكتابه عن الشيخ الإمام يعد كتاباً مفيداً غاية الفائدة. ونحن أقرب إلى القول بأن أية دراسة عربية عن الشيخ الإمام فى المستقبل، لن يكون بإمكانها التغافل عن الدراسة القيمة التى كتبها الدكتور عثمان أمين.

لقد كتب الشيخ مصطفى عبد الرازق مقدمة لكتاب الدكتور عثمان أمين والذى نحن بصدد الحديث عنه. وقال فى مقدمته مخاطباً الدكتور عثمان أمين: لقد كنت من أشد الناس سروراً بك وإعجاباً بمصنفك الممتاز الذى يبرز صورة للشيخ محمد عبده صادقة ناطقة، ويحيط بكل الجوانب من نشاطه الإصلاحى المترامى الأطراف، ويعرض أفكاره الفلسفية فى اتساق ووضوح وحسن طريقة. وإن كتابك ليسد

ثغرة فى الدراسات المتصلة بالشيخ محمد عبده، وفى الدراسات المتصلة بتاريخ نهضتنا الفكرية والإجتماعية الحديثة من ناحية أثر الشيخ محمد عبده فيها.

أقول وأكرر القول: إننى لا أتردد فى الثناء على الشيخ محمد عبده وفكره الثاقب فى الكثير من جوانبه. ويكفى أنه كان من أنصار الدعوة إلى النور ولم يكن من خفافيش الظلام وأشباه المثقفين. ومن أجمل القيم فى حياتنا، قيمة الوفاء. فمن واجبنا إذن دراسة أفكار الشيخ الإمام محمد عبده والتى بذل جهدا كبيرا فى سبيل التوصل إليها. لقد مات الرجل ولكن الخلود يكون لفكره. يكون للقيم الرائعة التى دعانا إليها حتى دخل تاريخنا الفكرى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها.

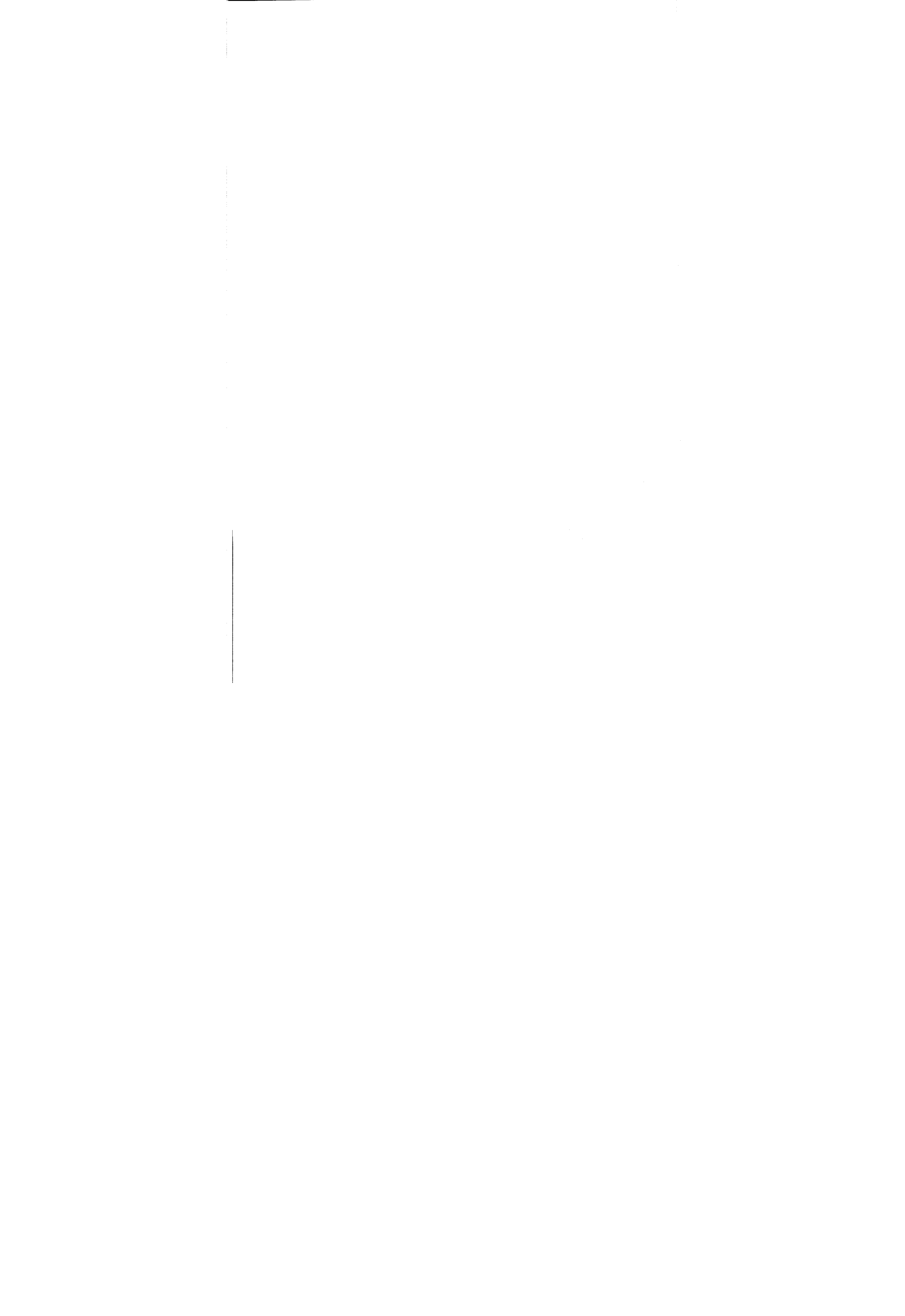
والله هو الموفق للسداد.



الفصل الثامن

الشيخ مصطفى عبد الرازق

وكتاب تذكارى عنه.



الشيخ مصطفى عبد الرازق[1] - وكتاب تذكارى عنه[2]

حسنا فكر المجلس الأعلى للثقافة فى إقامة مؤتمر كبير احتفالا بمرور نصف قرن على وفاة الشيخ مصطفى عبد الرازق. وإذا كان المجلس الأعلى للثقافة قد أصدر منذ خمسة عشر عاما كتابا تذكاريا بعنوان "الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق. مفكراً وأديبا ومصلحا وأشرف عليه الأستاذ الدكتور توفيق الطويل والذى كان وقتها مقررا للجنة الفلسفة والإجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة، فإنه من المناسب إذن أن يفكر المجلس الأعلى للثقافة فى إعادة طبع هذا الكتاب التذكارى، ويقوم فى نفس الوقت بإعادة إصدار مجموعة من كتب الشيخ مصطفى عبد الرازق وحتى يعرف القارئ العربى أفضال الراحل الكريم وأثره البالغ على التجديد والتنوير فى فكرنا العربى.

والكتاب الذى نحن بصدد الإشارة إليه، الكتاب التذكارى كان قد أشترك فى الإسهام فيه مجموعة من الأساتذة والباحثين، كتب كل واحد منهم دراسة عن جانب أو أكثر من الجوانب الفكرية والإجتماعية عند الشيخ مصطفى عبد الرازق، ومن بينهم د. إبراهيم مدكور والذى كان رئيسا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، د. توفيق الطويل والذى كان أستاذا للفلسفة الخلقية بكلية الآداب - جامعة القاهرة، د. أبو الوفا التفتازانى والذى كان أستاذا للفلسفة والتصوف بآداب القاهرة، د. سعاد على عبد الرازق، أستاذة الفلسفة المساعدة بكلية البنات - جامعة عين شمس، د. على عبد الفتاح المغربى، وكان أستاذا للفلسفة بكلية الآداب - جامعة عين شمس،

---

[1] راجع الفصل الذى كتبناه عن الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر - القاهرة - دار قباء.

الطبعة الثانية من هذا الكتاب: إشراف وتصدير: عاطف العراقى

ود. عثمان أمين والذى كان أستاذا للفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة.. إلى آخر الأساتذة والباحثين والدارسين من الدين اهتموا بفكر الشيخ الراحل مصطفى عبد الرازق.

واليوم ونحن نحتفل بذكرى مرور نصف قرن على وفاته، أجد واجبا على بعد أن أشرت إلى هذا الكتاب التذكارى الذى صدر كما قلت منذ خمسة عشر عاما (١٩٨٢) أن أكتب هذه المقدمة عن الشيخ ومجهوداته الفكرية وبعض ما صدر من كتابات عن الرجل. الذى أثرى حياتنا الفكرية، وبحيث كان شعلة مضيئة فى سماء حياتنا الفكرية بمصر وغيرها من البلدان العربية من مشرقها إلى مغربها.

يحتل الشيخ مصطفى عبد الرازق فى تاريخنا الفكرى المعاصر مكانة كبيرة. لقد شملت اهتماماته مجالات الفلسفة والأدب والتاريخ والإصلاح الفكرى والإجتماعى.

ولد الشيخ مصطفى عبد الرازق عام ١٨٨٥م ميلادية فى أسرة مصرية عريقة ولد بقرية تسمى قرية أبو جرج التابعة لمحافظة المنيا، إحدى محافظات جنوب مصر.

وقد تزود الشيخ مصطفى عبد الرازق بالثقافة الأكاديمية والثقافة العامة الشاملة فى أكثر من مجال من مجالات الفكر. وقد ظهر أثر هذه الثقافة فى الكتب والمقالات والدراسات التى تركها لنا، والتى أثرت بدورها فى فكرنا العربى المعاصر تأثيراً كبيراً.

درس الشيخ مصطفى عبد الرازق على يد الإمام محمد عبده الذى كان يلقى الدروس بالجامع الأزهر. ويمكننا القول بأن مصطفى عبد الرازق قد استفاد من دروس الإمام محمد عبده وخاصة من حيث المنهج والذى يمثل الإنفتاح على أفكار الأمم الأخرى. إنه ليس المنهج الضيق التقليدى والذى كان يتمسك به الأزهر فى تلك الفترة. إنهما أى محمد عبده ومصطفى عبد الرازق يمثلان انفتاحا على الفكر

الغربى، كلاهما يمثلان اهتماما بفكرنا العربى وتراثه. كلاهما يهتمان بالفلسفة سواء تمثلت فى علم الكلام أو تمثلت عند الفلاسفة العرب من أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد. لقد استطاعا المزج بين الفكر العربى من جهة، وحضارة الغرب من جهة أخرى. إنهما لم يتمسكا بالتراث لمجرد أنه تراث، بحيث يرفضان حضارة الغرب وعلوم الغرب وفلسفته، إنهما لم يسخرا من التراث لمجرد أنه قديم، بل إنهما من خلال الكتب العديدة التى تركاها لنا، يمثلان - كما قلنا - جمعا بين التراث والإستفادة من أفكار الأمم الأخرى.

لقد استفاد مصطفى عبد الرازق من دراسته بفرنسا. سافر إلى فرنسا عام ١٩٠٩م وألتحق بالسوربون. وبعد حوالى ست سنوات من طلب العلم بفرنسا والقيام بالتدريس والمحاضرة أيضاً، حضر الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى مصر، وكان ذلك عام ١٩١٥م وبعد عودته شغل العديد من المناصب العلمية والإجتماعية من بينها أنه كان بالإضافة إلى أستاذيته بالجامعة المصرية، سكرتيرا عاما للأزهر ومفتشا للمحاكم الشرعية فى مصر، وشيخا للأزهر بعد الشيخ المراغى. كان الشيخ مصطفى عبد الرازق، أول أستاذ مصرى يلقى محاضرات فى الفلسفة العربية بالجامعة المصرية التى انشئت بالقاهرة عام ١٩٢٥م وأصبح أسمها الحالى جامعة القاهرة.

إنّ ريادته للفلسفة فى عالمنا العربى المعاصر تتجلى فى مجالات كثيرة، تتجلى فى أثره على طلابه سواء تلقوا العلم عنه بطريقة مباشرة، أو استفادوا من كتبه ومنهجه،أى استفادوا بطريقة غير مباشرة. لقد تعدى أثره الجانب العلمى والفكرى إلى الأبوة الشاملة والرعاية الحقيقية لطلابه ومريديه داخل الجامعة وخارجها. كان مثالا يحتذى، مثالا للأستاذ، مثالا للراعى الحقيقى للطلاب، الحريص على تشجيعهم أثناء تلقيهم العلم وأثناء تحضيرهم لدرجات علمية كالماجستير والدكتوراة، بل بعد

تخرجهم أيضاً. إننا نجده دواما الحريص على رعاية طلابه رعاية شاملة قلما نجدها الآن.

ومن هنا لم يكن غريبا أن يقوم بعض الباحثين بالتحضير لدرجات الماجستير فى جانب أو أكثر من جوانب فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد تمت مناقشة أكثر من رسالة علمية قدمت إلى جامعات عربية ومن بينها مصر والمغرب.

كما كتب عنه كثيرون من الباحثين والدارسين فى مجلات ودوريات علمية شتى. لقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق شعلة نشاط. كان لا يكل ولا يمل. ترك لنا العديد من الكتب والدراسات ومن أهمها: البهاء زهير، والدين والوحى والإسلام، والإمام الشافعى، وفيلسوف العرب والمعلم الثانى، والشيخ محمد عبده، وتمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية وصفحات ومذكرات كثيرة فى الأدب والإصلاح وهى تلك التى جمعها شقيقه على عبد الرازق وقد صدرت عام ١٩٧٥.

كما قام الشيخ مصطفى عبد الرازق بترجمة أكثر من كتاب من الفرنسية إلى العربية ومن العربية إلى الفرنسية ومن بين تلك الكتب، رسالة التوحيد للإمام محمد عبده وقد ترجمها بالإشتراك مع صديقه برنارد ميشيل.

ومن المقدمات التى كتبها لبعض الكتب، وأيضا مقالاته، المقدمة التى كتبها لكتاب الإسلام والتجديد فى مصر - تأليف تشارلز آدمز وترجمة عباس محمود، والمقدمة التى كتبها لكتاب موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته، والكتاب من تأليف إسرائيل ولفنسون، ومجموعة من المقالات عن الإمام محمد عبده كتبها بالعديد من الجرائد والمجلات ومن بينها جريدة السياسة، ومجلة العروة الوثقى، ومجلة الشباب، ومجلة الراديو.

كتب عن الشيخ مصطفى عبد الرازق كثير من الباحثين والدارسين كما قلنا ومن بينهم أحمد أمين، وطه حسين، وإبراهيم مدكور، وأبو العلا عفيفى، وعثمان

أمين، ومحمد مصطفى حلمى، وتوفيق الطويل، ويحيى هويدى، وأبو الوفا التفتازانى، وسعاد على عبد الرازق، وعلى عبد الفتاح، وسعيد زايد... إلى آخر الباحثين والدارسين الذين اهتموا بفكره وآرائه، بالإضافة إلى دراسة قام بها كاتب هذه السطور ونشرت بكتاب "العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر".

إننا نجد الذين درسوا على يديه حريصين على تنبيه طلابهم إلى أهمية الكتب التى تركها لنا الشيخ مصطفى عبد الرازق والتى لا زال طلابنا يجدون فيها الفائدة، كل الفائدة. وكم كانت تلك الكتب - كما أشرنا منذ قليل - دافعة لطلاب الدراسات العليا إلى الإهتمام بجوانب كثيرة من جوانب الفكر العربى.

قلنا إن الشيخ مصطفى عبد الرازق لم يقتصر على جانب التدريس الأكاديمى بالجامعة بل قام بالكثير من أوجه النشاط الإجتماعى والسياسى. لقد تم اختياره وزيرا للأوقاف وظل يقوم بأعباء هذا المنصب لمدة ست سنوات على وجه التقريب، أى منذ عام ١٩٣٨م إلى عام ١٩٤٤م.

ولم تنقطع صلة الشيخ مصطفى عبد الرازق بالفلسفة خلال تلك الفترة التى كان فيها وزيرا أو كان فيها شيخا للأزهر. لقد كان على صلة مستمرة بطلابه من دارسى الفلسفة، مما يؤكد ريادته للفلسفة ولطلاب الفلسفة.

تم انتخابه رئيسا فخريا للجمعية الفلسفية المصرية، والتى كان لها الكثير من أوجه النشاط الفكرى والفلسفى، ومن بينها إصدار سلسلة من المؤلفات فى مجال الفلسفة وغيرها من المجالات التى تتصل بها اتصالا وثيقا، كمجال علم الإجتماع وكان يشرف على إصدار هذه السلسلة الممتازة، الدكتور على عبد الواحد وافى، شيخ علماء الإجتماع فى عالمنا العربى المعاصر. والدكتور عثمان أمين صاحب الحس الفلسفى الدقيق فى مصرنا المعاصرة وكان أولهما رئيسا للجمعية. وثانيهما سكرتيرها العام.

إن كتاب الشيخ مصطفى عبد الرازق، كتاب "فيلسوف العرب والمعلم الثانى" قد صدر ضمن مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية، وكان ذلك قبل وفاته بعامين، إذ صدر الكتاب عام ١٩٤٥م، وتوفى الشيخ كما هو معروف فى ١٥ فبراير عام ١٩٤٧م.

ونود أن نشير بإيجاز وأن نقف وقفة قصيرة عند هذا الكتاب نظرا لأهميته، بالإضافة إلى أنه يعطينا دليلا، ودليلا قويا على دقة الشيخ مصطفى فى البحث وتعمقه فى الثقافة العربية والثقافات الأجنبية، بالإضافة إلى الحس النقدى الذى يتمتع به.

وفيلسوف العرب يقصد به الكندى. لقد عرف بهذا الإسم فى عالمنا نظرا لأنه من قبيلة عربية صميمة، هى قبيلة كندة. ولعل اهتمام مصطفى عبد الرازق بدراسة الكندى قد يعد رد فعل من جانبه على نفر من المستشرقين الذين ذهبوا إلى أننا لا نجد عند العرب دروسا فلسفية ولا فلاسفة، كما يكشف عن الجانب النقدى عند الشيخ مصطفى عبد الرازق.

أما ما يقصده بالمعلم الثانى فهو الفارابى. وكم أعطانا مصطفى عبد الرازق الكثير من الدروس والآراء حول كتابات الفارابى وشخصيته.

وجدير بالذكر أن مصطفى عبد الرازق لم يدرس فى كتابه السابق ذكره، الكندى والفارابى فحسب، بل إنه يخصص فصلا للحديث عن الشاعر الحكيم المتنبى ويخصص فصلا آخر لدراسة آراء ابن الهيثم عالم الرياضيات والفلك المشهور والذى يسمى ببطليموس العرب. ويعقد فصلا لدراسة آراء ابن تيمية من خلال منظور نقدى فى بعض أبعاد دراسته.

والقارئ لكتاب مصطفى عبد الرازق والذى تناول فيه بالتحليل آراء خمسة من مفكرى وفلاسفة وشعراء العرب، يلاحظ - على الرغم من صغر حجم الكتاب نسبيا - دقة الشيخ مصطفى عبد الرازق فى التحليلات التى قام بها أثناء عرضه لهؤلاء

الذين قام بدراسة آرائهم. كما يلاحظ وضوح أسلوبه وإشراقه الأدبى. إنه لا يعرض رأيا ولا ينسب رأيا لمفكر أو شاعر إلا ويستند إلى أوثق المصادر والمراجع، وإن كنا نجد عند مصطفى عبد الرازق نوعا من المبالغة فى تقدير أهمية بعض المفكرين الذين عرض لهم ولآرائهم. وكنا ننتظر من الشيخ مصطفى عبد الرازق بيان سلبيات فكر كل مفكر إلى جانب الإيجابيات التى ركز على ذكرها.

ولكن هذا لا يمنع بوجه عام من القول بأن الشيخ مصطفى عبد الرازق كانت له رؤيته النقدية فى دراسة بعض الآراء التى قال بها هذا المفكر أو ذاك من المفكرين الذين تعرض لدراسة آرائهم التى قالوا بها.

إنه فى دراسته لآراء ابن تيمية على سبيل المثال، لا يلجأ إلى المبالغة والتهويل حول فكر هذا المفكر، إذ لا يمكن أن ننسى أن ابن تيمية بقدر ما قدم لنا من إيجابيات إلا أنه هاجم منطق اليونان وفلسفة اليونان وقد جانبه الصواب فى ذلك فيما نرى من جانبنا، وبحيث أصبح طريق ابن تيمية يمثل الطريق المغلق، الطريق المظلم إلى حد كبير وواضح.

هذا ما نقول به من جانبنا، والشيخ مصطفى عبد الرازق فى دراسته لابن تيمية وأثناء حديثه عن مكونات فكره، يذهب إلى أن العلوم الفلسفية إذا كان لها أثرها فى تفكير ابن تيمية، إلا أن تفكيره أحيانا لا يستوفى التمحيص الفلسفى. ويستدل مصطفى عبد الرازق على رأيه ببعض العبارات الموجودة فى رسالة لابن تيمية عنوانها: الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

والشئ الملاحظ بوضوح فى كتابات الشيخ مصطفى عبد الرازق، أنه من خلال كتاباته يوجهنا إلى آفاق جديدة، ويربط بين الفلسفة والأدب وذلك بحكم ثقافته الأدبية والفلسفية. كما كانت لديه القدرة فى كتاباته على عقد الكثير من أوجه المقارنات بين مفكر ومفكر. وهذه القدرة لا يمكن توافرها إلا عن طريق الإطلاع

الغزير والدراسات المقارنة، إنه على سبيل المثال فى دراسته لأفكار أبى العلاء المعرى وأفكار المتنبى، نجده يقول: لقد جمع أبو العلاء فى فلسفته بين قناعة الفارابى وتبرم المتنبى وأربى فى الشك على كل شاك. فالمعرى إذا سليل الفلسفتين. والأدب العربى فيما نعلم لم ينتج غير المتنبى وغير المعرى شاعرا فيلسوفا. ومن فضل المتنبى على الفلسفة أنه بثها فى الشعر يوم كانت تلتمس لها منفذا إلى العقول والقلوب فى تقية وفى وجل. ولعل شعر المتنبى كان من أسباب عناية الكتاب والشعراء بالدراسات الفلسفية استكمالا لفهم وطمعا فى اللحاق بذلك الشاعر الفيلسوف الذى شغلت به الألسن وسهرت فى شعره العيون.

وما يقال عن اهتمام الشيخ مصطفى عبد الرازق بعقد كثير من المقارنات بين مفكر ومفكر، أو بين مفكر وشاعر أو أديب، وذلك فى كتابه فيلسوف العرب والمعلم الثانى يمكن أن يقال أيضاً عن دراساته المتعددة لآراء بقية فلاسفة ومفكرى العرب وفى ردوده على آراء كثير من المستشرقين الأوروبين.

وهكذا نجد الشيخ مصطفى عبد الرازق بفضل حسه النقدى، دقيقا إلى حد كبير فى عرضه لآراء المفكرين الذين يعرض لهم فى كتابه عن فيلسوف العرب والمعلم الثانى.

والواقع أننا لا نجد ذلك عند مصطفى عبد الرازق فى هذا الكتاب فحسب، بل نجده فى سائر كتبه الأخرى: فله كتاب قيم صدر فى سلسلة أعلام الإسلام عام ١٩٤٥م عن الإمام الشافعى. وكان مصطفى عبد الرازق بدراسته للإمام الشافعى وفيا لهذا الإمام. وقد سبق أن أشار إلى ذلك طه حسين فى المقدمة التى كتبها لكتاب "من آثار مصطفى عبد الرازق" فهو يقول فى المقدمة: لقد جره الوفاء للشافعى رحمه الله إلى استكشاف مذهب جديد فى الفلسفة الإسلامية له خطه العظيم وأن عرف تلاميذه كيف يتعمقون وينتهون إلى غايته.

لقد ترك لنا مصطفى عبد الرازق أكثر من كتاب فى مجال الفقه ومجال الفلسفة كما سبق أن أشرنا وكلها تتميز بالدقة المنهجية والتحليل الرائع. فبالإضافة إلى كتابه عن الإمام الشافعى وكتابه عن فيلسوف العرب والمعلم الثانى وبالإضافة أيضا إلى مقالاته العديدة التى نشرها فى الجريدة والتى قام بجمعها ونشرها شقيقه على عبد الرازق تحت عنوان "من آثار مصطفى عبد الرازق وقد قدم لها الدكتور طه حسين. نقول بالإضافة إلى ذلك نجد له كتابا رائعا رغم إيجازه عنوانه: "الدين والوحى والإسلام" وأول ما يلفت نظر القارئ لهذا الكتاب غزارة علم الشيخ مصطفى عبد الرازق ودقة تحليلاته وحسه النقدى الذى يظهر فى مناقشته مناقشة يغلب عليها الدقة والموضوعية لآراء المستشرقين الذين انتهوا إلى أحكام حول أصول الدين والوحى والإسلام، رأى الشيخ مصطفى عبد الرزاق أنها تعد أحكاما خاطئة ولا تستند إلى دقة موضوعية.

ونود أن نقف وقفة قصيرة عند كتاب آخر يعد غاية فى الأهمية تركه لنا الشيخ مصطفى عبد الرازق وما زال الباحثون من الدارسين والطلاب يستفيدون منه استفادة لا حد لها، وهو كتابه "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية" إنَ هذا الكتاب الذى طبع أكثر من مرة يناقش العديد من القضايا التى ما زالت تحتل أهمية كبيرة عند الدارسين فى مجال الفلسفة الإسلامية.

إن هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٤ ينقسم إلى سبعة فصول بالإضافة إلى ملحق خاص بتاريخ علم الكلام.

لقد ناقش مصطفى عبد الرازق الكثير من الأحكام التى قال بها أنصار التفرقة بين الجنس السامى والجنس الآرى، والذين ذهبوا إلى أنه ليس فى طبيعة العرب لأنهم من الجنس السامى، التفلسف وإبداع المذاهب الفلسفية، وذلك على

العكس من الأوروبيين الذين يرجعون إلى الجنس الآرى، إنهم وحدهم أصحاب المذاهب الفلسفية.

إنّ بعض المستشرقين الذين يؤكدون على التفرقة بين الجنس السامى والجنس الآرى قد ذهبوا إلى أن فلاسفة الإسلام وقد اعتنقوا الدين الإسلامى، فإن كتابهم المقدس أى القرآن - يعوق العقل عن التفكير الحر. ومنهم من يرى أن فلاسفة الإسلام قد تأثروا بفلاسفة اليونان تأثرا كبيرا، بحيث أن فلسفتهم اليونانية مكتوبة بحروف عربية، أى أن فلسفتهم لا تخرج عما أبدعه فلاسفة اليونان من مذاهب وخاصة أرسطو وأفلوطين.

يقول رينان Renan فى كتابه عن ابن رشد والرشدية معبرا عن هذه التفرقة بين الجنس السامى والجنس الآرى: لا يمكننا أن نجد عند الجنس السامى مذاهب فلسفية، إذ أن هذا الجنس لم يترك بحثا فلسفيا خاصا به، بحيث أن الفلسفة عند الساميين ما هى إلا مجرد اقتباس وتقليد للفلسفة اليونانية.

لقد ناقش مصطفى عبد الرازق آراء الغربيين الذين أصدروا أحكاما جائرة على فلاسفة الإسلام وفلسفتهم وذلك بعد أن قام بعرض أحكامهم أولا وقد انتهى مصطفى عبد الرازق إلى رفض تلك الأحكام.

لقد فند مصطفى عبد الرازق آراء الغربيين من أمثال تنمان Tennemann وكوزان Cousin ورينان Renan ودوجا Dugat ومونك Munk وجوتييه Gauthier.

كما ناقش مصطفى عبد الرازق آراء بعض الإسلاميين الذين ميزوا بين العرب وبين غيرهم من الشعوب، ومن هؤلاء الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم والشهر ستانى فى كتابه الملل والنحل وابن خلدون فى المقدمة.

كما عرض مصطفى عبد الرازق لقضية الخلاف حول التسمية. هل نسميها فلسفة إسلامية أم فلسفة عربية. وواضح من عنوان كتابه: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية أنه يفضل تسميتها فلسفة إسلامية نظرا لتأثر متكلمى وفلاسفة وصوفية الإسلام بالتراث الدينى الإسلامى.

والواقع أن كتاب مصطفى عبد الرازق رغم ما يغلب عليه من دفاع مستمر عن الفلسفة الإسلامية، يعد ثريا بالمناقشات الفلسفية. إنه يتحدث من خلال فصول الكتاب العديدة عن تعريف الفلسفة وتقسيمها عند الإسلاميين. كما يتحدث عن بداية التفكير الفلسفى الإسلامى، وعن النظريات المختلفة فى الفقه الإسلامى وتاريخه، وعن القياس والإجتهاد والرأى. كما نجده يحلل فى دقة كبيرة تاريخ علم الكلام وتعريفه ويتحدث عن العقائد الإيمانية فى عهد الرسول (ص) وعهد الخلفاء الراشدين وعهد الأمويين وعهد العباسيين.

هذا يدلنا على الجهد الكبير الذى قام به الشيخ مصطفى عبد الرازق، ذلك الجهد الذى يتبين لنا تماما من خلال كل صفحات هذا الكتاب والمراجع الدقيقة التى رجع إليها حتى أصبح كتابه هذا لا غنى عنه للمشتغلين بالفكر الفلسفى الإسلامى حتى أيامنا المعاصرة رغم أنه صدر منذ أكثر من نصف قرن من الزمان ولم يقتصر مجهود الشيخ مصطفى عبد الرازق على مجال التأليف فحسب، بل امتد إلى مجال الترجمة. لقد ترجم بالإشتراك مع برنار ميشيل رسالة للشيخ محمد عبده.

والواقع أن المجالات التى بحث فيها الشيخ مصطفى عبد الرازق تعد مجالات عديدة إننا نجد له بعض المقالات التى نشرت فى "الجريدة" لها طابعها السياسى إذ نجد فيها دعوة إلى الحرية والسلام، ولها أيضا طابعها الإجتماعى كبيان أثر الإيمان فى تقدم الشعوب ونهضتها. ونجد له أيضاً بعض المقالات التى لها طابعها الأدبى. وقد أشاد الأب جورج شحاتة قنواتى فى مقالة له عن الشيخ مصطفى عبد

الرازق، بأسلوبه الأدبى، وأشار إلى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق قد بحث فى أشد الموضوعات صعوبة وجفافا بأسلوب رائع يعد خاليا من الزخرفة، كما كان قادرا على تحليل المشاعر تحليلا دقيقا أخاذا ومعبرا عن آمال الشعب.

إنّ الباحثين فى المجالات الفكرية والأدبية سواء فى مصر أو غيرها من بلدان وطننا العربى، لا يمكنهم نسيان الجهد الكبير الذى قام به الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجال التأليف سواء عن طريق الكتب أو المقالات، أو مجال تشجيع طلابه وتقديمهم للقراء عن طريق تقديمه لكتاب أو بحث يقوم به أحد طلابه ورعايتهم خير رعاية. فهو على سبيل المثال يكتب مقدمة عن الدكتور توفيق الطويل وعن كتابه "الأحلام" لأن الشيخ مصطفى عبد الرازق كان مشرفا على هذا الكتاب أو البحث. وفى المقدمة دروس عديدة يجب أن يستفيد بها شباب اليوم استمع إليه يقول: "عنى الأستاذ توفيق الطويل بالبحث فى موضوع الرؤيا وفكر فيه طويلا وقرأ فيه كثيرا وهداه البحث إلى ترجيح الرأى القائل بأن الرؤيا ليست وحيا إلهيا... وهذه الدراسة التى يسميها المؤلف – تواضعا – محاولة، هى ناجحة كل النجاح ولا خوف عليها من الإخفاق فى إغراء الباحثين وهى ناجحة فوق ذلك نجاحا عظيما فى ضم معارف ومذاهب فى شأن الرؤيا وما يتصل بها، لم يجمعها من قبل كتاب عربى".

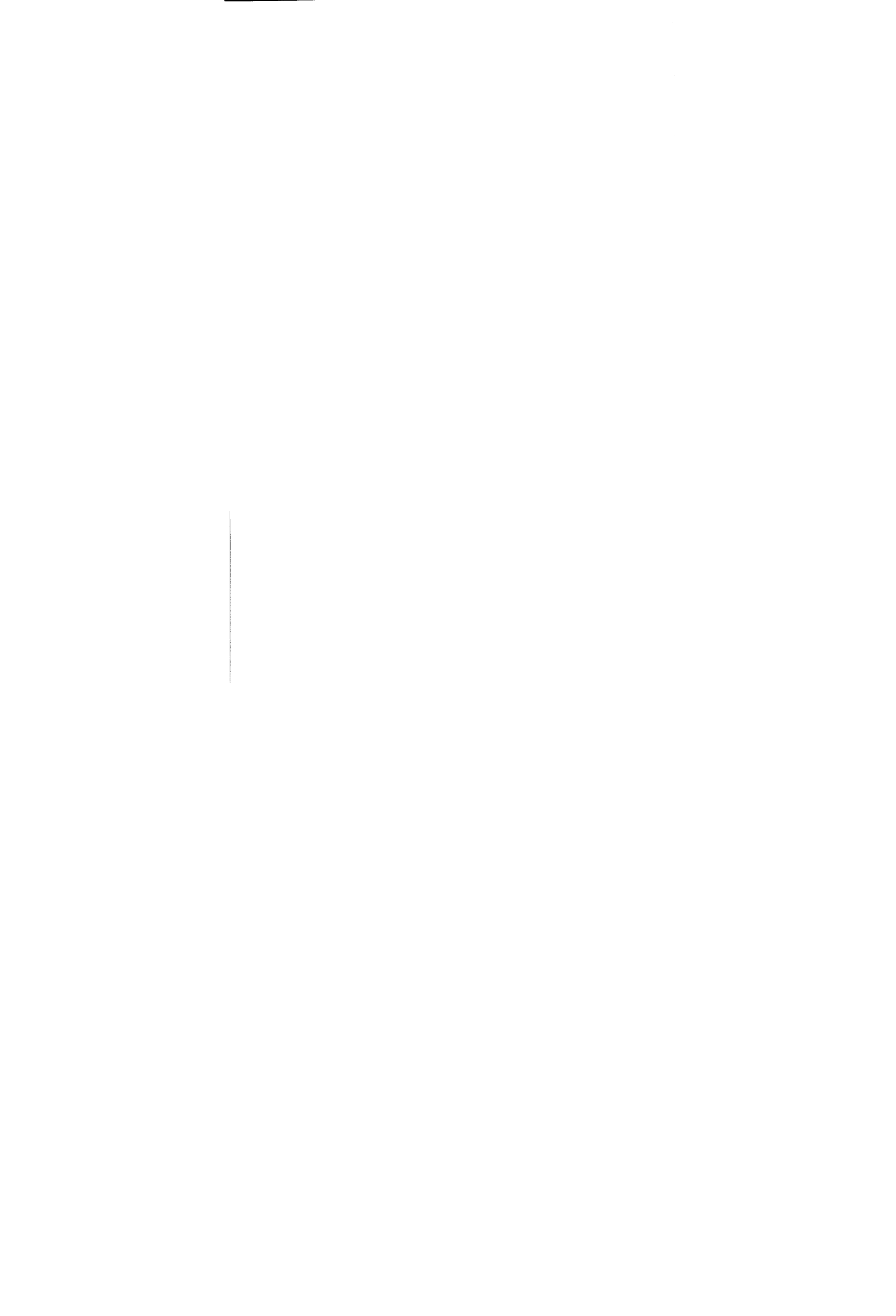
هذا ما يقوله الشيخ مصطفى عبد الرازق لتعريف القراء بواحد من نوابغ تلاميذه ولا شك أن رعاية المشرف والأستاذ لطلابه أمر يستحق منا التقدير كل التقدير فإذا أضفنا إلى ذلك مجهودات الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مجال التأليف كما سبق أن أشرنا إلى مجال الترجمة، ودوره الإجتماعى كمصلح، فإن ذلك كله يؤدى بنا إلى القول بأنه واجب علينا جميعا الإحتفال بذكراه حتى يعرف شباب اليوم مقدار الجهد الذى كان يقوم به أساتذتهم وروادهم فى الماضى القريب والبعيد معا.

إن الرجل إذا كان قد رحل عنا إلى عالم الخلود، فإنه باق بتراثه الفكرى والفلسفى وما أعظمه. باق بدوره فى مجال الإصلاح الإجتماعى الرائد. وإذا كنا نختلف مع الرجل حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، فإن هذا الإختلاف فى حد ذاته يعد دليلا على أهمية آرائه، يعد دليلا على الفلسفة والتفلسف. لقد استحق مصطفى عبد الرازق أن يدخل تاريخ فكرنا العربى المعاصر من أوسع أبوابه وأرحبها.

من حقنا إذن أن نفخر بالرجل، ومن واجبنا أن ندرس أفكاره ونقدر الجهد الذى قام به. لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور وقدم لنا مثالا يحتذى إلى حد كبير.

ونقول ونكرر القول بأن مثقفى الأمة العربية يشعرون بالسعادة اليوم حين يجدون المجلس الأعلى للثقافة حريصا على إحياء ذكرى الرجل ونشر الكثير من تراثه الذى تركه بين أيدينا.

والله هو الموفق للسداد،،



الفصل التاسع

طه حسين: كتابان من كتبه، وكتاب عنه برؤية نقدية

أولاً – كتاب من بعيد

ثانياً – كتاب فى الشعر الجاهلى

ثالثاً – طه حسين وزوال المجتمع التقليدى – تأليف د. عبد العزيز شرف

أولاً

طه حسين: كتاب "من بعيد"



طه حسين[1]

كتاب من بعيد

قدم لنا طه حسين رؤية حضارية فلسفية من خلال العديد من الكتب التى تركها لنا، ومن المعارك الفكرية التى خاضها فى شجاعة منقطعة النظير، لقد كان مدافعا عن النور باستمرار ولم يكن من المتعاطفين مع حياة الظلام والجهل والتقليد والرجوع إلى الوراء. درس دراسة دقيقة مستقبل الثقافة فى مصر، ونقد مناهج التعليم التقليدية.

لقد وقف طه حسين على قمة عصر النور فى عالمنا العربى المعاصر، وقد أثار الكثير من المعارك الفكرية والتى تدور أكثرها حول قضية التنوير، لقد أثار الكثير من هذه المعارك وإننا نجد لديه حسا نقدياً بارزاً فى كتاباته. قام بنقد مناهج التعليم وخاصة التعليم الأزهرى ورأى أنها تقف عقبة فى سبيل التنوير والإنطلاق إلى الحرية والتقدم.

حارب طه حسين وخاصة فى كتابه الهام (من بعيد) الخلط بين الدين والعلم كما سنرى بعد قليل وذلك حين نقد نقدا عنيفا اتجاه من يحاولون استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية وبين لنا أن النظريات العلمية تتغير باستمرار، فكيف إذن نؤيد نظرية علمية عن طريق القول بأننا نجدها فى الآيات القرآنية.

ولابد من القول بأن طه حسين كان متأثرا بالفكر الغربى، وخاصة الشك الديكارتى. لقد كان هذا متوقعا من جانبه إنه درس بفرنسا ورأى التقدم الأوروبى والنهضة الأوروبية وآمن بالتنوير فى أوروبا، واعتقد أنه من الضرورى القيام بحركة تنوير تتمثل فى الإستفادة من الفكر الأوروبى، والإعتماد على المنجزات العلمية

[1] راجع ما كتبناه عن طه حسين فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى معاصر

والحضارية فى أوروبا، ومن هنا يمكن اعتباره فى طليعة المفكرين المصريين المعاصرين الذين آمنوا بأنه لا مفر من فتح الأبواب والنوافذ على الحضارة الأوروبية.

لقد ترك لنا طه حسين كما قلنا العديد من الكتب وآثار العديد من المعارك الفكرية البالغة الأهمية وكان من خلال المناصب التى تولاها وخاصة عمله بالجامعة كعميد لكلية الآداب، وتوليه وزارة المعارف العمومية، مفكراً مؤمناً بوطنه وبأهمية الفكر العقلانى العلمى المستنير، وبحيث يمكن القول من جانبنا بأننا لا نتصور مصر المعاصرة فكريا بدون هذا العملاق، طه حسين والذى كانت حياته مثالا يحتذى، مثالا للقدوة كما ينبغى أن تكون . لقد فعل معتمدا على نفسه ما أدى به إلى أن يكون طه حسين: طفل كفيف أثارت آراؤه العالم العربى كله من مشرقه إلى مغربه، كفاح من النادر أن نجد له مثيلا بين المفكرين العرب المعاصرين، ونكاد لا نجد مفكراً عربياً جاء بعد طه حسين، إلا وتأثر بآرائه وبأفكاره وبمنهجه، وسواء اتفق معه أو اختلف حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها. فكتابه "الأيام" يعد مثالاً يحتذى فى أدب السيرة الذاتية، وكتبه ومقالاته العديدة عن الشعراء العرب وخاصة أبى العلاء المعرى والمتنبى، تعد غاية فى الدقة وعمق التحليل، لأنه أضاف إلى البعد الموضوعى فى دراساته بعداً ذاتياً نقدياً يدلنا على شخصية متميزة له وهكذا إلى مئات الأفكار والدراسات التى تركها لنا. إنها أفكار تدعونا إلى أن نتوقف عندها طويلاً ونأخذ فى دراستها دراسة متأنية وما أحوجنا اليوم ونحن نتحدث عن التنوير، أن نتأمل فى أفكار رائدنا طه حسين والذى دخل تاريخنا الفكرى من أوسع الأبواب وأرحبها، إنه يعد رمزاً وضاء من رموز ثقافتنا فواجب علينا إذن الإحتفال به فى كل وقت وكل آن حتى نحارب عن طريق أفكاره جيوش الظلام والتقليد واللامعقول، تلك الجيوش التى تعبر فى أفكارها عن تخلف عقلى وصعود إلى الهاوية.

نعم لا يخالجني الشك لحظة واحدة في أن مفكرنا طه حسين يقف على قمة عصر التنوير في فكرنا العربي المعاصر. فإذا كنا نجد بعض المفكرين الذين وجدوا بعد طه حسين وكانوا من دعاة التنوير، فإن هؤلاء المفكرين قد استفادوا من طه حسين من قريب أو من بعيد، وبطريقة مباشرة تارة، وغير مباشرة تارة أخرى. إنه إذن يقف على قمة عصر التنوير في فكرنا العربي، ولما لا؟ وهو الرائد وهو المعلم هو الأستاذ الذي خاض العديد من المعارك التي كان القصد منها إعلان الحرب على الظلام، وتبديد أفكار التقليد، وفتح كل النوافذ على أفكار النور والتنوير.

ويمكننا القول كما سبق أن أشرنا أن مفكرنا طه حسين إنما يثير مجموعة من القضايا الهامة وخاصة في كتابه "من بعيد" ومن بينها كما سنرى قضية العلم والدين. وقضية الأصالة والمعاصرة، وقضية الدفاع عن المنجزات الغربية الأوروبية. ولا يخلو حديثه من نزعة شكية قد يكون مستفيدا إياها من الفيلسوف الفرنسي ديكارت ومن روح عصر النهضة الأوروبية أيضاً.

لقد كان طه حسين مدافعا عن التنوير وداعيا إليه كان مدافعا عن الفنون الجميلة والآداب الراقية، لقد ظهر في كل فصل من فصول كتابه الهام "من بعيد" حتى وهو يتحدث عن سارة برنار، وعن الآداب الكلاسيكية القديمة. وما أحوجنا الآن إلى الإستفادة من ثقافة النور التي دعا إليها العملاق طه حسين. وهو ينتقل من حديثه عن سارة برنار إلى حديثه عن الآداب والفنون اليونانية القديمة.

وكلنا نعلم دفاع طه حسين عن الآداب اليونانية واللاتينية القديمة. إننا إذا ميزنا بين ما سميه أدب التعبير، وما نطلق عليه أدب التفسير، فيقيني أن أدب طه حسين يدخل إلى حد كبير في نطاق أدب التفسير. أدب التعبير القصد به أساساً إحداث لذة في النفس والوجدان، كما نجد ذلك في شعر البحتري على سبيل المثال. إنه كاللؤلؤة التي يعد جمالها في ذاتها.

أما أدب التفسير فإنه يتخطى ذاته، وبحيث يحاول التصدى للعديد من المشكلات الفكرية والإجتماعية، ويقدم حلولا لها. كما نجد ذلك فى أشعار المتنبى وأبى العلاء المعرى وابن الرومى إننا نجد لديهم رؤية معينة محددة. إن أدب التفسير كالماسة التى تضيئ ما حولها.

وكم حاول طه حسين التصدى لعلاج العديد من المشكلات من خلال قصصه ورواياته وكتبه. وهل يمكن أن ننسى قوله بأن الثقافة تعد إنسانية ووطنية معا. وأن كل شئ يتقدم فى مصر ما عدا التعليم وأن مسئولية الدولة حماية جسم وعقل الصبى، وأن علاج البطالة يكون عن طريق التعلم.

إننا لا نعدم وجود العديد من الإتجاهات الفلسفية عنده وفى الكثير فى كتبه كالأيام، وفى رواياته أيضا كرواية أديب، وقصة دعاء الكروان وغيرها فى كتب لا حصر لها.

إن مفكرنا طه حسين تحتاج دراسة أفكاره إلى العديد من الكتب والمقالات حتى نستطيع سبر أغوار تلك الأفكار التى قال بها وتمسك بها دواما وحارب من أجلها. وكم أسأنا إلى طه حسين بصور عديدة من الإساءة. لم نفهم أكثر أفكاره كما ينبغى أن يكون الفهم. قمنا بتزييف أفكاره عن طريق تأويلها تأويلا خاطئاً سيئاً. وقف بعضنا من طه حسين موقف المؤيد تماما لكل فكرة قال بها. ولم يكلف هذا الفريق نفسه التأمل بعمق فى أفكار طه حسين وبحيث ينتهى بعد دراستها من الإتفاق معه تارة والإختلاف معه تارة أخرى، إذ أن طه حسين يعد مفكراً قد يصيب تارة وقد يخطئ تارة أخرى. إنه فرد من أفراد البشر ولم يكن من القديسين.

ووقف بعضنا الآخر من طه حسين، موقف المعارض والمهاجم لاتجاهاته وآرائه. فإذا دعا إلى النور، فإننا نراهم يتمسكون بالظلام ويفضلونه على النور لأنهم كالخفافيش التى تؤثر الظلام. وإذا دعا إلى التجديد، فإنهم ينادون بالتقليد والفكر

الرجعى وبئس المصير. وإذا أيقظنا طه حسين من سباتنا العميق، فإننا نراهم يفضلون حياة النوم والكسل والخمول.

نجد فريقين إذن إزاء فكر طـه حسين موقف المؤيدين تماماً، وموقف المعارضين لمنهجه وأفكاره قلباً وقالباً. ويقينى أن كل فريق من الفريقين قد جانبه الصواب لأنه لم يكلف نفسه الإلتزام بالمنهج فى الدراسة كما ينبغى أن يكون المنهج. وغلب على دراسات الفريقين الإتجاه الخطابى البلاغى لا الإتجاه النقدى والموضوعى.

إننا إذ كنا نعيش فى هذه الأيام فى ذكرى مرور قرن من الزمان على مولد مفكرنا الخالد طه حسين، فما أحوجنا إذن إلى أن نعيد قراءة فكر العملاق طه حسين وأن نقوم بدراسته دراسة موضوعية أمينة وبحيث نبتعد عن محاولات أشباه الدارسين والذين قدموا لنا مئات الدراسات الزائفة عن طه حسين،. الدراسات التى تعد جهلا على جهل ولكن أكثرهم لا يعلمون.

ونود فى هذه المقالة التى نكتبها احتفالا بذكرى الأستاذ والرائد والمعلم طه حسين أن ندرس أبرز أفكار الرجل من خلال كتاب من كتبه، إنه كتاب "من بعيد" ذلك الكتاب الذى نرى أنه يحتل أهمية كبرى بين مؤلفات طه حسين. ونحن للأسف الشديد لم نوجه اهتمامنا إلى هذا الكتاب وما فيه من أفكار غاية فى الجرأة والعمق والثراء. ولا أدرى لماذا لم يستفد منه الدارسون لفكر طه حسين، ومنهج طه حسين. صحيح أننا قد نتفق تارة مع طه حسين من خلال أفكار هذا الكتاب، وقد نختلف تارة أخرى، إلا أن هذا كله إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على عظمة الرجل وعلى عمق أفكاره التى نجدها بين ثنايا صفحات هذا الكتاب.

ونرجو أن تكون مقالتنا والتى تركز على هذا الكتاب بصفة جوهرية، دافعة للدارسين مستقبلاً إلى دراسة أفكار هذا الكتاب وما أعظمها من أفكار أرجو أن تكون

دافعة للمهتمين بتراث طه حسين إلى إعادة النظر فى العديد من الأحكام المتسرعة التى توصلوا إليها حول فكر هذا الرجل. إن هذا الكتاب، كتاب "من بعيد" لا يمكن تجاهله، وبحيث يمكننا القول بأنه لا غنى عنه فى دراسة أفكار طه حسين من قريب أو من بعيد.

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة وخمسة أقسام، كل قسم منها يحتوى على العديد من الأفكار التى تكشف عن عمق الرجل وثراء اتجاهه.

إننا نراه كما سبق أن أشرنا يبحث فى العديد من القضايا التى تعد غاية فى الأهمية حتى عصرنا الحالى.

وعلى الرغم من أننا نجد بعض الجوانب فى هذا الكتاب، والتى قد تبدو مفككة، أى لا رابطة بين كل جانب والجانب الآخر، إلا أننا سنبين أن هذه الجوانب كلها وإلى حد كبير، إنما تربطها وحدة عضوية ساعد طه حسين على تحقيقها، منهجه النقدى التحليلى العقلى. إننا نجد أفكاره صادرة عن إيمانه بهذا المنهج الذى ارتضاه لنفسه. فلن تجد أيها القارئ العزيز دفاعا من طه حسين عن آراء لا عقلانية لن تجد فكرا مغلقا تقليديا متزمتا، ولكن ستجد فكرا متفتحا، فكرا يقوم على العقل وعلى الحس النقدى. ويقينى أن ذلك كله سيؤدى إلى التوصل إلى الرباط الذى يجمعها. إنه رباط التنوير. الرباط الحضارى.

ويبين لنا طه حسين من خلال مقدمته لهذا الكتاب أن الفصول أو الأقسام التى تضمنها الكتاب قد كتبت من بعيد فى المكان وكتبت من بعيد فى الزمان أيضا فأقدم الفصول كتبت عام ١٩٢٣م وأحدثها كتبت عام ١٩٣٠م. كما أن أكثرها كتب من باريس وبعضها كتب من أقصى الغرب الفرنسى وبعضها كتب من فينا وقليل جدا منها كتب فى القاهرة (ص ٣ من الكتاب).

ويخاطب طه حسين القارئ قائلا: ولست أخفى عليك أنى قد قرأت هذه الفصول التى كتبت كلها أثناء ثمانية أعوام ومضى بينى وبين أخرها أكثر من خمسة أعوام فى شئ من الحنان إلى تلك العهود التى كنا نشكو فيها المشقة والجهد ونضيق فيها بالحياة والأحياء، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود إلينا أو لو نعود إليها لا ليعود إلينا معها الشباب بل لتعود إلينا معها حياة هى من غير شك خير من الحياة التى نحياها الآن. كنا فى تلك العهود أحرارا نفكر ونقول، كما نريد أن نفكر ونقول، وكنا نلقى ألوانا من المقاومة فلا تزيدنا إلا طموحا إلى الحرية وإمعانا فيها. وكنا ننظر إلى الجهاد فى سبيل الرأى وحرية الرأى على أنه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر، فأين نحن من هذا الآن؟ (ص ٥).

هذا ما يقول به طه حسين فى مقدمته للكتاب. ومن الواضح أنه يقارن بين عصر وعصر، بين فترة وأخرى وهو يركز باستمرار على حرية الرأى والجهاد فى سبيل الحرية لأنه يدرك تماما أن إغلاق باب الحرية سيؤدى إلى قتل الآراء الحرة وبالتالى سيؤدى إلى وجود الأفكار الزائفة، الأفكار الرجعية التقليدية.

وحين يصف طه حسين رحلته فى البحر إلى فرنسا، نجده يتحدث فى عبارات أدبية سامية قد لا يقدر عليها إلا طه حسين، عن عديد من الأحاسيس والمشاعر الوجدانية وهو يشير أحيانا إلى زوجته (زوج برة كريمة) وطفليه (هما كل أملى فى الحياة) وليت طه حسين قد عاش بيننا إلى اليوم حتى يدرك أبعاد مسلسل قتل الزوجات للأزواج بكل عنف وقسوة ووحشية.

ونظرا لأن طه حسين لم يكن مجرد أديب، بل كان أديبا مفكرا، أديبا تشغله العديد من القضايا الثقافية والهموم الفكرية، فإننا نجده يثير العديد من القضايا، وخاصة حين اضطراب البحر ذات ليلة اضطرابا شديدا فاصطخبت أمواجه وعصفت الريح (ص ١٤).

عندئذ فإنه على سبيل المثال يطرح على نفسه العديد من الأسئلة، ويثير العديد من القضايا التى تتعلق بقضية الإيمان والإلحاد، وقضية العلم والدين وما يرتبط بها من قضايا نثيرها حتى الآن حول الأصالة والمعاصرة.

لقد أدرك طه بتأمله حين سير السفينة فى البحر أن الإنسان ليس شيئا مذكورا ما دامت الطبيعية على ما هى عليه من القوة والجلال. كما أدرك طه حسين أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الإنسان فى تقدير نفسه وإكبار منزلتها يقول طه حسين إن المؤمن الذى يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة،فيعنى به ويحوطه ويحفظه من الطوارئ ويعصمه من الأحداث ويرعاه فى كل لحظة، بل فى كل جزء من أجزاء اللحظة، متكبر يرى نفسه شيئا مذكورا يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن فى هذا الكون ما لا يقاس الإنسان إليه عظمة وجلالا (كتاب من بعيد ص ١٦).

والملحد أيضا حين يعاند وينازع ويدافع عن إلحاده وينكر الله كما يثبته المؤمن يعد مغرورا متكبرا يقول طه حسين (من بعيد ص ١٧) أعترف بأنى لم ألم المؤمن على إيمانه ولا الملحد على إلحاده.. وتمنيت لوأتيح للإنسان أن يكون مؤمنا وعالما دون أن يغلو فى التعصب للدين أو للعلم.. فإن قوة الدين تعصمه من اليأس وتفتح أمامه أبوابا من الأمل الذى ليس له حد.. وقوة العلم تمكنه من الحياة.

ويمكننا القول بأن مفكرنا طه حسين إنما يثير مجموعة من القضايا الهامة فى حديثه هذا من بينها قضية العلم والدين، وقضية الأصالة والمعاصرة، وقضية الدفاع عن المنجزات الغربية والأوروبية. ولا يخلو حديثه من نزعة شكية قد يكون مستفيدا إياها من الفيلسوف الفرنسى ديكارت، ومن روح عصر النهضة الأوروبية أيضا.

لقد كان طه حسين مدافعا عن التنوير وداعيا إليه. كان مدافعا عن الفنون الجميلة والآداب الراقية. لقد ظهر ذلك فى كل فصل من فصول كتابه الهام "من

بعيد" حتى وهو يتحدث عن سارة برنار، وعن الآداب الكلاسيكية القديمة. وما أحوجنا الآن إلى الإستفادة من ثقافة النور التى دعا إليها العملاق طه حسين استمع إليه أيها القارئ العزيز وهو يتحدث عن جوانب نبوغ سارة برنار، وحين يقول: "لهذا فتن الفرنسيون بهذه الممثلة التى كانت أحسن سفير نشر الدعوة الفرنسية فى أقطار الأرض. وأحسن تمثيل العقل الفرنسى والفن الفرنسى والأدب الفرنسى، حتى قرنها كثير من الكتاب إلى نابليون، ولست أدرى إلى أى حد تصح هذه المقارنة، ولكنى لا أشك فى أن سارة برنار خدمت فرنسا ورفعت ذكرها إلى حد لم يبلغه كثير من قوادها الفاتحين". (من بعيد ص ٢٩ – ٣٠)

وهو ينتقل فى حديثه عن سارة برنار إلى حديثه عن الآداب والفنون اليونانية القديمة وكلنا نعلم دفاع طه حسين عن الآداب اليونانية واللاتينية القديمة إنه يقول: "إننى أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليونانى سيئ الحظ فى مصر، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة إلى حيث لا نستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة، نجهل الأدب اليونانى – لا أقول جهلا تاما – بل أقول جهلاً فاحشاً مخزياً لا يليق بقوم يحبون الحياة أو يطمعون فيها. نجهل هذا الأدب جهلاً فاحشاً بحيث نستطيع أن نحصى عدد المصريين الذين يعلمون ما "الأوديسا" وما "الإلياذة" ومن "أوليس" ومن "بينيلوب"، ومع ذلك فقد كانت الأوديسا والإلياذة وما زالتا وستظلان دائما ينبوع الحياة للأدب والفن، للشعر والنثر والنحت والتصوير والتمثيل والموسيقا، بليت القرون ولم تبل "الإلياذة" و"الأودسا". فنيت الأمة اليونانية وفنيت الأمة الرومانية واختلفت العصور والظروف على أوروبا فى العصر الوسيط وفى العصر الحديث، وستفنى أمم وتختلف عصور وظروف وتظل آيات "الإلياذة" و"الأوديسا" جديدة خالدة محتفظة بقوتها وبهائها ورونقها على وجه الدهر وتعاقب الأحداث، ولا نكاد

نحن نفترض وجود "الإلياذة" و"الأوديسا" فإذا افترضنا وجودهما فلا نكاد نعلم بشئ مما فيهما. (من بعيد ص ٣٦ – ٣٧)

ولعلنا ندرك إذن كيف كان طه حسين عن طريق هذه الفكرة وغيرها من مئات الأفكار التى يزخر بها كتابه الرائع "من بعيد" مدافعا عن الإستفادة من آداب الأمم الأخرى وفكرها الحى المتجدد. إن قارئ اليوم سوف يشعر بالحسرة والأسى حين يقارن بين الأفكار الحية الخلاقة التى يدعو إليها مفكرنا طه حسين، والأفكار التقليدية الرجعية الميتة التى يقوم بها أناس تحسبهم من الآدميين وما هم بآدميين، بل هم أقرب إلى عالم الحيوانات وبئس المصير. أناس يشنون حملات على ألف ليلة وليلة. أناس يهاجمون الفكر الوجودى ولم يقرأوا عنه حرفا. أناس ينادون بتحريم الفنون ومن بينها الموسيقا والغناء ويريدون أن تحول حياتنا إلى جحيم وظلام. إن دعوتهم هذه تعد جهلا على جهل ولا يدعو إلى الظلام إلا الأشباه والأقزام ومن هم على درجة كبيرة من التخلف العقلى والفقر الشديد فى الذكاء. نعم لقد صدق طه حسين حين قال: يظهر أننا سنظل على ما نحن فيه من جهل بالأدب اليونانى والفن اليونانى، لأننا نرى كل شئ يتغير فى مصر، ونرى الرقى تناول كل شئ إلا التعليم، فهو بحمد الله باق حيث كان، لأن المشرفين عليه لا يفكرون فى تغييره ولعلهم غير قادرين على أن يفكروا فى تغييره وسيظل تلاميذنا يخلطون بين أثينا وصقلية كما يخلطون بين الإسكندر وهانيبال. (من بعيد ص ٣٧).

وإذا كان طه حسين قد استفاد – كما أشرنا منذ قليل – من الروح الشكية عند ديكارت وفى عصر النهضة أيضاً. إذا كان طه حسين قد تمتع بحس نقدى قل أن نجد له نظيرا عند مفكرى عصره فى بلداننا العربية. وإذا كان قد ربط بين هذه الجوانب وبين دعوته إلى التنوير، فإن هذا يتضح تماما فى أكثر الموضوعات التى بحث فيها بين ثنايا كتابه "من بعيد" إنه صاحب نزعة شكية ولكنها تسعى إلى البناء

وليس الهدم. إنه صاحب اتجاه نقدى يقيم عليه أفكاره ثم ينطلق من النقد إلى البناء الموضوعى وبحيث لا يكون نقده مجرد نقد لا فائدة من ورائه. إنه يقدم الحلول والإيجابيات. لقد ظهرت هذه الإتجاهات التنويرية المتفتحة حين تحدث عن الشك واليقين (ص ٤٧)، وحين بحث فى العلم والثروة (ص ٥٣)، وحين حلل ما دار فى مؤتمر العلوم التاريخية الذى عقد ببلجيكا فى عام من الأعوام (ص ٦٢) وحين كشف لنا جوانب قضية العلم والدين، (ص ٢٠٤) وهكذا إلى أخر الموضوعات والقضايا التى نخرج بعد قراءتنا لها، إلى القول بأن طه حسين قد دخل تاريخ التنوير فى فكرنا العربى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها.

وإذا كنا نتحدث عن نزعة تنويرية وجدت قديما فى فكرنا العربى عند أمثال إخوان الصفا وابن رشد، فإننا نجد فى فكرنا المعاصر نزعة تنويرية قد يكون أبرز دعاتها والحاملين للوائها مفكرنا العملاق طه حسين.

إنه فى حديثه - على سبيل المثال - عن موضوع الشك واليقين يثير قضية على جانب كبير من الخطورة والأهمية وما زلنا نجدها تتردد بيننا الآن، وهى القضية الخاصة باستخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية. ونود أن نشير من جانبنا إلى أنه من الأخطاء الشنيعة التى يقع فيها بعضنا، محاولة استخراج النظريات العلمية الحديثة من الآيات القرآنية. وأكبر ضرر على الدين، تلك المحاولة، بل أقول إن من يحاولون هذه المحاولة يباعدون بيننا وبين الدين فى حقيقته وجوهره. ولم يذكر الله تعالى أن القرآن كتاب طبيعة أو كيمياء أو فلك. من أخطر الأشياء إذن أن نقوم بتلك المحاولة التى تلحق الثابت (القرآن الكريم)، بالمتغير أو المتحول (العلم) فإذا قال بعضنا بأن نظرية كذا وردت فى القرآن الكريم نعرف بتطور النظريات العلمية وتغيرها، ونجد فى عالمنا العربى فريقين فريق يقوم بتلك المحاولة التى أعتبرها من جانبى خاطئة تماماً قلباً وقالباً، أى محاولة استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية.

وممن يمثلون هذا الفريق الشيخ محمد بخيت والشيخ محمد عبده. وفريق آخر أحسب أن رأيه هو الرأى الصواب وأتمسك به وأدافع عنه، وهذا الفريق يسخر من محاولة الفريق الأول ويبين لنا أوجه قصورها وتهافتها ومفكرنا طه حسين على رأس هذا الفريق. إنه خلال حديثه عن موضوع الشك واليقين فى كتابه "من بعيد" يبين لنا فساد هذه المحاولة من أساسها. يكشف لنا عن الحجج الفاسدة التى يقول بها أنصار الفريق الأول ونحن حتى هذه الأيام ورغم مرور أكثر من خمسة وستين عاما على ما كتبه طه حسين محذراً لنا من أخطار محاولة استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية، وربطها بالقرآن الكريم، أقول رغم أن طه حسين كتب فى هذا الموضوع أثناء إقامته بفرنسا وعلى وجه التحديد فى ٢٧ إبريل عام ١٩٢٣م، إلا أننا لم نستفد من أقواله فى هذا المجال وما زال البعض منا يضرب عرض الحائط بأفكار بناءة قال بها طه حسين فى هذه القضية أفكار تنطلق من إيمانه بتنزيه الآيات القرآنية وبحيث لا تكون مجالا لتغير النظريات العلمية إنه يحدثنا عن عالم اسمه (نورمان) ألف كتابا سماه "مملكة السموات" وقد ذهب فيه إلى أنه من المستحيل أن نثبت بطريقة علمية قاطعة أن الأرض تدور، وأن دوران الأرض شئ ليس إلى إثباته أو نفيه من سبيل.

ويربط طه حسين فى ذكاء شديد بين موضوع هذا الكتاب، وبين آراء الشيخ محمد بخيت والشيخ محمد عبده حول موضوع استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية. إنه يذكر لنا كيف كان يقرأ فى أعداد "السياسة" الأخيرة، محاضرة للشيخ بخيت فى رده على رينان E. Renan وذلك ليثبت أن القرآن الكريم لا يناقض بلفظه ولا بمعناه أصلا من أصول العلم الحديث، بل هو يشتمل على أصول العلم الحديث، كما أن الشيخ بخيت يستنبط من القرآن الكريم كروية الأرض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار. وهذه

المحاولة من جانب الشيخ بخيت – فيما يذكر طه حسين – مصدرها البر والتقوى، وكيف أن طه حسين – فيما يبين لنا – قد قرأ قبل ذلك أشياء كثيرة للإمام محمد عبده حول هذا الموضوع، وكيف أن الناس فى مصر وفى الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولة، لأنها تظهرهم فى منزلة من الحضارة ليست أقل ولا أدنى من منزلة الأوروبيين الذين اخترعوا العلم الحديث.

وواضح أن طه حسين – كما سبق أن أشرنا – يتحدث فى سخرية عن محاولات أمثال الشيخ بخيت والشيخ محمد عبده، ويرى أن هذه المحاولات لا تخدم الدين، بل تسئ إليه، إذ كيف نلحق الآيات القرآنية المنزلة، بنظام النظريات العلمية التى تتغير ويتم إجراء الكثير من التعديلات والتطويرات عليها. ولا نود من جانبنا أن نخوض فى تفصيلات هذا الموضوع، فقد سبق لنا الكشف عن الأخطاء الشنيعة فى محاولات الشيخ محمد عبده (راجع تصديرنا لكتاب الإسلام دين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده).

ويقول طه حسين فى عبارة بالغة الأهمية (ص ٥١ – ٥٢ من كتابه "من بعيد"): أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التى تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة والتى تنشأ عما نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس؟ أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية فى حصن مقدس منيع لا تصل إليه أبخرة العدس والفول والزيت والطعمية وغير ذلك مما نأكل لنهضمه مرة ولا نهضمه مرة أخرى، وينشأ عن سهولة الهضم وعسره حسن تفكيرنا أو سوءه، اللهم إنى أعتقد أن الأرض قد تدور وقد لا تدور، وأنها قد تكون كرة أو سطحا أو كمثرى، وأن الزمان قد يوجد وقد لا يوجد، وأن المكان قد يوجد وقد لا يوجد. وان نيوتن قد يصيب وقد يخطئ، وأن أينشتين قد يحق وقد

يبطل كل هذا ممكن، ولكن هناك شيئا لا أحب أن يحتمل أوزار هذا الإمكان وهذا التناقض وهذا التردد، وهو القرآن من الكتب الدينية، إنا لنحسن الإحسان كله إذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه فماذا يرى العلماء؟

أعتقد أن هذا الإتجاه من جانب مفكرنا طه حسين يفيدنا أعظم الفائدة فى مجال الدعوة إلى التنوير وفى مجال التركيز على القيم الحضارية الكبرى والإنسانية الخالدة ولو كنا قد استفدنا من طه حسين، لما وقعنا – مثل ما وقعنا الآن – فى العديد من الأخطاء البالغة الشناعة، حين نقول بعلم اقتصاد إسلامى وعلم نفس إسلامى، وفلسفة إسلامية. فعلم الإقتصاد هو علم الإقتصاد. ولا يوجد اقتصاد إسلامى ولا اقتصاد مسيحى أو يهودى. وعلم النفس له قواعده وخصائصه ولا نجد ما يسمى علم نفس إسلامى، وعلم نفس غير إسلامى وفلسفتنا تسمى أساساً فلسفة عربية. وهكذا يجب أن نستفيد من دعوة طه حسين فى شق طريقنا الحضارى التنويرى وبحيث نلحق بركب الأمم المتحضرة المتقدمة.

والدكتور طه حسين حين يبحث فى موضوع الشك واليقين، وموضوع العلم والدين، لا يكل ولا يمل. إنه إنطلاقا من نزعته التنويرية وتقديسه لكل ما هو حضارى وإنسانى وعالمى، يدافع عن العلم، يدافع عن العقل، يكشف لنا عن أسباب الخصومة بين العلم والدين، وخاصة من الناحية التى تتصل بالسياسة. إنه يذهب إلى أن الخصومة لم تكد تنشأ بين العلم والدين أو بين العقل والدين، حتى دخلت فيها السياسة فأفسدتها وانصرفت بها عن وجهها المعقول إلى وجه آخر لم يخل من الإثم بل من الإجرام.

ويعرض علينا طه حسين العديد من النماذج والأمثلة وكيف أن أول خصومة ظاهرة بين العقل والدين هى هذه التى نشأت فى آخر القرن الخامس قبل المسيح

حين كان سقراط يحاور فى كل شئ، وكيف أن السياسة قد تدخلت فى الخصومة بين العقل والدين وبحيث قضت بالموت على سقراط.

يقول طه حسين فى كتابه "من بعيد": ومن ذلك الوقت أصبحت الخصومة بين العقل والدين، أو قل بين العلم والدين أمرا لا مندوحة عنه: يخاف الدين كل فلسفة وكل علم، ويرتاب العلم بكل دين. ومن ذلك الوقت تحدد موقف السياسة بين هذين الخصمين، وظهر أنه لن يكون موقف إصلاح بينهما، وإنما هو موقف إفساد وإحراج وإثارة للحفيظة والحقد (ص ٢٠٧).

والمتأمل فى هذه الآراء وهذه التفسيرات التى يقدمها لنا طه حسين، يدرك تمام الإدراك أن طه حسين لم يقل بها إلا انطلاقا من نزعته التنويرية التى لا تخلو من اتجاه علمانى واضح متميز ودقيق. إنه يفتح الطريق أمام المناقشة والجدل وحرية الفكر. إنه يقول: تصور بلدأ وقفت السياسة فيه موقف الحيدة المطلقة بين العلم والدين، فكفت أيدى الناس عن الناس، وأقرت الأمن فى نصابه وتركت للعلم حريته وللدين حريته، فما الذى يمكن أن يقع من العنف بين العلماء ورجال الدين؟ لا شئ إلا الخصومة الكلامية، لا شئ إلا المناقشة والجدل، ومن الذى يستطيع أن يرى شرا فى المناقشة أو الجدل؟ (ص ٢٧ من بعيد)

ويعرض علينا طه حسين العديد من الأمثلة التى تؤيد وجهة نظره، وهو يركز على مجموعة من الحوادث من بينها حادثة كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للشيخ على عبد الرازق، وكتاب "فى الشعر الجاهلى" وهو من تأليفه وطه حسين فى حديثه المستفيض عن قضية العلم والدين، يؤمن إيمانا راسخاً بكل فكر تنويرى ويهاجم الفكر الرجعى هجوما عنيفا ألم أقل لك أيها القارئ العزيز بأن طه حسين لم يكن صادرا فى كتاباته إلا عن إيمان راسخ بالحرية والمساواة. عن اعتقاد بأهمية العلم فى حياتنا، والعقل فى تفكيرنا. إن كل صفحة من صفحات كتابه "من بعيد" إنما تعد دستوراً للتنوير فى فكرنا العربى الحديث لقد كان حريصا على التمييز بين الدين من جهة، ورجال الدين الذين يستغلون الدين من جهة أخرى كان حريصا على أن يبين لنا أن خير الأمة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تمسكنا بالفكر العقلى التنويرى وكشفنا

مصائب وأهوال الفكر الرجعى التقليدى المتزمت إنه حريص على الفكر التنويرى، حريص على الدفاع عن الجوانب الحضارية الكبرى التى نجدها فى الفكر الحر العالمى. لا ينظر إلى التراث نظرة تقديس، بل إنه يدعو إلى الإنفتاح - كما وجدنا فى عصر النهضة الأوروبية - على التيارات الفكرية الأوروبية الكبرى. لم يهاجم الحضارة كما يفعل الأشباه منا فى أواخر القرن العشرين وللأسف الشديد إنه يقول فى أخر سطور بحثه عن العلم والدين والذى يمثل القسم الرابع من كتابه "من بعيد" هذا القسم الذى كتبه فى أكثر من أربعين صفحة وعاد إليه بين الحين والآخر فى مواضع متفرقة من كتابه إنه يقول إننا مضطرون إلى أن نعيش، ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة فنحن محتاجون أن ننتفع بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا، والعلم وحده سبيلنا إلى ذلك وهو سبيلنا إلى ذلك على أن ندرسه كما يدرسه الأوروبيون لا كما كان يدرسه آباؤنا منذ قرون. وويل لنا يوم نعدل عن طب باستور وكلودبرنار إلى طب ابن سينا وداود الأنطاكى. وهذا العلم الحديث الذى لا نستطيع أن نستغنى عنه لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر إلا فى جو كله حرية وتسامح فنحن بين اثنين: إما أن نؤثر الحياة وإذاً فلا مندوحة عن الحرية، وإما أن نؤثر الموت، وإذن فلنا أن نختار الجمود (ص ٢٤٦).

هذه دروس رائعة. دروس لا نتردد فى القول رغم أختلافنا مع طه حسين فى بعض الآراء التى قال بها، بأنها تعد دروساً خالدة تعد معبرة خير تعبير عن عظمة الفكر التنويرى.

إن طه حسين لم يكتب ما كتب لكى نتجاوز عنه ونلقى بأفكاره فى زوايا النسيان والإهمال، بل إنه وقد آمن بربه وآمن بوطنه، ترك لنا العديد من الدروس المستقبلية لأنه مجدد، والمجدد بذكائه الحاد لديه النظرة المستقبلية والرؤية الفلسفية.

ثانياً

طه حسين

"كتاب فى الشعر الجاهلى"

طه حسين

كتاب فى الشعر الجاهلى

قد لا أكون مبالغا فى القول إذا قلت بأننا من النادر أن نجد ردود فعل واسعة حول كتاب تم تأليفه فى مصرنا المعاصرة، قدر ما نجده بالنسبة لكتاب فى الشعر الجاهلى لطه حسين. لقد كتبت مئات الصفحات حول هذا الكتاب بلغت أضعاف صفحات الكتاب نفسه. ويقينى أن ما أثير حول منهج طه حسين فى دراسة موضوع كتابه يعد بالدرجة الأولى الأساس الذى أقيمت عليه تلك الردود النقدية العنيفة، وإلا كيف نبرر أن تلك الردود والحملات ما زالت مستمرة حتى الآن رغم أن العديد من آراء طه حسين قد تم تجاوزها خلال أكثر من نصف قرن من الزمان.

ويبدو لى أنه من الضرورى أن ننظر إلى منهج طه حسين "فى الشعر الجاهلى" وإلى آراء طه حسين أيضاً فى هذا الكتاب، من خلال دراسة موسعة لآرائه فى العديد من كتبه الأخرى. بل أقول إن كتابه "من بعيد" قد لا يقل من حيث الأهمية، أهمية الموضوع والمنهج، عن كتابه "فى الشعر الجاهلى"، هذا بالإضافة إلى كتب أخرى عديدة تركها لنا هذا المفكر الكبير.

غير مجد فى ملتى واعتقادى النظر إلى كتاب "فى الشعر الجاهلى" وكأنه يعد منفصلا عن كتب طه حسين الأخرى، بل إن الدراسة الموضوعية تلزمنا بدراسة منهج المفكر من خلال كل ما كتب، وليس من خلال بعض ما كتب. تلزمنا الدراسة الموضوعية على أن ننظر إلى آراء المفكر من خلال العصر الذى عاش فيه، وليس من خلال عصور جاءت بعده. إن كتاب "فى الشعر الجاهلى" إذا نظرنا إليه من خلال أيامنا الحالية. فإن هذا يعد ظلما لطه حسين. إذ نجد العديد من آرائه وقد عفا عليها

الزمن. نجده متأثرا بمنهج ليس هو صاحبه، بل إنه منهج ديكارت إلى حد كبير جداً وكما ذكر هو نفسه، وكم من قرون باعدت بين ديكارت وبين طه حسين.

نعم يجب أن ننظر إلى طه حسين، وإلى كتابه "في الشعر الجاهلي" من خلال الفترة الزمنية التي قام فيها بتأليف هذا الكتاب. ونجد هذا واجبا علينا حين ندرس كتبه الأخرى. وهل يرجع الدارس الجاد المحقق المهتم بالفلسفة اليونانية على سبيل المثال، إلى كتاب قادة الفكر لطه حسين أم أنه من الضروري الرجوع إلى مئات الدراسات الجادة والتي قد تعد أفضل بكثير من كتابات طه حسين في مجال الفلسفة اليونانية.

وأقول بأن الخلاف مع طه حسين، سواء من حيث المنهج أو من حيث هذا الرأي أو ذاك من الآراء التي قال بها، لا يقلل من المكانة التي يستحقها هذا المفكر. فطه حسين يقف على قمة عصر التنوير في عالمنا العربي المعاصر. لقد أثار الكثير من المعارك الفكرية والتي تدور أكثرها حول قضية التنوير. إننا نجد لديه حسا نقديا بارزا في كل كتاباته قام بنقد مناهج التعليم وخاصة التعليم الأزهري ورأى أنها تقف عقبة في سبيل التنوير والإنطلاق إلى الحرية والتقدم.

ولابد من القول بأن طه حسين كان متأثرا بالفكر الغربي، وخاصة الشك الديكارتي كما سبق أن أشرنا.. هذا متوقع من جانبه وخاصة أنه درس بفرنسا ورأى التقدم الأوروبي والنهضة الأوروبية وآمن بالتنوير في أوروبا، واعتقد بأنه من الضروري القيام بحركة تنويرية تتمثل في الإستفادة من الفكر الأوروبي والإعتماد على المنجزات العلمية والحضارية في أوروبا، ومن هنا يمكن اعتباره في طليعة المفكرين المصريين المعاصرين الذين آمنوا بأنه لا مفر من فتح الأبواب والنوافذ على الحضارة الأوروبية.

ترك لنا طه حسين العديد من الكتب وأثار العديد من المعارك الفكرية البالغة الأهمية وكان من خلال المناصب التى تولاها وخاصة عمله بالجامعة كعميد لكلية الآداب، وتوليه وزارة المعارف العمومية، مفكرا مؤمنا بوطنه وبأهمية الفكر العقلانى العلمى المستنير، وبحيث يمكن القول من جانبنا بأننا لا نتصور مصر المعاصرة فكريا بدون هذا المفكر، طه حسين، والذى كانت حياته مثالا يحتذى، مثالا للقدوة كما ينبغى أن تكون. لقد فعل معتمدا على نفسه ما أدى به إلى أن يكون طه حسين. طفل كفيف أثارت آراؤه العالم العربى كله من مشرقه إلى مغربه. كفاح من النادر أن نجد له مثيلا بين المفكرين العرب المعاصرين. ونكاد لا نجد مفكرا عربيا جاء بعد طه حسين إلا وتأثر به وبأفكاره وبمنهجه، وسواء اتفق معه أو اختلف حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها. فكتابه الأيام يعد مثالا يحتذى فى أدب السيرة الذاتية، وكتبه ومقالاته العديدة عن شعراء العرب وخاصة "أبى العلاء المعرى" تعد غاية فى الدقة والتحليل لأنه أضاف إلى البعد الموضوعى فى دراساته بعدا ذاتيا نقديا يدلنا على شخصية متميزة له. وهكذا إلى مئات الأفكار والدراسات التى تركها لنا. إنها أفكار تدعونا إلى أن نتوقف عندها طويلا ونأخذ فى دراستها دراسة متأنية وما أحوجنا اليوم ونحن نتحدث عن التنوير أن نتأمل فى أفكار رائدنا طه حسين والذى دخل تاريخنا الفكرى من أوسع الأبواب وأرحبها. إنه يعد رمزا وضاء من رموز ثقافتنا، فواجب علينا إذن الإحتفال به فى كل وقت وكل آن حتى نحارب عن طريق أفكاره جيوش الظلام والتقليد واللامعقول تلك الجيوش التى تعبر فى أفكارها عن تخلف عقلى وصعود إلى الهاوية.

نعم لا يخالجنى الشك لحظة واحدة فى أن مفكرنا طه حسين يقف على قمة عصر التنوير فى فكرنا العربى المعاصر. وإذا كنا نجد بعض المفكرين الذين وجدوا بعد طه حسين وكانوا من دعاة التنوير، فإن هؤلاء المفكرين قد استفادوا من طه

حسين من قريب أو من بعيد، وبطريقة مباشرة تارة، وغير مباشرة تارة أخرى. إنه إذن يقف على قمة عصر التنوير فى فكرنا العربى ولم لا؟ وهو الرائد، هو المعلم، هو الأستاذ الذى خاض العديد من المعارك التى كان القصد منها إعلان الحرب على الظلام، وتبديد أفكار التقليد، وفتح كل النوافذ على أفكار النور والتنوير.

إن مفكرنا طه حسين تحتاج دراسة أفكاره إلى العديد من الكتب والمقالات حتى نستطيع سبر أغوار تلك الأفكار التى قال بها.. وتمسك بها دواما وحارب من أجلها. وكم أسأنا إلى طه حسين بصور عديدة من الإساءة. لم نفهم أكثر أفكاره كما ينبغى أن يكون الفهم.. قمنا بتزييف أفكاره عن طريق تأويلها تأويلا خاطئا سيئا. وقف بعضنا من طه حسين موقف المؤيد تماما لكل فكرة قال بها. ولم يكلف هذا الفريق نفسه التأمل بعمق فى أفكار طه حسين وبحيث ينتهى بعد دراستها إلى الإتفاق معه تارة والإختلاف معه تارة أخرى، إذ أن طه حسين يعد مفكرا قد يصيب تارة وقد يخطئ تارة أخرى. إنه فرد من أفراد البشر ولم يكن من القديسين.

ووقف بعضنا الآخر من طه حسين، موقف المعارض والمهاجم لإتجاهاته وآرائه فإذا دعا إلى النور، فإننا نراهم يتمسكون بالظلام ويفضلونه على النور لأنهم كالخفافيش التى تؤثر الظلام. وإذا دعا إلى التجديد، فإنهم ينادون بالتقليد والفكر الرجعى وبئس المصير. وإذا أيقظنا طه حسين من سباتنا العميق، فإننا نراهم يفضلون حياة النوم والكسل والخمول.

نجد فريقين إذن إزاء فكر طه حسين موقف المؤيدين تماما، وموقف المعارضين لمنهجه وأفكاره قلبا وقالبا. ويقينى أن كل فريق من الفريقين قد جانبه الصواب لأنه لم يكلف نفسه الإلتزام بالمنهج فى الدراسة كما ينبغى أن يكون المنهج وغلب على دراسات الفريقين الإتجاه الخطابى البلاغى لا الإتجاه النقدى والموضوعى.

إننا إذا كنا نعيش فى هذه الأيام فى ذكرى مرور سبعين عاما على صدور كتابه "فى الشعر الجاهلى"، فما أحوجنا إذن إلى أن نعيد قراءة فكر العملاق طه حسين وأن نقوم بدراسته دراسة موضوعية أمينة وبحيث نبتعد عن محاولات أشباه الدارسين والذين قدموا لنا مئات الدراسات الزائفة عن طه حسين الدراسات التى تعد جهلا على جهل ولكن أكثرهم لا يعلمون.

ونود فى هذه الدراسة أن ندرس أبرز أفكار الرجل من خلال كتاب من كتبه إنه كتاب "فى الشعر الجاهلى" ذلك الكتاب الذى نرى أنه يحتل أهمية كبرى بين مؤلفات طه حسين. ونحن للأسف الشديد لم نوجه اهتمامنا إلى هذا الكتاب وما فيه من أفكار غاية فى الجرأة والعمق والثراء.

ولا أدرى لماذا لم يستفد منه الدارسون لفكر طه حسين صحيح أننا قد نتفق تارة مع طه حسين من خلال أفكار هذا الكتاب، وقد نختلف تارة أخرى، إلا أن هذا كله إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على عظمة الرجل وعلى عمق أفكاره التى نجدها بين ثنايا صفحات هذا الكتاب.

ونرجو أن تكون دراستنا التى تركز على هذا الكتاب جوهرية، دافعة للدارسين مستقبلا إلى دراسة أفكار هذا الكتاب وما أعظمها من أفكار. أرجو أن تكون دافعة للمهتمين بتراث طه حسين إلى إعادة النظر فى العديد من الأحكام المتسرعة التى توصلوا إليها حول فكر هذا الرجل. إن هذا الكتاب كتاب فى الشعر الجاهلى لا يمكن تجاهله، وبحيث يمكننا القول بأنه لا غنى عنه فى دراسة أفكار طه حسين من قريب أو من بعيد.

ويقسم طه حسين كتابه "فى الشعر الجاهلى" إلى مجموعة من الأقسام والأجزاء والنقاط من بينها:

- مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن لا فى الشعر الجاهلى.
- الشعر الجاهلى واللغة.
- الشعر الجاهلى واللهجات.
- ليس الإنتحال مقصورا على العرب.
- السياسة وانتحال الشعر.
- الدين وانتحال الشعر.
- القصص وانتحال الشعر.
- الشعوبية وانتحال الشعر.
- الرواة وانتحال الشعر.
- الشعر والشعراء.

ويتحدث طه حسين فى الصفحات الأولى من كتابه ، وتحت عنوان "منهج البحث" عن سلوكه مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة،كما يشير إلى ديكارت إنه يقول: أحب أن أكون واضحاً جليا وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن أضطرهم إلى أن يتأولوا أو يتمحلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة فى النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التى أرمى إليها. أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب وأن أريح نفسى من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج إلى مناقشة. أريد أن أقول إنى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة، أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث. والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شئ كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما. والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط

عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثراً... فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربى القديم وتاريخه بالبحث والإستقصاء. واضح من هذا القول الذى أوردناه نقلا عن كتاب طه حسين، أنه يقوم على إيمان طه حسين بخاصية من خصائص الفكر الفلسفى، خاصية الشك وارتباطه بالنقد. إن الشاك غير المقلد، والناقد لا يرتضى لنفسه أن يقف عند آراء من سبقوه وقد احتل النقد كخاصية من خصائص الفكر الفلسفى مكانة كبرى عند الفلاسفة منذ نشأة الفلسفة وحتى عصرنا الحاضر، فأرسطو يقف على قمة عصر الفلسفة اليونانية لحسه النقدى، وابن رشد يقف على قمة عصر الفلسفة العربية لبروز حسه النقدى، بل الشكى، ونجد هذا أيضاً عند توما الإكوينى وعند الفيلسوف الألمانى كانط. فإذا جاء طه حسين وفى الفترة التى دعانا فيها إلى الأخذ بمنهج جديد تأثر فيه بديكارت فإن هذا يعد شيئا حسنا من جانبه، وإن كنا نختلف معه حول مجالات تطبيق هذا المنهج الذى يقوم على أساس فلسفى، هو النقد والشك.

ويؤكد طه حسين على ضرورة التأثر بالمنهج العلمى فى البحث والدراسة وأيضاً الإستفادة مما فعله الغرب بالنسبة لدراسة أدبهم وآداب الأمم الأخرى ونستطيع القول بأن هذا التأكيد من جانب طه حسين إيماءة لنا على موقف آخر من المواقف الفلسفية، هذا الموقف يتمثل فى ضرورة الإنفتاح على كل التيارات وربط الحاضر والمستقبل بهذا الإنفتاح الفكرى. يقول طه حسين: وأنت إذا فكرت فستوافقنى على أن منشأ هذه الحركة النقدية إنما هو فى حقيقة الأمر تأثر الباحثين فى الأدب والتاريخ بهذا المنهج الذى دعوت إليه فى أول هذا الكتاب، وهو منهج ديكارت الفلسفى وسواء رضينا أم كرهنا فلابد من أن نتأثر بهذا المنهج فى بحثنا العلمى والأدبى كما تأثر من قبلنا به من أهل الغرب ولابد من أن نصطنعه فى نقد آدابنا وتاريخنا كما اصطنعه أهل الغرب فى نقد آدابهم وتاريخهم. ذلك لأن عقليتنا نفسها

قد أخذت منذ عشرات من السنين تتغير وتصبح غربية، أو قل أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية وهى كلما مضى عليها الزمن جدت فى التغيير وأسرعت فى الإتصال بأهل الغرب.. وإذا كان قد قدر لهذا الكتاب ألا يرضى الكثير من هؤلاء الأدباء والمؤرخين فنحن واثقون بأن ذلك لن يضيره ولن يقلل من تأثيره فى هذا الجيل الناشئ. فالمستقبل لمنهج ديكارت لا لمناهج القدماء.

إنّ هذا القول من جانب طه حسين، يمثل دعوة إلى الإنفتاح على التيارات الحديثة، فالمناهج القديمة لا تكفى، ولابد من تجاوز القديم حتى نصل إلى الجديد. وإذا كنا قد قلنا فى بداية دراستنا أنه من الضرورى الربط بين أفكار طه حسين فى كتابه "فى الشعر الجاهلى" وأفكاره فى كتبه الأخرى، وبحيث لا ننظر إلى فكر طه حسين نظرة مغلقة تدور حول كتاب واحد من كتبه، فإن مصداق ذلك، أننا نجد هذه الدعوى من جانبه، الدعوة إلى المناهج الحديثة، مطبقة على نظرته إلى سائر العلوم والفنون ومن خلال العديد من كتبه أنه لا ينظر إلى التراث نظرة تقديس، بل إنه يدعو إلى الإنفتاح – كما وجدنا فى عصر النهضة الأوروبية – على التيارات الفكرية الأوروبية الكبرى، لم يهاجم الحضارة كما يفعل الأشباه منا فى أواخر القرن العشرين وللأسف الشديد إنه يقول فى آخر سطور بحثه عن العلم والدين والذى يمثل القسم الرابع من كتابه "من بعيد". هذا القسم الذى كتبه فى أكثر من أربعين صفحة وعاد إليه بين الحين والآخر فى مواضع متفرقة من كتابه. يقول طه حسين إننا مضطرون إلى أن نعيش ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة فنحن محتاجون أن ننتفع بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا، والعلم وحده سبيلنا إلى ذلك وهو سبيلنا إلى ذلك على أن ندرسه كما يدرسه الأوروبيون لا كما كان يدرسه آباؤنا منذ قرون.. وويل لنا يوم نعدل عن طب باستور وكلودبرنار إلى طب ابن سينا وداود الأنطاكى وهذا العلم الحديث الذى لا نستطيع

أن نستغني عنه لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر إلا في جو كله حرية وتسامح فنحن بين اثنتين: أما أن نؤثر الحياة وإذا فلا مندوحة عن الحرية، وأما أن نؤثر الموت وإذن فلنا أن نختار الجمود.

إن النزعة الشكية النقدية والتى نجدها في صفحات كتاب "في الشعر الجاهلي" نجدها في سائر دراساته الأخرى، ويقيني بأنه من الأجدى ومن الضروري تتبع أفكار طه حسين النقدية ليس من خلال كتاب بعينه، ككتاب "في الشعر الجاهلي" بل من خلال العديد من كتبه. إن الموقف النقدى الذى يتحدث عنه طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" نجده على سبيل المثال في كتابه الهام والذى سبق أن أشرنا إليه، كتاب "من بعيد".

ويبدو طه حسين صاحب نزعة تفاؤلية حين يشير إلى ازدياد تأثرنا في المستقبل، بالغرب ومناهجه، إنه يقول في كتابه "في الشعر الجاهلي": وإذا كان في مصر الآن قوم ينصرون القديم وآخرون ينصرون الجديد، فليس ذلك إلا لأن في مصر قوما قد اصطبغت عقليتهم بهذه الصبغة الغربية، وآخرين لم يظفروا منها بحظ أو لم يظفروا منها إلا بحظ قليل. وانتشار العلم الغربي في مصر وازدياد انتشاره من يوم إلى يوم، واتجاه الجهود الفردية والإجتماعية إلى نشر هذا العلم الغربي، كل ذلك سيفضي غدًا أو بعد غد بأن يصبح عقلنا غربيا، وبأن ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثرين بمنهج ديكارت كما فعل أهل الغرب في درس آدابهم وآداب اليونان والرومان.

ويتحدث طه حسين في سخرية عن مناهج القدماء، مبينا أنه من الضروري الإنطلاق نحو المناهج الحديثة والجديدة. فهو يقول في كتابه "في الشعر الجاهلي": نعم يجب أن نلغي عقولنا وأن نلغي وجودنا الشخصي وأن نستحيل إلى كتب متحركة: هذا يحفظ الكامل لا يعدوه فيصبح نسخة من كتاب الكامل تمشي

على رجلين وتنطق بلسان. وهذا يحفظ كتاب البيان والتبيين فيصبح نسخة منه وهذا يحفظ أخلاطا من الكتب فيصبح مزاجا غريبا يتكلم مرة بلسان الجاحظ وأخرى بلسان المبرد وثالثة بلسان ثعلب ورابعة بلسان ابن سلام.

ومن الواضح أن طه حسين من خلال هذه العبارة والعديد من العبارات والأقوال التى نجدها فى كتابه "فى الشعر الجاهلى" والتى سبق أن أشرنا إلى أكثرها إنما ينظر نظرة نقدية إلى التراث، ليس التراث الأدبى فقط، بل التراث العلمى أيضاً. ونحن نقول من جانبنا أن العيب ليس فى التراث، ولكن العيب فى الفهم الخاطئ للتراث. العيب هو أن نقبل التراث ككل، فى الوقت الذى قد نجد فى التراث العديد من الأخطاء والتى لا نبالغ إذا قلنا إنها تعد أكثر عددا من سكان الدول العربية مجتمعة، من المشرق إلى المغرب.

يقول طه حسين مؤكدا على نظرته النقدية للتراث، وعلى أنه من الضرورى تجاوز القديم والرجوع إلى الحديث "لأنصار القديم أن يرضوا لأنفسهم بهذا النحو من أنحاء الحياة العلمية. أما نحن فنأبى كل الإباء أن نكون أدوات حاكية أو كتبا متحركة. ولا نرضى ألا تكون لنا عقول نفهم بها ونستعين بها على النقد والتمحيص فى غير تحكم ولا طغيان. وهذه العقول تضطرنا – كما اضطرت غيرنا من قبل، إلى أن ننظر إلى القدماء كما ننظر إلى المحدثين دون أن ننسى الظروف التى تحيط بأولئك وهؤلاء".

ويبين لنا طه حسين أننا إذا كنا ننظر نظرة نقدية إلى آراء المحدثين فأولى بنا إذن أن ننظر من خلال النقد إلى آراء القدامى، يقول طه حسين فأنا لا أقدس أحدا من الذين يعاصروننى ولا أبرئه من الكذب والإنتحال ولا أعصمه من الخطأ والإضطراب. فإذا تحدث إلى بشئ أو نقل لى عنه شئ فأنا لا أقبل حتى أنقد وأتحرى وأحلل وأدقق فى التحليل. وما أعرف أن أحدا من أنصار القديم أنفسهم

يقدس المعاصرين ويطمئن إليهم من غير نقد ولا تبصر... فما بالهم يصطنعون ملكاتهم النقدية بالقياس إلى المعاصرين ولا يصطنعونها بالقياس إلى القدماء؟

ويكشف لنا طه حسين من خلال العديد من الأمثلة أسباب وقوف البعض عند القديم لمجرد أنه قديم وبحيث ينقدون المعاصرين ولا ينقدون القدامى. إنه يسأل سؤالا هو ما مصدر هذه التفرقة التى يصطنعونها بين القدماء والمحدثين ما لهم يؤمنون لأولئك ويشكون فى هؤلاء؟

ويجيب طه حسين قائلاً: ليس لهذه التفرقة مصدر إلا هذه الفكرة التى تسيطر على نفوس العامة فى جميع الأمم وفى جميع العصور وهى أن القديم خير من الجديد وأن الزمان صائر إلى الشر لا إلى الخير وأن الدهر يسير بالناس القهقرى: يرجع بهم إلى وراء ولا يمضى بهم إلى أمام. زعموا أن القمحة كانت فى العصور الذهبية تعدل التفاحة العظيمة حجما ثم غضب الله على الناس فأخذت القمحة تتضاءل حتى وصلت إلى حيث هى الآن. وزعموا أن الرجل من الأجيال القديمة كان من الطول والضخامة والقوة بحيث كان يغمس يده فى البحر فيأخذ منه السمك ثم يرفع يده فى الجو فيشويه فى جذوة الشمس ثم يهبط بيده إلى فمه فيزدرد شواءه ازدرادا. وزعموا أن أهل الأجيال القديمة كانوا من الضخامة والجسامة بحيث استطاع بعض الملوك أو بعض الأنبياء أن يتخذ فخذ أحدهم جسرا يعبر عليه الفرات.

ويؤكد طه حسين على القول بأنه ليس من الضرورى أن يكون القديم أفضل من الحديث، بل قد نجد الحديث أفضل من القديم. يقول طه حسين. كان القدماء يكذبون كما يكذب المحدثون. وكان القدماء يخطئون كما يخطئ المحدثون وكان حظ القدماء من الخطأ أعظم من حظ المحدثين، لأن العقل لم يبلغ من الرقى فى تلك العصور ما بلغ فى هذا العصر ولم يستكشف من مناهج البحث والنقد ما

استكشف في هذا العصر. فإذا أخذنا أنفسنا بأن نقف أمام القدماء موقف الشك والإحتياط فلسنا غلاة ولا مسرفين وإنما نحن نؤدى لعقولنا حقها ونؤدى للعلم ما له علينا من دين. وإذا كنا نطلب إلى أنصار القديم شيئا فهو أن يكونوا منطقيين وأن يلائموا بين حياتهم حين يقرأون ويكتبون وحياتهم حين يبيعون ويشترون.

ويبين لنا طه حسين فى معرض دفاعه عن الإتجاه النقدى فى دراسة التراث أننا إذا وجدنا كثرة من الدارسين يتفقون على رأى معين ، فإن ذلك لا يعد سببا للتصديق بهذا الرأى، يقول طه حسين: أما أنا فأطمئن إلى آراء الكثرة أو قد أرانى مكرها على الإطمئنان لآراء الكثرة فى المجالس النيابية وما يشبهها ولكن الكثرة فى العلم لا تغنى شيئا. فقد كانت كثرة العلماء تنكر كروية الأرض وحركتها وظهر بعد ذلك أن الكثرة كانت مخطئة. وكانت كثرة العلماء ترى كل ما اثبت العلم الحديث أنه غير صحيح، فالكثرة فى العلم لا تغنى شيئا.

نقول ونكرر القول بأننا قد نختلف مع طه حسن حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، ولكننا من جانبنا لا نتردد فى الثناء على طه حسين إذا وضعنا فى اعتبارنا أنه كان إلى حد كبير ملتزما بخصائص المنهج الفلسفى والموقف الفلسفى، وأنه يقيم دراسته على الجانب الشكى، الجانب النقدى، ولايرتضى لنفسه الوقوف عند القديم لمجرد أنه قديم. نقد آراء القدامى وآراء بعض المحدثين، وكشف عن مغالطات الذين يقفون عند التراث لمجرد أنه تراث، ولعمرى أن هذا يعد التزاما من جانبه بأخص خصائص الموقف الفلسفى، إنه موقف يقوم على النقد، يقوم على الشك، تماما كما ميز أفلاطون قديما بين الفضيلة العادية، والفضيلة الفلسفية، الفضيلة العادية تقوم على التقليد، أما الفضيلة الفلسفية، فإنها تقوم على الشك والنقد وعدم الإلتزام بالوقوف عند مجرد التقليد، تقليد الأفكار وتقليد السلوك.

هذا بالإضافة إلى أن المنهج الذى سار عليه طه حسين فى كتابه "فى الشعر الجاهلى" إنما كان قائما على الإنفتاح على المناهج الحديثة، والإطلاع على الثقافات الأوروبية، ولا نقصد من ذلك مجرد التأثر من جانبه بديكارت الفيلسوف

الفرنسي، بل إننا نقصد بالدرجة الأولى التأثر بالثقافات الأخرى غير العربية وفتح النوافذ على ثقافة الغرب، ويقينى أن فتح النوافذ يؤدى إلى إقامة الجسور والقنوات بين كل ثقافة والأخرى، أما الإقتصار على الثقافة الداخلية فإنه يمثل غلق النوافذ. وإذا أغلقنا النوافذ فسوف لا يتجدد الهواء وبحيث نصاب بالإختناق ثم الموت. إن الإستفادة من فكر الغرب يعد شيئاً من ألزم الأشياء فى حياتنا. لقد تقدم الغرب وتأخر الشرق ومن الضرورى أن يلحق المتأخر بالمتقدم، وليس من المنطقى أن نطلب من المتقدم أن يقف فى مكانه حتى يلحق به المتأخر. هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

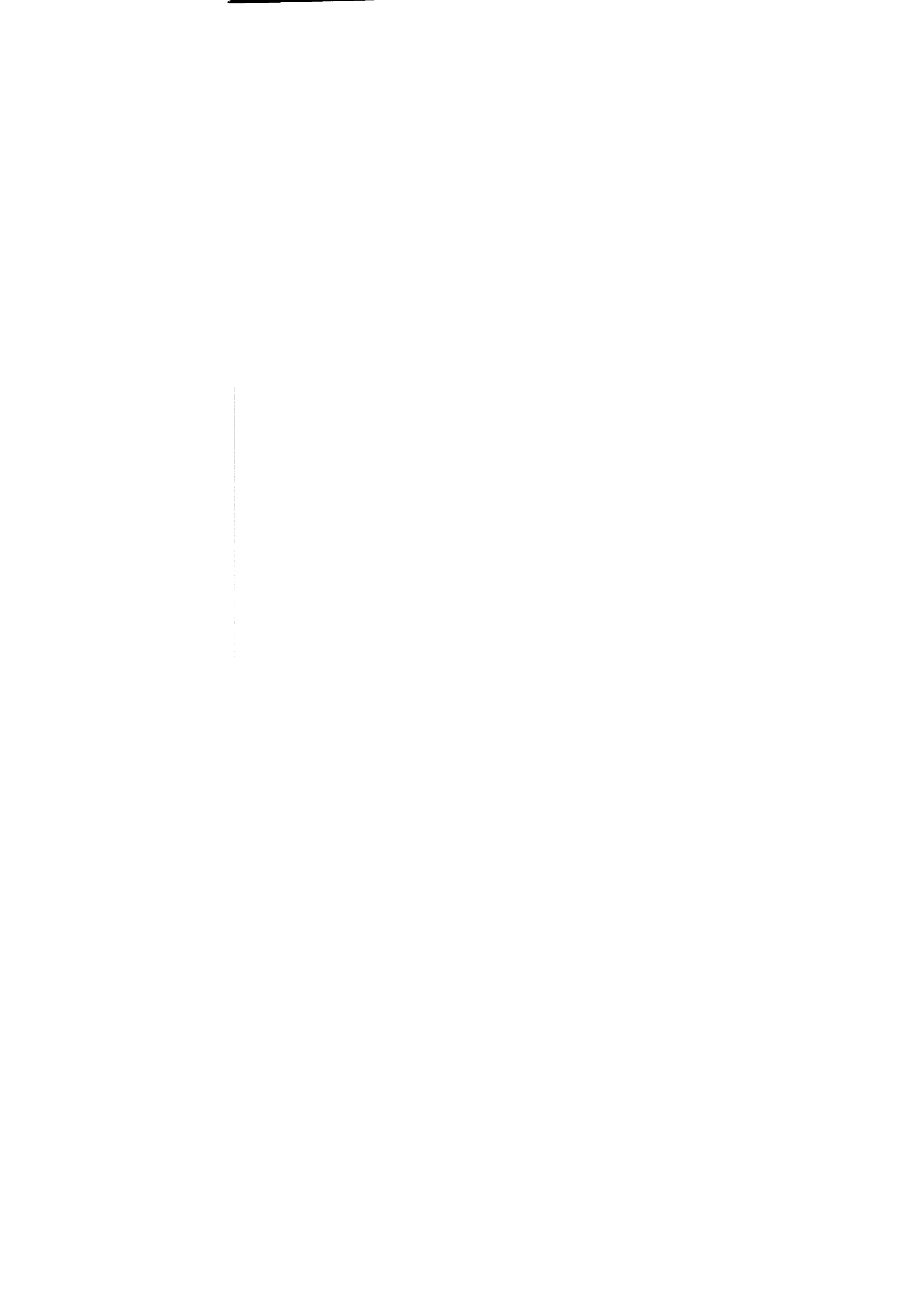
غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى إهمال أفكار طه حسين والتى قال بها ليس من خلال صفحات "فى الشعر الجاهلى" فحسب، بل إننا قد أشرنا إلى أنه قال بها فى العديد من كتبه وبحوثه ودراساته، وكم أشرنا إلى كتابه "من بعيد" بصفة خاصة. فطه حسين قد كتب ما كتب لا ليبقى فى ظلال الإهمال والنسيان، بل لكى يكون فكرا متجددا على مر العصور. صحيح أنه قد ابتعد عن الصواب فى رأى أو أكثر. ولكن الصحيح أيضاً أننا نجد له العديد من الإيجابيات ومن منا لم يقع فى الخطأ مرة بل عدة مرات. ينبغى علينا أن نقدر جهده الكبير، وبحيث لا نعيش فى مجتمع الصراصير التى تتنازع مع بعضها البعض بل نعيش فى مجتمع النمل، حيث الوئام والإتفاق والتعاون. لا يصح أن نكون كالقطة التى تأكل صغارها، بل يجب أن نكون كالقطة التى ألقت بنفسها فى النار فى سبيل إنقاذ صغارها إنها دعوة نرجو أن تجد صداها فى نفوس وعقول المهتمين بفكرنا العربى المعاصر بصفة عامة، وفكر ومنهج طه حسين بصفة خاصة. نقول هذا رغم أننا لا نتردد فى القول بأننا نختلف مع طه حسين حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، والإختلاف فى الرأى يعد معبراً عن طبيعة الفلسفة والتفلسف، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.



ثالثاً

طه حسين وزوال المجتمع التقليدى

تأليف د. عبد العزيز شرف



طه حسين وزوال المجتمع التقليدى

تأليف د. عبد العزيز شرف

يحتل طه حسين فى تاريخ الفكر العربى الحديث مكانة كبيرة. ولا نبالغ إذا قلنا بأن مفكرنا طه حسين قد وضع بصماته البارزة على مسار فكرنا العربى الحديث من مشرق الأمة العربية إلى مغربها. ومن النادر أن نجد تياراً فكرياً أو أدبياً إلا ونجده يرتبط بالمعارك الفكرية التى أثارها طه حسين فى حياته والتى استمرت بعد وفاته.

وإذا كنا نعيش هذا العام فى ذكرى مرور قرن من الزمان على مولد العملاق الدكتور طه حسين، فقد أردنا من جانبنا أن نعرض بالتحليل والنقد كتاباً من الكتب الهامة التى ألفت عن طه حسين.

هذا الكتاب هو كتاب: طه حسين وزوال المجتمع التقليدى. قام بتأليفه الدكتور عبد العزيز شرف وقد بذل فيه جهداً واضحاً. ويمكننا أن نقول إن اختيارنا لهذا الكتاب وبحيث نقوم بنقده وتحليله يرجع إلى أسباب عديدة. فبالإضافة إلى أهمية الكتاب وموضوعه، نجد من الواجب علينا الإحتفال باستمرار بالمفكر التنويرى طه حسين والذى كان يؤمن كما أشرنا إيماناً راسخاً بثقافة النور والتنوير، كما إننا نتحدث عن الثورة الفرنسية وأثرها على فكرنا العربى. ولا يمكن الحديث عن هذا الجانب إلا بأن نضع فى الإعتبار استفادة طه حسين الكبرى وتأثره البالغ بمبادئ الثورة الفرنسيه. فإذا ذكرنا الثورة الفرنسية وأثرها على فكرنا العربى الحديث، فلابد أن نذكر مفكرنا العظيم طه حسين.

يضاف إلى ذلك كله، أن طه حسين قد تعرض لحملات مسعورة هجومية جاءت من أشباه المفكرين وأنصار الظلام وخفافيش الفكر، جاءت من أهل التقليد

والفكر الرجعى. فلابد إذن إنصافاً لمفكرنا الكبير طه حسين، أن نتحدث عنه باستمرار. أن نتحدث عنه دون كلل ولا ملل، إذ أننا من جانبنا لا نتصور تاريخاً شامخاً لفكرنا العربى الحديث إلا بأن نضع فى صدارة هذا الفكر، الآراء العظيمة والحيوية والبناءة التى صدرت عن عقلية طه حسين.

كل هذه أسباب دفعتنا لإختيار هذا الكتاب، كتاب طه حسين وزوال المجتمع التقليدى والذى قام بتأليفه كما ذكرنا منذ قليل، الدكتور عبد العزيز شرف.

ويقع الكتاب فى ٣٢٧ صفحة ويتضمن مقدمة وستة فصول وقائمة بالمراجع العربية والمترجمة وأسماء العديد من الصحف والمجلات.

ويمكننا القول بأن الكتاب الذى بين أيدينا إنما يهتم اهتماماً رئيسيا بالربط بين فكر طه حسين وحياة المجتمع، أى دور المثقف فى المجتمع. وقد أشار إلى ذلك مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام فى تقديمه لهذا الكتاب: وقد جاء فى التقديم ما يلى" إن كتاب الدكتور عبد العزيز شرف الذى يقدمه المركز، إنما يقدم مادة أساسية للمهتمين بدراسة سوسيولوجيا المعرفة. ومع أنه يركز على دراسة فن المقال الصحفى عند طه حسين، إلا أن مؤلفه قد استطاع فى غمار دراسته أن يقوم بعملين هامين، هما: توثيق علمى دقيق لنشأة طه حسين ومصادر ثقافته ولكتاباته العلمية والصحفية على امتداد الحياة الحافلة والمليئة التى عاشها الرائد الكبير، ودراسة قيمة الدور التنويرى الذى قام به طه حسين كمثقف ومفكر وكاتب وصحفى. وكلا العملين قد أداهما المؤلف بما يجعل من كتابه مرجعاً هاماً لكل من يريد أن يدرس - من الناحية السوسيولوجية فكر طه حسين فى ارتباطه بحياة وحركة المجتمع الذى عاش فيه وبالتيارات الفكرية التى أثر فيها وتأثر بها. (ص٤).

وهذا القول يعد تعبيراً صحيحاً إلى حد كبير عن المجال الرئيسى الذى سعى إلى البحث فيه مؤلفنا الدكتور عبد العزيز شرف.

كما أشار الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى مقدمته لهذا الكتاب إلى مجموعة من التيارات نجدها فى فكر طه حسين ومن بينها التيار التراثى، والتيار الإستشراقى، والتيار المصرى الخالص، وتيارات الفكر الأوروبى. ومن شأن تعدد هذه التيارات فى فكر طه حسين أن تثير النقاد للدفاع عنه أو للحملة عليه.

أما الفصول التى تضمنها الكتاب، كتاب طه حسين وزوال المجتمع التقليدى، فهى على النحو التالى:

أولاً: المقومات الشخصية للدكتور طه حسين.

ثانياً: اتجاهات الإتصال بالجماهير عند طه حسين.

ثالثاً: طه حسين وزوال المجتمع التقليدى.

رابعاً: طه حسين فى الإتجاه السياسى.

خامساً: طه حسين فى الإتجاه الإجتماعى.

سادساً: طه حسين فى الإتجاه الثقافى.

هذه الفصول يرتبط كل منها بالآخر إلى حد كبير جداً. وهى تعطى صورة دقيقة للعديد من الجوانب والمجالات التى تدخل فى إطار فكر طه حسين، وإن كنا نلاحظ أنه كان من الأفضل أن يكون الحديث عن الإتجاه الثقافى لدى طه حسين وهو موضوع الفصل السادس فى كتاب مؤلفنا الفاضل الدكتور عبد العزيز شرف، سابقاً للحديث عن الإتجاه السياسى (الفصل الرابع) والإتجاه الإجتماعى (الفصل الخامس)، إذ أن البعد الثقافى لدى طه حسين كان الغالب عليه، وهو الذى يؤدى عادة إلى الأبعاد السياسية والإجتماعية وغيرها.

كما نلاحظ أن عنوان الفصل الثالث، هو عنوان الكتاب، أى طه حسين وزوال المجتمع التقليدى. وكان من الأفضل اختيار عنوان آخر لهذا الفصل، إذ أن عنوان الكل (الكتاب) لا يكون عنوان الجزء (فصل من الكتاب).

ولكن هذا كله لا يمنعنا من القول وكما سبق أن أشرنا منذ قليل، إلى أن الفصول ترتبط ببعضها البعض برباط عضوى وثيق وتدور حول محور رئيسى هو أن هذه الأبعاد من سياسية واجتماعية وثقافية قد أدت إلى نقد المجتمع التقليدى والكشف عما فيه من عيوب وأخطاء ونقائص.

ولنحاول أن نشير بإيجاز إلى موضوعات كل فصل من هذه الفصول التى بذل فيها مؤلفها جهداً عظيماً يكشف عن عمق المؤلف وثقافته الواسعة وحسه النقدى البارز.

يتحدث المؤلف فى الفصل الأول عن المقومات الشخصية للدكتور طه حسين فيعرض لنشأته فى الصعيد وبعثته إلى فرنسا وأثر زواجه عليه وأهم العناصر التى كونت ثقافته ومقالات طه حسين ومؤلفاته وغيرها من الموضوعات الهامة التى تدخل فى إطار هذا الفصل. وقد بذل مؤلفنا الدكتور عبد العزيز شرف جهداً كبيراً فى هذا الفصل. إنه يتحدث عن مولده فى ١٤ نوفمبر عام ١٨٨٩، فى عزبة الكيلو التى تقع على مسافة كيلو متر من مغاغة بمحافظة المنيا بالصعيد الأوسط، وكان والده حسين على موظفاً فى شركة السكر التى كانت تملك أراضى الدائرة السنية فى تلك المنطقة وأنجب ثلاثة عشر ولداً سابعهم طه حسين.

ويركز المؤلف على بيان أثر البيئة الأسرية والبيئة العامة على طه حسين وتشكيل شخصيته. فهو يقول: فى هذه البيئة الأولى، كان للشخصيات التى اتصل بها طه حسين تأثيرها بحسب مدى صلته بها وأثر كل شخصية عليه: والده وأمه وسيدنا والعريف وأخوه الأزهرى ومفتش الزراعة ثم علماء المدينة. وهذه البيئة تحدد لنا المكونات الثقافية الأولى التى استمع إليها ووعاها إلى جانب الأدب الشعبى والأوراد والقرآن (ص١٧ من الكتاب).

كما يحدثنا الدكتور عبد العزيز شرف عن دخول طه حسين للأزهر، وكيف كان الأزهر وقتها لا يتقبل دعوة التجديد والإصلاح التى ذهب إليها الإمام محمد عبده. وكيف أن طه حسين لم يلبث بعد وفاة الإمام محمد عبده والتضييق على جناح المجددين، أن تبرم بالأزهر، فلم يكن يحضر فى سنة ١٩٠٨ غير درس الفقه فى الصباح على الشيخ بخيت ودرس الأدب على الشيخ سيد المرصفى، إلى أن منع الشيخ المرصفى من تدريس الأدب واستاء منه شيخ الأزهر هو وصاحباه أحمد حسن الزيات والشيخ محمود الزناتى، فأعلن طردهم. ولم يستمر الطرد إلا لمدة قصيرة، إذ توسط لطفى السيد لدى الشيخ حسونة فأعيدوا إلى الأزهر. وكان يحضر أحياناً درس البلاغة فى شرح السعد على التلخيص، على الشيخ عبد الحكيم عطا، ويثابر فى الوقت نفسه على التردد إلى دار الكتب.

وإذا كان طه حسين قد تمرد على مناهج التعليم الأزهرى وجمودها، فإننا نجده يلتحق بالجامعة المصرية القديمة ويستمع إلى دروس عديد من الأساتذة المصرين والأجانب. ومن بينهم أحمد زكى بك وأحمد كمال باشا وجويدى وليتمان ونالينو وسانتلانا وماسينيون. كما أنه استفاد استفادة هائلة من دراسته بفرنسا.

ويحدد مؤلف الكتاب، الدكتور عبد العزيز شرف، المقومات الثقافية الخاصة بطه حسين من خلال عناصر ثلاثة هى:

١- العنصر المصرى الخالص.

٢- العنصر العربى.

٣- العنصر الأجنبى.

وينتقل بنا مؤلف الكتاب من موضوع الفصل الأول على النحو الذى أشرنا إليه، إلى دراسة اتجاهات الإتصال بالجماهير عند طه حسين. وقد خصص لهذا الموضوع، الفصل الثانى من الكتاب.

ويقول الدكتور عبد العزيز شرف إن هذه الدراسة تقتضى التعرض لأربعة إتجاهات أساسية هي:

أ - اتجاه الكاتب نحو ذاته.

ب- اتجاه الكاتب نحو الموضوع.

ج- اتجاه الكاتب نحو جمهور القراء.

د - اتجاه الكاتب نحو وسائل الإعلام.

ويحلل المؤلف هذه الإتجاهات تحليلاً دقيقاً من خلال العديد من الصفحات وهذا التحليل من جانب المؤلف إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على عمق الثقافة الإعلامية عند الدكتور عبد العزيز شرف واهتمامه ببحث كل جانب من الجوانب الجزئية والعامة.

ويناقش المؤلف العديد والعديد من القضايا من خلال دراسته لهذه الإتجاهات ويذكر العديد من أقوال طه حسين. وهذا يكشف عن البعد الأكاديمى الدقيق فى الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه، كتاب طه حسين وزوال المجتمع التقليدى لمؤلفنا الفاضل الدكتور عبد العزيز شرف. ومن بين هذه الأقوال ما يقوله طه حسين: وكذلك رأيتنى أخاصم فى السياسة وأخاصم فى الإصلاح الإجتماعى. وأخاصم فى تجديد العقل المصرى وتغيير منهجه فى البحث والدرس وأخاصم فى نقل المناهج الغربية الحديثة لأفرضها على دراسة الأدب والتاريخ فى مصر. وإذا أنا أثير الخصومات وأحفظ الصدور وأغرق الناس بنفسى وألقى من ذلك الجهد والمشقة وأغضب فى وقت واحد كثرة البرلمان وصاحب القصر ولكنى لا أحجم ولا أتردد وإنما تزيدنى المحنة إقداماً وتصميماً ثم أمضى فيما أنا فيه من الصبر والتصميم والمجاهرة بما أرى أنه الحق غير حافل بسخط الساخطين ولا رضى الراضين حتى يبلغ الأمر غايته، فأقصى عن الجامعة وأحارب فى الرزق وأتلقى ألوان

النذير فلا يفل ذلك من عزمي وإنما يزيده مضاء وتصميماً، وكذلك غالبت المصاعب والعقبات على اختلاف مصادرها وعلى اختلاف ألوانها وطبقاتها وأتيح لي التغلب عليها آخر الأمر ولو إلى حين.

هذه العبارة تبلور إلى حد كبير اتجاه طه حسين في مخاطبته للجماهير وتكشف عن إصراره وعدم تردده في قول كلمة الحق التي يؤمن بها.

والواقع أن هذا الفصل والذي يزيد عن سبعين صفحة (من ص٦١ إلى ص١٣٢) بذل فيه مؤلفه جهداً كبيراً. وهو فصل يعد - رغم بعض التكرار الموجود في بعض أجزائه - مبتكراً إلى حد كبير جداً. وقد أحسن مؤلفنا الدكتور عبد العزيز شرف حين خصص فصلاً من كتابه للحديث عن اتجاهات الإتصال بالجماهير عند طه حسين.

والنقد الجوهري الذي نقول به من جانبنا بخصوص هذا الفصل هو أن مؤلفنا الفاضل الدكتور عبد العزيز شرف قد آثر جانب العرض والتحليل دون القيام بنقد بعض آراء طه حسين في هذا المجال، أو بيان مبررات أخذ طه حسين برأي دون رأي آخر.

هذا عن الفصل الثاني من فصول كتاب "طه حسين وزوال المجتمع التقليدي أما الفصل الثالث، فعنوانه - كما أشرنا، طه حسين وزوال المجتمع التقليدي. وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا العنوان هو نفسه عنوان الكتاب وكان من الأفضل اختيار عنوان آخر. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الملحوظة لا تقلل بأي حال من الأحوال من الجهد البارز الذي قام به مؤلفنا الدكتور عبد العزيز شرف وخاصة في حديثه عن منهج التغيير في الشعر الجاهلي. لقد استفاد المؤلف من العديد من الدراسات الإعلامية ومزج بينها وبين اتجاهات طه حسين. وقد ظهر ذلك في ص ١٥٢ من كتابه على سبيل المثال، وذلك حين يقول: وإذا كانت وظيفة

الإعلام ليست دعم الإتجاهات فقط، فإنها قد تحدث التغيير أيضاً. وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر إلى الشعر الجاهلى وما أحدثه من آثار من خلاله. فاستخدام المنهج الديكارتى يوضح الأسلوب الذى آثره طه حسين فى تغيير اتجاهات المجتمع المصرى والإتجاهات السلفية فيه خاصة. ذلك أن هذا المنهج يتيح له "هدم الهدم" إن صح التعبير، ذلك أن جوهر الحركة الفكرية فى مقال طه حسين هو التجديد العقلى، وليس الشك الديكارتى إلا وجهاً من أوجه هذا الجهد العقلى. حقا إنه شك منهجى استطاع عن طريقه أن يزيل كثيراً من الأوهام فى الشعر الجاهلى، الذى يغلب عليه الإنتحال، ولكن هذا الشك المنهجى مظهر من مظاهر منهج التعقيل الصارم فى التغيير الإجتماعى عند طه حسين.

هذا عن الفصل الثالث. ونحن نرى أن هذا الفصل يكشف عن عمق فكر المؤلف وثقافته الواسعة التى تمثلت فى الرجوع إلى العديد من المصادر والمراجع، ليس فى هذا الفصل فقط، بل فى بقية فصول الكتاب، مما يجعلنا نقول إن هذه الدراسة التى قدمها لنا الدكتور عبد العزيز شرف إنما تدلنا على إخلاص كبير فى البحث والدراسة. ويكفى أن يطلع المؤلف على الكم الهائل من المقالات والدراسات التى استند إليها المؤلف فى حديثه عن كل مجال من المجالات التى تدخل فى إطار هذا الفصل أو ذاك من فصول الكتاب.

وكل ما نود أن نذكره فى ختام إشارتنا إلى هذا الفصل، أننا كنا ننتظر من المؤلف بيان مدى استفادة طه حسين من الشك الديكارتى وخاصة فى كتب أخرى له ومن بينها على هامش السيرة. وأيضاً كنا ننتظر من المؤلف بيان مدى الإستفادة من الشك الديكارتى فى مقالاته التى كتبها بعد عام ١٩٥٢م وزوال عصر الملكية. وهل كان طه حسين مستفيداً فعلاً من الشك الديكارتى؟ وكيف نبرر إذن نقد طه حسين لمجموعة من الجوانب بعد عام ١٩٥٢م، ولم يكن نقده واضحاً لها قبل عام

١٩٥٢م وهكذا إلى آخر الملحوظات النقدية التى لا تقلل من أهمية هذا الفصل الذى كتبه بعناية ودقة مؤلفنا الفاضل الدكتور عبد العزيز شرف.

أما الفصل الرابع فموضوعه طه حسين فى الإتجاه السياسى. وهذا الفصل الذى يقع فى ٣٨ صفحة (من ص ١٧٣ إلى ص ٢١١) يحاول بيان أبرز الآراء السياسية لدى طه حسين، أو كما يقول المؤلف (ص ١٧٣). إن هدفه دراسة الإتصال فى الإتجاه السياسى فى إطار الإستراتيجية القومية لفن الإتصال الجماهيرى فى أدب طه حسين. فتأثير العامل السياسى فى الحياة الإجتماعية لا يقل أثراً عن تأثير العامل الإجتماعى فى الحياة السياسية.

هذا الفصل يكشف عن عمق ثقافة المؤلف. ولم يدخر الدكتور عبد العزيز شرف جهداً فى سبيل الرجوع إلى حشد هائل من المقالات والكتب لدراسة وتحليل هذا الجانب. وقد عقد الكثير من المقارنات بين العديد من الآراء السياسية عند كثير من الساسة والكتاب.

وينتقل بنا المؤلف إلى الفصل الخامس وموضوعه كما سبق أن أشرنا فى بداية المقالة، طه حسين فى الإتجاه الإجتماعى. ويحلل الدكتور عبد العزيز شرف العديد من الآراء التى قال بها طه حسين فى مجموعة من القضايا من بينها قضية التبشير، والقضية الإجتماعية وتطوير العوامل الإيجابية. وقد بذل الدكتور عبد العزيز شرف جهداً كبيراً فى معالجته لهذه القضايا. إنه يوازن ويحلل ويناقش فى هدوء وأناة. استمع إليه أيها القارئ العزيز حين يقول باحثاً عن حقيقة رأى طه حسين: إن القضية الإجتماعية فى مقال طه حسين ليست نتاج عقيدة مذهبية معينة ولكنها نتاج شعور بالتضامن الإجتماعى من خلال رؤية حضارية توجه مقاله فى الإتجاه السياسى كما توجهه فى الإتجاه الإجتماعى والثقافى. وهو فى اتجاهه ضد التضحية بالحرية فى الإشتراكية الشيوعية، يرفض كذلك ما وصفته به مجلة الفجر الجديد اليسارية فى

الأربعينات بأنه "كاتب برجوازى ليبرالى، ذلك أنه يرفض كذلك التضحية بالعدل الإجتماعى (ص ٢٣٤).

وهكذا يحاول المؤلف التعرف على حقيقة آراء طه حسين وجوهرها. وبصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع مؤلفنا الدكتور عبد العزيز شرف فى رأى أو أكثر من الآراء التى ذهب إليها فى هذا الفصل، إلا أننا نقول إن مؤلفنا فى سبيل التعرف على حقيقة رأى طه حسين فى مجال أو أكثر من المجالات التى بحث فيها أو القضايا التى أثارها، قد استند إلى العديد من كتابات طه حسين. وهذا يعد شيئاً محموداً وخاصة ونحن نعانى الآن من الآراء الزائفة التى يقول بها أشباه الدارسين فى مجال الحكم على حقيقة مكانة طه حسين. ويقينى أنهم يصدرون آراءهم وهم لم يكلفوا أنفسهم الرجوع إلى كتب مفكرنا طه حسين.

لقد عرض الدكتور عبد العزيز شرف للعديد من القضايا العامة والقضايا الجزئية التى تدخل فى مجال الإتجاه الإجتماعى عند طه حسين، ومن بينها قضية استقلال الجامعة وقضية الحجاب وقضية تعليم المرأة (ص٢٤٧ إلى ص ٢٥٤).

أما الفصل الأخير فقد حاول فيه مؤلفنا الدكتور عبد العزيز شرف، الكشف عن أبعاد الإتجاه الثقافى عند طه حسين. وحسنا بين لنا المؤلف تأثر طه حسين فى مقاله النقدى بالمنهج العلمى عند المستشرقين. إنه يقول: لقد تأثر طه حسين فى مقاله النقدى بالمنهج العلمى فى دراسة الآداب والذى استفاد فيه من دراسات المستشرقين وغيرهم ممن تمثلوا الثقافتين الشرقية والغربية. وكان طه حسين من أوائل الذين استجابوا لهذا المنهج الجديد آنذاك، وأصبح معروفاً فى بيئته الصحفية الأولى بميوله الخاصة واتخاذه وجهة النقد والتاريخ الأدبى. ومنذ ذلك التاريخ وطه حسين يكتب فى هذين الموضوعين، حتى غلبا على مقاله فى الإتجاه الأدبى طوال مسيرته الصحفية(ص٢٦٧):

لقد بذل المؤلف فى هذا الفصل جهداً كبيراً وإن كنا نرى أن العديد من المجالات التى أشار إليها المؤلف كانت تحتاجان إلى دراسة تفصيلية وتحليلية ومن بينها قضية الأصالة والمعاصرة، وقضية الجانب الفرعونى فى فكر طه حسين (ص٢٧٢، ص٢٧٤). فالقضية الأولى والقضية الثانية كانتا تحتاجان إلى مناقشة مستفيضة، بالإضافة إلى أننا نلاحظ أن بعض الجوانب التى بحثها المؤلف فى هذا الفصل قد يكون من الصعب فصلها عن المجال السياسى (موضوع الفصل الرابع) أو فصلها عن المجال الإجتماعى (موضوع الفصل الخامس).

ولكن هذه الملحوظات الشكلية التى أشرنا إليها سواء بالنسبة لهذا الفصل أو الفصول السابقة لا تقلل من قريب أو من بعيد من أهمية هذا الكتاب الذى بذل فيه مؤلفنا الفاضل الدكتور عبد العزيز شرف، جهداً وجهداً كبيراً. لقد كان المؤلف موفقاً تمام التوفيق فى اختيار موضوعه، موضوع طه حسين وزوال المجتمع التقليدى. ولا يخفى علينا عظمة طه حسين، وريادة طه حسين، والتنوير الذى تمسك به طه حسين. كان المؤلف موفقاً تماماً فى دراسته التى قدمها لنا. هذه الدراسة الأكاديمية الجادة. إنها دراسة من طراز ممتاز. طراز أكاديمى دقيق. دراسة لا غنى عنها للمشتغلين والمهتمين بفكرنا العربى الحديث عامة والفكر الخاص بطه حسين. دراسة قدمت لنا العديد من الزوايا والأبعاد والمجالات وبحيث لا يستغنى عنها الدارس لفكر طه حسين من قريب أو من بعيد. ويقينى أن القراء سيجدون فيها مجالات جديدة مبتكرة. إنها دراسة غير نمطية وغير تقليدية، بل إنها من نوع الدراسات التى تبحث فى مجالات جديدة غير مطروقة. نقول هذا رغم اختلافنا – وكما سبق أن أشرنا – مع مؤلفها حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها بين ثنايا صفحات دراسته الهامة لفكر طه حسين.

الفصل العاشر

أحمد لطفى السيد وكتاب تذكارى عنه

أستاذ الجيل: أحمد لطفى السيد وكتاب تذكارى عنه

يحتل أحمد لطفى السيد مكانة كبيرة فى تاريخنا الفكرى العربى المعاصر. إنه علم بارز من أعلام فكرنا المصرى العربى المعاصر. عالم وضع بصماته البارزة على تاريخ حركة التنوير المعاصرة، ليس فى مصر فقط، بل فى غيرها من بلدان العالم العربى.[1]

هذا المفكر الذى من حقنا كمصريين وكعرب أن نفخر ونتفاخر بالدور الكبير والبناء الذى قام به نظراً وعملاً. فكم أثرى عقولنا ووجداناتنا بدراساته الرائدة ومواقفه الشجاعة الأصيلة.

فالدارس لتاريخ مفكرينا المعاصرين، والمتأمل فى الخريطة الثقافية لمصر المعاصرة، لا يمكنه أن يتخطى لطفى السيد ودوره البارز فى تشكيل أبعاد حياتنا الثقافية والفكرية. وكم كان مفكرنا حريصاً على التنوير فى عالمنا العربى، عن طريق إحياء الفكر الأوروبى، وعن طريق نشر الفكر العلمانى الوطنى المتنور.

لقد ترك لنا أحمد لطفى السيد الكثير من الكتابات والآراء والنظريات والتى تم جمعها فى كتب عديدة من بينها المنتخبات، وتأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والإجتماع، بالإضافة إلى قصة حياتى، والتى عرض فيها لحياته على اختلاف مجالاتها وأبعادها.

من أجل هذا كانت لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة حريصة على إبراز الدور الكبير الذى قام به، فقامت بإصدار كتاب تذكارى عن أستاذ الجيل

[1] يمكن الرجوع إلى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر. الفصل الخاص بهذا المفكر. وراجع أيضاً كتاب. الفكر المصرى الحديث بين النقض والنقد للدكتور عصمت نصار.

أحمد لطفي السيد تحت إشراف الدكتور يحيى هويدى عضو لجنة الفلسفة والإجتماع.

تبلغ صفحات الكتاب ٢١٨ صفحة. وقد طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية بالقاهرة.

وينقسم الكتاب إلى قسمين رئيسيين: قسم ضم مجموعة من المقالات، تعرض كل مقالة لجانب من جوانب فكر أحمد لطفي السيد. وقسم ثان يضم مجموعة من النصوص المختارة من كتب أحمد لطفي السيد.

وجدير بالذكر أن صاحب فكرة إصدار هذا الكتاب، المفكر العربى الكبير، الدكتور زكى نجيب محمود وذلك أثناء رئاسته للجنة الفلسفة. كما أنه كان صاحب فكرة تقسيم الكتاب إلى قسمين على النحو الذى أشرنا إليه، وذلك حتى يعرف القارئ آراء لطفي السيد من جهة، وكيف كان يعالج أى فكرة يتصدى لدراستها من خلال نصوصه هو من جهة أخرى. وقد أسهمت من جانبى فى اختيار هذه النصوص.

أما القسم الأول فقد تضمن المباحث الآتية وعددها ست مباحث:

١- لطفي السيد وشئ من الذكريات، بقلم الدكتور إبراهيم بيومى مدكور.

٢- لطفي السيد وآراؤه السياسية - بقلم الدكتور يحيى هويدى.

٣- لطفي السيد وآراؤه التربوية للدكتور حسين فوزى النجار.

٤- لطفي السيد... فيلسوفاً بقلم الدكتورة أميرة حلمى مطر.

٥- أثر لطفي السيد فى الثقافة المصرية بقلم صاحب هذه السطور النقدية.

٦- لطفي السيد والمرأة بقلم الدكتورة سامية حسن الساعاتى.

ونود قبل أن نشير إلى محتويات القسم الثانى، وهو الخاص بالنصوص، أو المختارات من كتب لطفى السيد، أن نعرض بإيجاز لأبرز الأفكار التى نجدها فى كل دراسة من الدراسات التى سبق أن أشرنا إليها منذ قليل.

قام بالتصدير لهذا الكتاب، المشرف عليه، الأستاذ الدكتور يحيى هويدى. وقال فى بداية تصديره للكتاب:

هذا هو الكتاب الثانى الذى يصدر عن لجنة الفلسفة والإجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة فى إطار مشروع "تكريم الشوامخ" الذى أخذت على عاتقها إنجازه منذ سنوات، وظهر لها فيه عام ١٩٨٢م كتابها الأول عن الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق مفكراً وأديباً ومصلحاً. وقد رأت اللجنة أن توقف كتابها الثانى الذى تصدره اليوم على دراسة للجوانب المختلفة فى حياة ومواقف وفكر أحمد لطفى السيد، الملقب بأستاذ الجيل. والكتاب بالصورة التى ظهر عليها يضم ست مقالات كتبها أساتذة متخصصون عالجوا فيها آراء لطفى السيد وإسهاماته فى مجالات الفكر الفلسفى والسياسى والإجتماعى والتربوى وأثره فى الثقافة المصرية بوجه عام، يتصدرها مقال الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور الذى تناول فيه ذكرياته مع لطفى السيد. (ص٣ من التصدير).

كما أشار الدكتور يحيى هويدى فى تصديره إلى أسباب تخصيص قسم ثان عن النصوص المختارة من كتب لطفى السيد، فقال: وقد ظهرت آثار وأعمال أحمد لطفى السيد الفكرية أول ما ظهرت فى صورة مقالات صحفية يتعذر على قارئ اليوم الظفر بها، حتى بعد أن جمعت فى كتب نفدت اليوم معظم طبعاتها، وهى كتاب "تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والإجتماع"، وكتاب "المنتخبات" فى جزئين، وكتاب "صفحات مطوية" وكتاب "قصة حياتى". لهذا رأت اللجنة استكمالاً للفائدة المرجوة أن تزود القارئ بمجموعة من النصوص الحية التى أحسن اقتباسها، مكتوبة

بأسلوب لطفى السيد نفسه... لتكون فى حد ذاتها شاهداً... على العناية الفائقة التى بدت من هذا الصرح الثقافى الشامخ فى اختيار أسلوبه الخاص به فى الكتابة: الغوص على ألفاظ بعينها، ونحت تعبيرات بذاتها... هذا إلى جانب نص مقتبس من المقدمة التى كتبها لطفى السيد لواحدة من الترجمات التى قام بها لكتب أرسطو فى الفلسفة والسياسة والأخلاق، والتى كان له فضل تعريف القارئ العربى بأرسطو عن طريقها.[1] (ص٤ من التصدير).

أما مقالة الدكتور إبراهيم بيومى مدكور فكان عنوانها كما سبق أن أشرنا، شئ من الذكريات. وقد سرد الدكتور مدكور العديد من الذكريات التى تربطه بأحمد لطفى السيد كما عرض لمجموعة من مآثره وأفضاله على الثقافة المصرية العربية. لقد التقى الدكتور مدكور بأحمد لطفى السيد لأول مرة عام ١٩٣٥م حين عاد من بعثته بفرنسا، وكان لطفى السيد فى ذلك الوقت مديراً لجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن).

ويستمر الدكتور مدكور فى حديث الذكريات حتى ينتهى فى آخر حديثه إلى الإشارة إلى أمرين، وذلك حين يقول (ص٧، ص٨): أولهما أنه طلب إلى عام ١٩٤٦م أن أنضم إلى مجمع اللغة العربية فقلت له أليس هذا مبكراً بعض الشئ، وكان رده: البركة فى البكور. وسعدت برأيه وتوجيهاته ورياسته لجلسات المجمع ومؤتمره طوال ١٧ عاماً. وقد تحدث المجمعيون عن هذا كثيراً ولا يزال مجال القول فيه ذا سعة، وفى وسعى أن أقرر أن لطفى السيد يعد فى مقدمة بناة مجمع اللغة العربية فى درسه وبحثه فى جلساته ومناقشاته، فى تقاليده المجمعية التى نعتز بها اليوم. أما الأمر

---

[1] اقترح الدكتور زكى نجيب محمود بأن تكون لجنة اختيار نصوص أحمد لطفى السيد مكونة من الدكتور يحيى هويدى ومن كاتب هذه السطور. وقد شرفت بهذا الإقتراح أو التكليف من جانب الدكتور زكى نجيب محمود، وذلك طوال فترة عملى مع الدكتور يحيى هويدى فى اختيار مجموعة من النصوص التى تمثل جوهر أفكار لطفى السيد.

الآخر فهو إعجابه الشديد بحركة الضباط الأحرار وثورة سنة ١٩٥٢م. وقد قال فيها حملته المشهورة: "لأول مرة تحكم مصر بأبنائها". وعرف له رجال الثورة هذا التأييد واعتزوا به اعتزازاً كبيراً. ويوم أن خلا مكان رئيس الجمهورية بعد اللواء محمد نجيب، عرض على لطفى السيد أن يخلفه، وأظن أن كثيرين لا يعرفون هذا العرض. وقد حدثني عنه في حينه وتذاكرنا في الأمر طويلاً وكان قراره أن هؤلاء الشبان بدأوا الشوط ويجب أن يسيروا في طريقهم إلى النهاية. وهكذا كان لطفى السيد موضوعياً دائماً في نظرته إلى الأمور ولم يفكر قط في مصلحة خاصة أو مغنم مباشر.

هذه نماذج من ذكريات الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور عن لطفى السيد. وكنا نود أن يذكر لنا الدكتور مدكور العديد من الذكريات وخاصة أن الدكتور مدكور قد عاصره فترة طويلة اقتربت من الثلاثين عاما، فإن في هذه الذكريات ما يعطى القارئ فكرة عن شخصية المفكر الكبير لطفى السيد وبعض آرائه.

وينتقل الكتاب التذكارى عن لطفى السيد من الحديث عن الذكريات التى ذكرها الدكتور إبراهيم مدكور، إلى تحليل الآراء السياسية عند لطفى السيد. وهذا هو موضوع دراسة الدكتور يحيى هويدى في هذا الكتاب التذكارى.

ويبين لنا الدكتور يحيى هويدى جوهر الفكر السياسى عند لطفى السيد وذلك منذ السطور الأولى من دراسته. فهو يقول: (ص١١): السياسة عند أحمد لطفى السيد أداة لتطبيق الفكر. أما ركيزتها التى تقوم عليها فهى الأخلاق. وأفكار لطفى السيد السياسية لم تكن جديدة بالنسبة إلى الفكر العالمى، لكنها كانت كذلك بالنسبة إلى الفكر المصرى فالمناداة بالحرية والديمقراطية والنظر إلى الأمة على أنها مصدر السلطات والمطالبة بالدستور والدعوة إلى القومية والنفور من الإستبداد كلها مسائل حمل لواءها لطفى السيد في مصر، وسمعها الناس منه مأخوذين بها، لكنها كانت قد أصبحت من بداهات الأفكار السياسية في معظم البلاد الأوروبية الدستورية، ومع

هذا فإن المناداة بها فى مصر على يد لطفى السيد أكسبها طعماً خاصاً، وأصبحت هى وإسمه متلازمتين. وتتركز الآراء السياسية عند أحمد لطفى السيد حول محاور ثلاثة: الحرية – الديمقراطية – القومية.

وقد حاول الدكتور يحيى هويدى تحليل كل محور من هذه المحاور تحليلاً دقيقاً. وكنا نود طالما أن الدكتور يحيى هويدى قد ربط بين السياسة والفكر عند لطفى السيد أن يبين لنا أبعاد الإتجاه العلمانى عند لطفى ال سيد، إذ من الواضح أن لطفى السيد – وكما سبق أن أشرنا – له اتجاه علمانى وطنى واضح.

أما مقالة الدكتور حسين فوزى النجار فكانت – كما أشرنا فى أول المقالة – عن لطفى السيد وآرائه التربوية. والدكتور حسين فوزى النجار اهتم منذ سنوات طويلة بأفكار لطفى السيد وقد سبق أن أصدر كتاباً عنه فى سلسلة أعلام العرب ١٩٦٥م وبعد وفاة لطفى السيد بقليل.

ويحاول الدكتور حسين فوزى النجار أن يشير إلى كثير من الأفكار أثناء دراسته لآراء لطفى السيد كما يشير إلى العديد من الشخصيات أمثال مصطفى كامل ومحمد عبده وقاسم أمين ورفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى وأحمد عرابى ومحمد على وعلى مبارك وسعد زغول.

ويقول الدكتور حسين فوزى النجار فى معرض بيانه لأهمية الجوانب التربوية عند لطفى السيد: (ص٣٤): وكان التفكير فى التعليم والعمل على نشره والإرتقاء بوسائله وطرقه ومناهجه، بعض ما شغل قلوب المصريين وعقولهم، وكان امتداداً من الناحية العملية لحاجة الدولة. ومن الناحية العقلية لرغبة المجموع فى الإرتقاء. ومن الناحية العاطفية لإحساس المجموع بالحاجة إليه. ويجمع هذا الإحساس بين الجانبين العملى والعقلى والجانب العاطفى. فإن وقف عند جانب من هذه الجوانب كانت حاجته إلى فلسفة فى التربية هى التى تنير له السبيل إلى هذه

الجوانب الثلاثة. وكان لطفى السيد هو الذى أخذ يضفى على هذه الجوانب فلسفته العقلية، وكان فى فلسفته التربوية امتداداً لما كان ينشده رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك بل وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده.

ويتابع الدكتور حسين فوزى النجار تحليله للأفكار التربوية عند لطفى السيد. وقد رجع فى سبيل ذلك إلى العديد من كتاباته، وإن كنا نلاحظ أن الدكتور حسين فوزى النجار قد غلب عليه فى دراسته الجانب التاريخى أساساً. ولكن هذا لا يقلل كثيراً من دراسته لهذا المجال، أى المجال التربوى.

أما الحديث عن أحمد لطفى السيد فيلسوفاً فكان موضوع دراسة الدكتورة أميرة حلمى مطر (من ص٣٩ حتى ٤٦ من الكتاب). وقد حللت الدكتورة أميرة فى دراستها جوانب اهتمام لطفى السيد بالفكر الفلسفى ومن بينها اهتمامه بترجمة كتب أرسطو.

وتقول الدكتورة أميرة مطر فى دراستها: (ص ٤٣): "غير أن دعوته لنهضة التعليم وحرية الفكر تجاوزت حدود الإصلاحات الجزئية وتعمقت جذورها لكى تنتظم فى فلسفة متكاملة يحوطها إيمان راسخ بضرورة إرساء الأسس الفلسفية لنهضة فكرية متسقة الأركان، ولهذا نمضى فى الحديث عن ضرورة الكشف عن المنابع والأصول التى اعتمدت عليها كل نهضة علمية وثقافية. ومن هنا كان أن عكف على ترجمة الأصول الفلسفية إذ رأى أنها تشق الطريق بعد ذلك لحركة التأليف وتمهد لها على نحو ما حدث إبان العصر الذهبى للترجمة فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى وعلى ضوء ما حدث أيضاً فى عصر النهضة الأوروبية.

وهكذا تحلل الدكتورة أميرة مطر مجالات اهتمام لطفى السيد بالفكر الفلسفى وخاصة موضوع الترجمة. وإن كنا نلاحظ أن هذا كله لا يبرر - كما جاء فى

عنوان الدراسة - إطلاق إسم الفيلسوف على لطفى السيد، إذ أننا لا نجد فلاسفة فى عالمنا العربى منذ وفاة ابن رشد وحتى الآن، أى منذ ثمانية قرون على وجه التقريب.

أما مقالة، كاتب هـذه السطور، فكـان موضوعها - كما سبق أن أشرنا - أثر لطفى السيد فى الثقافة المصرية. ويقـول صاحب المقالـة: (ص٥٩): لقد أثرت أفكار لطفى السيد تأثيراً لا حد له فى ثقافتنا المصرية ولا نستطيع أن نتغافل عن دعوته للقومية المصرية كبديل للقومية الإسلامية. لا نسـتطيع أن نتغـافل عـن دعوتـه إلى الحرية والإلتزام بـها فـى كـل أمـور الحيـاة سـواء أكـانت أجتماعيـة أو سياسـية أو اقتصادية. لا نستطيع أن نتغافل عن اتجاهه العقلى إلى حد كبير، ذلك الإتجاه الذى يظهر من خلال العديد من مقالاته فى الجريدة، والذى يظهر بأوضح صورة فى إقدامه على ترجمة أكثر من كتاب لأرسطو وفى مقدماته الرائعة التى كتبها كتصدير يسبق الترجمة لهذا الكتاب أو ذاك من كتب أرسطو.

وموضوع مقالة الدكتورة سامية حسن الساعاتى، كانت عن لطفى السـيد والمرأة. وهذا الموضوع الذى اختارته الباحثة يعد موضوعاً هاماً، إذ مـن الواضح أن مفكرنا لطفى السيد قد اهتم ببيان أن الثقافة إذا كانت حظاً مشتركاً للبنين والبنات، فإنه ليس من المناسب أن يقتصر القبول فى الجامعة على البنين دون البنات. ومن هنا نجد لطفى السيد يبذل أقصى جهده لفتح باب القبول فى الجامعة للفتيات وهذه لم تكن خطوة سهلة فى الزمن الذى عاش فيه لطفى السيد. وإذا كنا نجد الآن آلاف الفتيات يتخرجن من الجامعة، فإننا لابد أن نذكر دواماً مجهودات مفكرنا لطفـى السيد. هذا كله يدلنا على أن لطفى السيد فى نظرته للجامعة إنما كان يؤمن أساساً بأن للجامعة دورها فى تشكيل الثقافة المصرية، ودورها فى إثراء حياتنا الفكرية ثراء بغير حدود. لها إسهاماتها البارزة فى مجال التنوير، تنوير عقـول ووجدان أبناء أمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها.

قلنا إن الدكتورة سامية الساعاتى قد اختارت موضوع لطفى السيد والمرأة مجالاً لدراستها بالكتاب التذكارى عن هذا المفكر. وقد حللت كاتبة الدراسة العديد من الأبعاد التى تدخل فى مجال المرأة من قريب أو من بعيد وذلك عن طريق الرجوع إلى العديد من كتابات أحمد لطفى السيد حول هذا الموضوع ومن بينها كتابه "المنتخبات" والذى ورد فيه وفى غيره من كتب له الحديث عن أمهاتنا وبناتنا، الحديث عن صلاح العائلة وكيف يؤدى إلى صلاح الأمة، وسعادة النساء، والمرأة فى البلاد العربية، والحركة النسائية فى مصر.

وتختتم الدكتورة سامية الساعاتى دراستها بتلخيص أهم وجهات نظره فى مجال المرأة، وذلك حين تقول: (ص ٨٨، ٨٩): يتبين لنا أننا بحق أمام رجل سبق عصره. رجل عاش المستقبل. رجل نادى بتعليم المرأة المصرية ومنحها الحرية كالرجل تماماً، فى مطلع هذا القرن، كما نادى به فى أواخر هذا القرن ذاته. إن أحمد لطفى السيد من أكبر رواد تحرير المرأة المصرية، وإن لم يأخذ حظه من الشهرة والمعرفة فى هذا المجال... ومما يلفت النظر وبخاصة بالنسبة للمتخصصين فى علم الإجتماع، أن لطفى السيد كان اجتماعياً من الطراز الأول. فهو يضع يده فى مقالته: "بناتنا وأبناؤنا" على أهمية القيم والعادات المصرية الأصيلة فى حياتنا، وضرورة أن تمزج الفتاة المصرية المتعلمة بين عاداتها وقيمها الأصيلة، وبين قيم التمدن الحديثة. كما يلمس فى مقالته: "لا تضيقوا عليهن" أهمية دور الأم كمربية لجيل بأسره، وأن الأم لا تعطى ولدها من الأخلاق إلا ما لديها... كما يظهر حسه الإجتماعى الذكى فى مقالته "الحركة النسائية فى مصر" الذى توج به كتاباته عن المرأة المصرية، فشرح هدف الحركة، وحلل أبعاد النجاح والفشل، حتى بين أنها أصبحت حقيقة واضحة، ثم أظهر فى مقالته أنه يعى أن هناك بعض مظاهر الخلل أو الإضطراب الإجتماعى الذى حدث كنتيجة للحركة النسائية فى مصر، ولكنه بشر بأن

هذا الإضطراب وقتى تقتضيه ضرورات التغير والتطور الإجتماعيين، وهذا ما حدث بالفعل.

لقد بذلت الدكتورة سامية الساعاتى جهداً واضحاً فى دراستها، وإن كنا نلاحظ أنها اعتماداً على الموسوعة العربية الميسرة قد ذكرت أن أحمد لطفى السيد مفكر وفيلسوف عربى. ومن الأفضل – فيما نرى من جانبنا – الإقتصار على وصفه بأنه مفكر ولا يوجد مبرر لأن نطلق عليه لقب "فيلسوف عربى". وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع منذ قليل. ولكن ماذا نفعل حيال النساء فى لجوئهن إلى المبالغة والتهويل؟

كما كان من الضرورى الإشارة وعلى سبيل المقارنة إلى سلبيات الحركة النسائية فى مصر الآن وطرح مجموعة من التساؤلات حول ما يحدث الآن فى مجال قتل الزوجات للأزواج، وكيف يقضى الزواج على إبداع الرجل قضاء مبرماً... إلى آخر هذه التساؤلات.

هذا عن القسم الأول من الكتاب التذكارى والذى ضم كما قلنا مجموعة من الدراسات. أما القسم الثانى، فهو القسم الخاص بالنصوص، كما سبق أن أشرنا فى بداية المقالة. وقد ضم هذا القسم بعض النصوص المختارة من كتاب قصة حياتى، وكتاب تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والإجتماع، وكتاب المنتخبات، وكتاب صفحات مطوية من تاريخ الحركة الإستقلالية فى مصر، الجريدة، وأيضاً نص من تصديره لترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو.

وإذا كان جوهر فكر لطفى السيد إنما يتمثل فى فكره الحرية. فإننا نذكر جزءاً من نص له موضوعه الحرية ومذاهب الحكم وهذا النص موجود بالجزء الثانى من كتابه المنتخبات (ص٦٠ وما بعدها) الحرية غرض الإنسان فى الحياة. كانت ولا تزال هواه الذى طالما قدم له القرابين، وأنفق فى سبيله أعز شئ عليه. أنفق فى

سبيله المال والجاه والروح. كانت ولا تزال أشرف عمل يرضى به الرجل. وأعلا وصف يبغيه لنفسه. من تقاليدنا القديمة وعاداتنا الحديثة، أن يمدح الرجل بأنه رجل حر من قوم أحرار، وأن يذم بأنه عبد من قوم عبيد. ذلك أن الحرية قاعدة الفضيلة، ومناط التكاليف. فأى إنسان خمدت فى صدره نار الحرية أظلمت جوانب عقله من شعاعها الساطع، جدير بأن لا يعتبر إنساناً وأن تسقط عنه تكاليف الحياة. ولئن وصفنا ما وصفنا من شوق الإنسان إلى الحرية، فلا نبلغ من إثباته ما بلغته من الحياة. الحوادث الحسية التى تقع من الأفراد والأمم، دالة على أن الحرية هى الحياة، بل أعز، والحس أصدق من الكتب. والواقع أبلغ فى الدلالة من فكر الكتاب وخيال الشعراء. (ص ١٤٢ فى الكتاب التذكارى).

والواقع أن لطفى السيد - رغم ما فى بعض كتاباته من أمثلة وصفية إنشائية بلاغية - استطاع التعبير بعمق عن كثير من الأفكار والآراء التى تصدى لها بالبحث والدراسة. هذا كله يدلنا على أن المجلس الأعلى للثقافة كان موفقا - عن طريق لجنة الفلسفة والإجتماع - تمام التوفيق حين فكر فى إصدار هذا الكتاب التذكارى الهام. الكتاب الذى يحلل العديد من أبعاد فكر أحمد لطفى السيد، وهو من هو فى ميدان التنوير والتجديد والثقافة الإنسانية الرفيعة. ذلك الرجل الذى قال عنه طه حسين فى حفل تأبينه بمجمع اللغة العربية (مجلة المجمع - جزء ١٨): "ومهما أقل ومهما أكتب، فلن أستطيع أن أصور كما ينبغى - تأثير هذا الأستاذ الجليل فيمن كان يختلف إليه مثلى من الشباب. فقد أحيانا حياة جديدة، وفتح أمامنا من الآفاق ما لم يستطع أحد غيره أن يفتح أمام الشباب"

ونرجو أن يكون هذا الكتاب التذكارى عن مفكرنا الكبير أحمد لطفى السيد منبها للأذهان إلى حقيقة الدور الذى قام به هذا المفكر الكبير فى تاريخنا الفكرى العربى المعاصر. الدور الذى لا يمكن لإنسان منصف أن يتخطاه. ومن أراد لنفسه أن يتخطى أو يهمل هذا الدور، فإننى أعتقد أن وقته سيكون ضائعاً عبثاً. ولكن ماذا نفعل ونحن فى حياتنا الثقافية نعيش كالصراصير وليس كالنمل والنحل.



الفصل الحادى عشر

كتاب التعادلية لتوفيق الحكيم

برؤية نقدية

كتاب التعادلية لتوفيق الحكيم برؤية نقدية[1]

يمكننا القول بأن توفيق الحكيم، وسواء اتفقنا معه أم اختلفنا، يحتل مكانة بارزة، مكانة كبرى فى تاريخ فكرنا العربى المعاصر. لقد وضع الرجل الذى رحل عنا منذ أسابيع قليلة بصماته البارزة على تاريخ الأدب وتاريخ المسرح فى كل أرجاء عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه. لقد أثار مفكرنا العديد من القضايا الأدبية والمسرحية وبحث فيها بعمق واستفاضة. ومن يحاول إهمال الدور الكبير الذى قام به مفكرنا العملاق توفيق الحكيم، أو يحاول التقليل من أهمية القضايا التى أثارها، فإن وقته يعد ضائعاً عبثاً. لقد عاش توفيق الحكيم طوال حياته كالشعلة المضيئة التى يسير على هديها أو نورها الإنسان، وقال بآراء تعد غاية فى الثراء الفكرى والتأمل الفلسفى ومن هنا كان من واجبنا كمفكرين وأدباء تسليط الأضواء عليها والبحث عن جوهرها وحقيقتها.

وإذا كان من الصعب، بل من المستحيل أن نقوم بتحليل كل الجوانب الفكرية عند أديبنا ومفكرنا توفيق الحكيم، فى حدود النطاق المرسوم لهذه الدراسة، فإننا سنركز أساساً على البحث فى تعادلية توفيق الحكيم. فالتعادلية التى يقول بها توفيق الحكيم إنما تعد تعبيراً عن اتجاهه إلى حد كبير. لقد جاء كتابه "التعادلية" إجابة عن سؤال وجهه إليه أحد القراء، كما أنها تعد تعبيراً عن مذهبه فى الحياة والفن كما يقول توفيق الحكيم، وحاول من خلالها البحث فى وضع الإنسان فى الكون، ووضع الإنسان فى المجتمع.

وقد حاول توفيق الحكيم الإشارة إلى العديد من مسرحياته والتى - فيما يقول - تعد تعبيراً عن البحث فى التعادل. فالتعادل واختلاله بين العقل والقلب فى

---

[1] راجع ما كتبناه عن توفيق الحكيم فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر - القاهرة - دار قباء.

إطار مشكلة الزمن، كان موضوع مسرحية أهل الكهف. والتعادل واختلاله بين الفكر المطلق ممثلاً فى شهريار، والإيمان العاطفى ممثلاً فى "قمر" متحركاً فى إطار مشكلة المكان ودورته كان موضوع مسرحية "شهرزاد". والتعادل بين القدرة والحكمة وثباته واختلاله كان موضوع مسرحية "سليمان الحكيم" وهكذا إلى أخر الأمثلة والتى سنقوم بتحليلها فيما بعد، أمثلة يذكرها توفيق الحكيم كمحاولة من جانبه لإثبات أن مذهبه فى الفن والحياة إنما يعد تعبيراً عن فكرة التعادلية. وهى فكرة لا تعبر عن خط مستقيم بقدر ما تعبر عن دور أو دورة أو دائرة. فكرة لا تعد فكرة سلبية تماماً، بل فيها روح التحدى والنضال. وكم نجد العديد من الأمثلة التى يذكرها الحكيم فى مسرحياته وفى كتابه "التعادلية" والتى يدافع فيها عن فكرة الدورة أو الدائرة، كما يحلل فكرة النضال أو التحدى.

والواقع أن فكرة التعادلية والتى يرى توفيق الحكيم أنها تعد معبرة عن مذهبه فى الفن والحياة وعن وضع الإنسان فى الكون ووضعه فى المجتمع، إنما تثير العديد من الإشكالات بل التناقضات. ومن هنا وجب علينا أن ننظر إلى توفيق الحكيم سواء من خلال هذه الفكرة، أو من خلال بقية أفكاره وآرائه الأخرى، ننظر إليه كفرد من أفراد البشر، وليس كقديس. إذ سيتبين لنا أن هذه الفكرة، فكرة التعادلية، إنما تعد فكرة لا تقدم حلاً أو إجابة للعديد من المشكلات التى يبحث فيها الأديب أو المفكر أو الفنان، كما أنها قد تعد نوعاً من التوفيقية أو التلفيقية الزائفة، بل إن فكرته نفسها، فكرة التعادلية لا تعد شيئاً جديداً قام الحكيم باكتشافه، بل إن أكثر جذورها وجوانبها وأبعادها إنما كانت مجالاً للبحث عند كثير من المفكرين منذ آلاف السنين. ولكن هذا لا يقلل بوجه عام من أهمية الأمثلة التى يذكرها توفيق الحكيم والتى نجدها فى كتابه التعادلية وفى كتب أخرى ومسرحيات ومن بينها عودة الروح، وفن الأدب، وتحت شمس الفكر، ومن البرج العاجى، وتحت المصباح

الأخضر، وثورة الشباب، وقلت ذات يوم، وملامح داخلية. وعلى القارئ أن يرجع إلى هذه الكتب والمسرحيات وغيرها إذا أراد المزيد من التفصيلات سواء من حيث الفكرة أو من حيث تطبيقاتها.

قلنا إن توفيق الحكيم يبلور فكرة التعادلية حول دراسة وضع الإنسان فى الكون، ووضع الإنسان فى المجتمع.

إنه يتساءل عن الإنسان ويرى أن هذا السؤال يعد قديماً قدم التفكير الآدمى، كما يعد جديداً ما بقى التفكير الآدمى فى هذا الكون. إنه سؤال تحاول الإجابة عنه كل علوم الأرض وفلسفاتها وفنونها وآدابها. والجواب لا يمكن أن يكون قاطعاً أو حاسماً لأن السؤال نفسه يعد غامضاً، لأنه وليد أبوين غامضين وهما الإنسان والتفكير.

ولا يعطينا توفيق الحكيم إجابة محددة عن سؤال هو: ما الإنسان. إنه يفترض أن الإنسان هو المخلوق المعروف لنا جميعاً والذى يعيش فوق هذه الكرة الأرضية. إنه يعيش على هذه الأرض ومن هنا توجد صلة أو مشاركة بينه وبين الأرض.

والأرض تعد كرة تعيش بالتوازن أو التعادل بينها وبين كرة أضخم هى الشمس. فإذا اختل هذا التعادل، ابتلعتها الشمس أو ضاعت فى الفضاء. فالتعادل إذن هو الحقيقة الأولى والرئيسية لحياة الأرض.

وينطبق هذا التعادل على العمليات الحيوية التى يقوم بها الإنسان. فالتنفس يعد حركة تعادل بين الشهيق والزفير. وهكذا إلى آخر العمليات المادية البيولوجية وما يقال عن هذا النمط من الحياة، يقال أيضاً عن الحياة الروحية السليمة. إنها تعادل بين الفكر والشعور. واختلال هذا التعادل يؤدى إلى الأمراض العقلية والعصبية.

الإنسان إذن كائن متعادل مادياً وروحياً. بل كل الكائنات التى تحملها هذه الأرض المتعادلة، تتعادل هى أيضاً كأمها فى تركيبها، تعادلاً هو سر حياتها. إن الكائنات كلها من نبات وحيوان وإنسان تخضع لقانون التعادل فى تركيبها البيولوجى والكيميائى والطبيعى.

هذا ما يقول به توفيق الحكيم من جهة الإيمان "بالكائن المتعادل" و"الكون المتعادل" وهذا القول من جانبه أقرب إلى المقدمة أو المقدمات العامة والتى سيرتب عليها فكرة التعادلية فى مجال الأدب والفن.

وما نلاحظه من جانبنا أن توفيق الحكيم فى تلك المقدمات العامة والتى يتحدث من خلالها عن قانون التعادل، والكون المتعادل... إلى آخر تلك الأفكار، إنما كان يركز على وجه واحد فقط يحاول من خلاله تأكيد ما سيتوصل إليه من القول بالتعادلية فى مجال الأدب والفن. والقارئ للأمثلة التى يذكرها الحكيم والتى أوردنا نماذج منها قد يتساءل قائلاً: ألا يوجد فى الكون ما يهدم هذا التعادل. هل القول بالتعادل يعد مسألة بديهية وذلك فى الوقت الذى نجد فيه الزلازل والبراكين والأوبئة. إن دعوة توفيق الحكيم من خلال قوله بالتعادلية فى الكون تعد دعوة لا أساس لها وكان الأجدر بتوفيق الحكيم ذكر الأدلة المناهضة لرأيه، بل كان من الأفضل عدم الربط بين التعادلية فى الكون، والتعادلية التى يقول بها فى الأدب والفن. وكم نجد فى الدعوات التوفيقية والوسطية تفسيرات لا تخلو من نزعة تفاؤلية، نزعة لا تخلو من تبسيط المشكلة أكثر من اللازم. ولو كان توفيق الحكيم قد جنب نفسه فى نظرته للكون هذه النزعة التعادلية التفاؤلية الوسطية، ونظر إلى الكون وبالتالى الإنسان، نظرة أساسها الشر والألم والضياع والتشاؤم، لجاء أدبه أكثر عمقا، ولكنه لم يفعل ومن هنا جاء دفاعه عن آرائه لا يخلو من تعسف تارة وتردد بين الآراء والمذاهب تارة أخرى. وليرجع القارئ إلى بعض الأحكام النقدية حول أدب توفيق

الحكيم وخاصة التى قال بها النقاد الغربيون، وليرجع أيضا إلى آرائه والتى لا تخلو من نوع من التضارب حول قضايا: الفن للفن أم الفن للمجتمع، ونظرته إلى المرأة وهل كان عدوا لها أم كان مؤيدا لها ومدافعا عنها ومن بين الكتب التى تثير هذا الجدل حول هذه القضايا، عودة الروح، وتحت شمس الفكر، وفن الأدب، عودة الوعى. وهذه القضايا تتعلق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بقواعد العمل الأدبى الفنى، والأسس الفكرية للعمل الأدبى، ومتى يكون العمل الأدبى محليا ومتى يكون عالميا. أذكر أننى منذ خمس سنوات أثرت على صفحات إحدى جرائدنا اليومية قضية جوائز نوبل وقضية المحلية والعالمية، وهل يعد أدبنا أدبا محليا أم أن بعض أعمالنا الأدبية والفنية تعد أعمالا داخلة فى النطاق العالمى وبحيث تتجاوز النطاق المحلى الضيق.

إننى حين أثرت هذه القضية، تفضل توفيق الحكيم بإهدائى نسخة من كتابه "ملامح داخلية" وهذا الكتاب الذى قدم له توفيق الحكيم وأشترك فى تأليفه مجموعة من النقاد والكتاب، يشير فى بعض صفحاته إلى هذه القضية، قضية الأدب المحلى والأدب العالمى.

وإذا كانت تعادلية توفيق الحكيم تعد ثمرة لإستفادته من العديد من التيارات والأفكار التى نجدها بطريقة أو بأخرى عند مفكرين وأدباء سبقوه، إلا أنها من جهة أخرى تعد تعبيرا عن اجتهاد من جانب أديبنا ومفكرنا توفيق الحكيم وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أنه التزم بها فعلا فى بعض مسرحياته وكتاباته. وإذا أخذنا فى اعتبارنا أيضا أن توفيق الحكيم ككاتب شرقى عربى لابد وأن تجذبه فكرة التضاد من جهة، وإمكانية التوفيق بين المتضادين من جهة أخرى. فكرة الأصالة والمعاصرة، فكرة القلب والعقل، فكرة الدين والعلم.

أذكر أن توفيق الحكيم كان من أبرز المهتمين بكتاب الشرق الفنان لزكى نجيب محمود، والذى نجد فيه الخطة أو مشروع العمل الذى التزم به زكى نجيب محمود فى تجديده للفكر العربى ومحاولته حل مشكلة الأصالة والمعاصرة. أذكر أيضاً أن توفيق الحكيم حين وجه إلى زكى نجيب محمود على صفحات إحدى جرائدنا اليومية، تحية بمناسبة عيد ميلاده الثمانين، وهى التحية التى تفضل فيها بالإشارة إلى كتاباتى عن زكى نجيب محمود، أذكر أن توفيق الحكيم لم يركز فى حديثه عن زكى نجيب محمود إلا على قضية الأصالة والمعاصرة.

هذه كلها أمور ومسائل لابد أن نضعها فى اعتبارنا إذا أردنا تفسير تعادلية توفيق الحكيم تفسيراً أقرب إلى الصحة والصواب. إن تعادليته من خلال عديد من مسرحياته كأهل الكهف والسلطان الحائر وأوديب وغيرها من مسرحيات اهتم من خلالها بالتعبير عن هذه الفكرة، إنما تعد تأثراً من جانبه بالفكر المصرى القديم (فكرة الخلود) والفكر اليونانى (فكرة التناسب أو الإنسجام أو الهارمونى). أما أقواله عن التعادلية والإسلام، ومحاولة الربط بين فكرة التعادلية عنده، وفكرة الوسط فى الإسلام، فإنها لا تمثل تياراً رئيسياً فى فكرة التعادلية عنده. وكم أخطأ عديد من الباحثين فى رد بعض أفكار التعادلية عنده إلى الإسلام. وسنرى أن كل التساؤلات التى طرحها خلال بحثه فى التعادلية سواء فى كتابه عن التعادلية أو فى مسرحياته، إنما تعد تساؤلات فكرية أساساً وليس من الضرورى أن تكون تساؤلات مصدرها الدين الإسلامى.

ومما يؤسف له أننا نجد انتشاراً لهذه التفسيرات الخاطئة ومنذ ألف الحكيم كتابه التعادلية، وحتى أيامنا هذه، بعد وفاته. وليرجع القارئ العزيز إلى الكم الهائل من المقالات المتسرعة التى ظهرت بعد وفاته والتى يحاول من خلالها أشباه الكتاب وأشباه النقاد والباحثين تفسير فكر الحكيم وخاصة فى مجال "التعادلية" من خلال

قوالب دينية وكأن الأديب عندهم لا يكون أديبا عملاقا إلا إذا كتب فى الدين وقضاياه، أو أصبح أدبه أدبا دينيا، إن صح وجود ما يسمى بالأدب الدينى!!!. ويقينى أن هؤلاء الأشباه من الكتاب لم يكلفوا أنفسهم القراءة الفاحصة الدقيقة لمسرحيات توفيق الحكيم وكتبه.

ألم يقل توفيق الحكيم فى كتابه "فن الأدب"، وقد كرر هذا القول فى كتابه التعادلية، ألم يقل: إن الأديب يجب أن يكون حرا، لأن الأديب إذا باع رأيه أو قيد وجدانه ذهبت عنه فى الحال صفة الأديب. فالحرية هى نبع الفن. وبغير الحرية لا يكون أدب ولا فن. لأن الذى يقول لفنان أو أديب: التزم بكذا أو بكيت فقد قتله. إنما التزام الأديب أو الفنان شئ ينبع حرا من أعماق نفسه فإن لم ينبع الإلتزام حرا من قلبه وبينته وعقيدته فلا تلزمه أنت ولا تلزمه قوة فى الوجود. يجب أن يكون الإلتزام جزءا من كيان الأديب أو الفنان. فالإلتزام المثمر للفنان فى رأيى هو الإلتزام الذى ينبع من طبيعته. وهنا لا يتعارض الإلتزام مع الحرية (توفيق الحكيم فى كتابه فن الأدب وكتابه التعادلية ص١٠٠).

الواقع أن توفيق الحكيم قد أثار - كما قلنا - فى كتابه التعادلية وفى العديد من مسرحياته الكثير من القضايا الفكرية والأدبية. وقد حاول من جانبه البحث فى هذه القضايا وتقديم إجابات لها من خلال إيمانه - كما يقول - بفكرة التعادل.

إنه يتساءل قائلا: هل الإنسان وحده فى هذا الكون، وهل الإنسان حر فى هذا الكون؟

لقد أجاب العصر الحديث - فيما يقول توفيق الحكيم - بأن الإنسان وحده لا شريك له فى هذا الكون وأنه إله هذا الوجود. وأنه حر تمام الحرية. إن هذا الجواب الذى قضى على تعاليم الأديان، جعل العصر الحديث مطبوعا بطابع المادية. وإذا كنا نجد الدين باقيا فى كثير من البلاد المتحضرة، وماضيا فى دعوته،

إلا أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الناس جمعياً حتى المتمسكين بالطقوس وروح النصوص، قد سيطرت عليهم النزعة المادية.

لقد اختل التعادل الذى كان قائماً حتى مطلع القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب. لقد اختل التوازن بين نشاط التفكير من جهة، ونشاط الإيمان من جهة أخرى. ويرجع ذلك إلى كثرة وثورة انتصارات العلم العقلى، فى حين أن الدين ظل جامداً لا يتحرك. لقد ضاعف العلم قوته وجدد وسائله ووسع آفاقه ولكن الدين على العكس من ذلك، قد بقى محصوراً فى أفقه، لم يكتشف منابع جديدة فى أعماق القلب الإنسانى وبحيث تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التى اكتشفها العقل البشرى.

إن اختلال هذا التعادل والتوازن قد أدى إلى اختيار العصر الحديث للجانب الأرحح، وبالتالى الخضوع للنتائج المترتبة على سيطرة العقل وحده ومنها حرية الإنسان فى هذا الكون وإنكار كل ما لا يثبت بالبحث والإختبار، ومن ثم إنكار إرادة أخرى غير إرادة الإنسان أو وجود آخر غير وجوده، فهو كائن وحده فى هذا الكون. لقد أدى هذا الإختلال إلى القلق السائد فى النفوس اليوم، إن سببه الإضطراب فى ميزان التعادل بين العقل والقلب، بين الفكر والإيمان.

ولكن هذا الإختلال فى التعادل لابد وأن يصحح نفسه بنفسه على مدى الوقت. وقد ظهرت فى هذه الأيام - فيما يقول الحكيم - بعض الدلائل. فالعصر الحديث بدأ يزهد فكرة الإنسان الكائن وحده فى هذا الكون. إنه يتحرك شوقاً وحنيناً إلى أحد غيره، إلى كائن أرقى. وإذا كان الدين لم يسعفه بإطار جديد لهذه الفكرة، فإنه قد بقى ينتظر ويأمل أن تتحقق المعجزة ولكن فى محيط العلم العقلى. وقد يكون الإهتمام بالأطباق الطائرة وأمل الناس فى أن تكون آتية برسالة من عالم

أفضل وكائنات أرقى، إلا نوعاً من تلطيف الشعور الذى جف بجفاف المنبع الدينى وبحيث يريح الإنسان من قلقه ويخرجه قليلاً من ضيقه بوحدته فى هذا الكون.

لقد أشار الحكيم إلى هذا السبب من أسباب الإختلال فى مسرحيته أهل الكهف. وذلك بطريقة غير مباشرة ومن خلال إطار مشكلة الزمن -كما أشرنا- كما أشار إليه بطريقة مباشرة فى كتابه التعادلية.

ولكن هذا السبب لا يعد وحده مسئولاً عن قلق الإنسان والإخلال بتوازنه، بل توجد أسباب أخرى، من بينها أن الإنسان وقد ملك القدرة المادية الهائلة، فإنه يخشى أن تفلت من يده، وإذا أفلتت فإن ذلك سيؤدى إلى دماره. ولن يحميه من الدمار إلا ميزان التعادل بين القوة والحكمة.

لقد أشار الحكيم إلى هذا السبب فى أكثر من مسرحية من مسرحياته وفى أكثر من كتاب من كتبه، ومن بين تلك المسرحيات، مسرحية سليمان الحكيم..

إن أزمة الإنسان فى هذا العصر، إنما هى إذن نتيجة اختلال فى تركيبه التعادلى. وإذا تساءلنا بعد ذلك: هل الإنسان عند توفيق الحكيم يعد وحده فى هذا الكون؟ فإننا نجد توفيق الحكيم بعد إشاراته إلى دراسات بعض النقاد الأجانب والذين حاولوا استخلاص اتجاه مفكرنا توفيق الحكيم، نجده يقول: لقد استنتجوا من خلال مسرحى أنى على أى حال لا أؤيد فكرة وحدة الإنسان أو حريته المطلقة فى هذا الكون. وهذا ما لا أنكره. فأنا أحس بشعورى الداخلى أن الإنسان ليس وحده فى هذا الكون... وهذا هو الإيمان. وليس من حق أحد أن يطلب على الإيمان تعليلاً أو دليلاً. فإما نشعر أولا نشعر وليس للعقل هنا أن يتدخل ليثبت شيئاً، وإن أولئك الذين يلجأون إلى العقل ومنطقه ليثبت لهم الإيمان، إنما يسيئون إلى الإيمان نفسه. فالإيمان لا برهان عليه من خارجه. إنى أؤمن بأنى لست وحدى، لأنى أشعر بذلك. ولم أفقد إيمانى، لأنى رجل متعادل. ولكنى من جهة أخرى أفكر

بعقلى. لا لكى أدعم إيمانى بأنى لست وحدى، بل لأعرض المسألة أمام تفكيرى بعيداً عن الإيمان... فلنؤمن إذن بالقلب وحده، تلك قوته. ولندع العقل يفكر فى ماله وحده.. تلك أيضاً قوته. هذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الإنسانية. (التعادلية ص٢٩-٣٠-٣١-٣٢).

هذا ما يقوله توفيق الحكيم. ومن الواضح أن فكرة التعادلية قد سيطرت عليه إلى درجة جعلته يفترض ضرورة وجود طرف آخر باستمرار. إنه يبين لنا بوضوح مآخذ أو عيوب العقل. كما أنه لم يبين لنا عيوب الإيمان الذى يقام على القلب. ومهما يكن من أمر فإن هذا الموقف من جانبه قد قال به قبله عديد من المفكرين والفلاسفة فى العصر الحديث. كما أننا نجد صلة بين أقواله فى هذا المجال، وبين أحاديثه إلى الله والتى كتبها بجريدة الأهرام وأثارت نوعاً من الجدل.

هكذا يمضى توفيق الحكيم فى تحليل العديد من المواقف من خلال فكرة التعادلية. وهو يفترض دائماً وجود قوتين. فإذا بحث فى الحرية نجده يقول: الإنسان عندى حر فى اتجاهه حتى تتدخل فى أمره قوى خارجية أسميها أحياناً القوى الإلهية. حرية الإرادة فى الإنسان عندى إذن مقيدة شأنها فى ذلك شأن حرية الحركة فى المادة (التعادلية ص٣٩).

وهذا الموقف من جانب توفيق الحكيم قد سبق له البحث فيه فى كتب ومسرحيات عديدة. ومن بينها كتابه فن الأدب والذى ذهب فيه إلى القول بأن الإنسان ليس إله هذا العالم وليس حراً، ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية.

وإذا كان توفيق الحكيم يرفض فهم كلمة التعادل بالمعنى اللغوى الذى يفيد التساوى ولا بالمعنى الذى يعنى الإعتدال أو التوسط فى الأمور، بل يعنى بالتعادل، التقابل، والقوة المعادلة هنا معناها القوة المقابلة والمناهضة، إذا كان

توفيق الحكيم يرتضى لنفسه هذا الفهم، وبحيث يصور لنا فى أهل الكهف التناقض بين الوجود التاريخى والوجود الواقعى، ويصور لنا فى شهرزاد، التناقض بين الوجود الفلسفى والوجود الواقعى، فإن رأى توفيق الحكيم فى مجال "وضع الإنسان فى الكون" وهو المجال الأول من المجالين اللذين قام بدراستهما فى كتابه التعادلية" يثير العديد من الإشكالات والتساؤلات. إن رأيه لا يخلو من نزعة تقريرية غائية وهى نزعة فكرية فلسفية لا تخلو من أخطاء ومغالطات وخاصة فى العصر الحديث. بالإضافة إلى أن حديث مفكرنا العملاق توفيق الحكيم عن التعادلية يكاد يشعر القارئ بأنه حديث عن صفة وليس عن موصوف. حديث عن أعراض وليس عن جوهر. حديث يخلو من فكرة التناقض والصراع والأضداد، وهى الفكرة التى أعلن أكثر من مرة أعتزازه بها وضرب لها أمثلة من العديد من مسرحياته. حديث لا يخلو من نزعة استسلامية مقهورة، وليس حديثاً عن موقف حيوى جوهرى بناء. قلنا إن توفيق الحكيم قد جعل دراسته التعادلية قائمة على البحث فى وضع الإنسان فى الكون، ووضع الإنسان فى المجتمع. ونود بعد دراستنا للمحور الأول، أن نتوقف قليلاً عند المحور الثانى، محور العلاقة بين الإنسان والمجتمع، وإن كنا نلاحظ عند توفيق الحكيم نوعاً من التداخل بل التكرار فى دراسته للمحور الثانى وذلك إذا قارنا بينه وبين دراسته للمحور الأول.

يعطينا توفيق الحكيم العديد من الأمثلة والتى تقوم فى رأيه على فكرة التعادل. وهى أمثلة تدلنا على دقة ملاحظة وذكاء من جانبه. فالشعور بالتعادل يسمى فى عرف الأخلاق بالعدل. والعدل هو المظهر الإجتماعى للتعادل. والضمير هو الشعور بالعدل أو على الأصح: شعور الذات بعدل لم يتحقق نحو الغير.

وكما يوجد الضمير عند الفرد، يوجد عند المجتمع. فالمجتمع يتولد فيه أيضاً شعور بأن عدلاً لم يتحقق نحو الغير، أى نحو طائفة منه لحقها شر بفعل طائفة

أخرى. وهنا تقوم الثورات الإجتماعية لتصحح الوضع وتعيد حالة التعادل التى تسمى العدالة أو العدل الإجتماعى.

وفى مجال السياسة الدولية لابد من توازن أو تعادل بين القوى. وقلما حدث فى تاريخ الأمم أن انفردت طويلاً دولة واحدة بالقوة فى العالم. ويعطينا الحكيم مثالاً على ذلك بالدولة الرومانية التى كادت تسيطر بمفردها على الدنيا. لقد انشطرت هى نفسها إلى قوتين، إحداهما فى روما بزعامة أكتافيوس والأخرى فى الإسكندرية بزعامة أنطونيوس. وقد حدث لها نفس الأمر فى العهد المسيحى. لقد قامت الدولة الرومانية الغربية فى روما، والدولة الرومانية الشرقية فى القسطنطينية، وهكذا.

وفى مجال السياسة الداخلية، لابد من توازن أى تعادل بين قوة الحاكم وقوة المحكوم، لأن قانون التعادل الذى نرى مظهره فى الشهيق والزفير هو الذى يعمل هنا أيضاً، ونرى مظهره فى وجود حركة توازن حركةتعادل لأن هذا هو شرط الحياة.

وما يقال عن التعادل فى مجال الأخلاق والسياسة والإقتصاد (قانون العرض والطلب)، يقال عن رجل الفكر ورجل السياسة، أى رجل العمل. فانضمام رجل الفكر إلى حزب من الأحزاب معناه تقيده والتزامه بتفكير الحزب. وهذا الإلتزام يحرمه مباشرة من سلطة الفكر فى المراقبة والمراجعة. وضعف أغلب رجال الفكر فى العصر الحاضر، وانهيار إيمانهم برسالتهم وقوة تأثيرها، قد ربط الفكر فى عجلة العمل، وجعل الأقلام فى خدمة الحكومات واختل بذلك التوازن أو التعادل بين القوتين. وهذا من أسباب الكوارث التى تهدد العصر الحديث. إن طغيان قوى العمل فى هذا العالم وانحرافها نحو الإستبداد والإستعمار والسيطرة، دون أن تجد أمامها قوى روحية أو فكرية معادلة تتكتل لردها إلى الصواب، هو من أهم مصادر القلق

والإنحراف إلى الهاوية ويرى توفيق الحكيم أن الفكر المعادل أو الموازن للعمل إنما يشمل القوى العقلية والقوى الروحية أيضاً، أى المنطق والإيمان. وإذا كانت توجد مذاهب أدبية وفنية تطرح جانباً القوى الروحية أو الدين ولا تستبقى إلا القوى العقلية كوجودية سارتر والواقعية الإشتراكية، والمذاهب المادية بوجه عام، فإن التعادلية تعترف بمنبعين للمعرفة البشرية هما العقل (المنطق) والإيمان (القوى الروحية) الأول عكازه الدليل البين، والآخر عكازه الشعور الخفى. ويمكن للعقل والإيمان أن يعيشا معاً فى كيان الإنسان. وكم أكد الحكيم على هذه الفكرة فى كثير من كتبه ومن بينها كتابه "تحت شمس الفكر".

ويحاول توفيق الحكيم من خلال كثير من كتبه البحث فى الأدب والفن من خلال منظور التعادلية. فالتعادلية تقيم الأدب والفن على أساس قوتين يجب أن يتعادلا هما قوة التعبير وقوة التفسير. ولا يمكن للأثر الأدبى أو الفنى أن يكتمل خلقه أو يقوم بمهمته إلا إذ تم فيه التوازن بين القوة المعبرة من جهة، والقوة المفسرة من جهة أخرى. ولابد أيضاً من التعادل أو التوازن بين المحاكاة والإبتكار. فإذا غلبت المحاكاة على الأديب أو الفنان فإنه لن يضيف شيئاً. وإذا أسرف فى الإبتكار فقد قطع الصلة بينه وبين الآخرين. لابد إذن من التوازن - وهذا نجده - فيما يقول الحكيم - عند أمثال شكسبير وبيتهوفن فيما قاما به من محاكاة وابتكار.

وإذا كان التعبير يعد كل شئ فى نظر الفن، إلا أنه من وجهة نظر التعادلية، لابد وأن يقترن بقوة التفسير. القوة المعبرة تكون جميلة فى ذاتها ولكنها لا تضئ غيرها كاللؤلؤة. أما إذا اقترنت بالتفسير فإنها تكون كالماسة التى تشع فى الظلام أضواء تكشف عن وجود أشياء أخرى.إن التعبير يشمل الأسلوب والموضوع وبه يمكن أن يتم الأثر الأدبى أو الفنى فى ذاته، أما التفسير فهو الرسالة التى يحملها الأثر الأدبى أو الفنى بعدئذ للبشرية.

ويعطينا الحكيم بعض الأمثلة والتى نرى من جانبنا أنها لا تخلو من تعسف فى التأويل فالبحترى مثلا هو تعبير. وأبو العلاء تعبير وتفسير معا. وشكسبير فى شعره الغزلى تعبير، أما فى مسرحياته مثل هاملت فهو تعبير وتفسير معا. وبيتهوفن فى سوناتا ضوء القمر هو تعبير، بينما فى السيمفونية الثالثة يقوم بإبلاغنا بكلمة فى الإنسان والبطولة. وفى السيمفونية الخامسة ينقل لنا قولته فى الإنسان والقدر. كما أنه فى السيمفونية التاسعة وكثير من كونسيرتاته يريد أن يقول شيئا أكثر من مجرد اللحن الجميل.

كما يذهب توفيق الحكيم بناء على ما سبق أن ذكره من أدلة وأمثلة أن "الفن للفن إنما هو حبس الفنان فى هيكل الشكل، والفن الملتزم هو حبس الفنان فى سجن المضمون. وفى هاتين الحالتين فإن الفنان لا يمكنه إبلاغ رسالته الكاملة والتى تنبع من الحرية لتبشر بالحرية. من أجل هذا كله كان الشرط الضرورى لحياة التعبير والتفسير معا هو إيجاد التناسب والتناسق بينهما أى التعادل.

ويحاول مفكرنا توفيق الحكيم تلخيص مبادئ التعادلية فى مجموعة من النقاط تتبلور حول الإعتقاد بأن الوجود هو التعادل مع الغير، وأن الفكر يجب أن يكون معادلا للعمل، وأن الخير والشر وضعان للإنسان وبحيث يكون جزاء الشر ليس الإقتصاص من حرية الشخص، بل هو عمل خير يوازن ويعادل ما ارتكب من شر. كما تؤمن التعادلية أيضا بأن العقل بمنطقه وشكه يجب أن يعادل ويوازن القلب بشعوره وإيمانه، وأن الأثر الأدبى أو الفنى يجب أن يقوم على التعادل والتوازن بين قوة التعبير وقوة التفسير.

ولا يخفى الحكيم نزعته التفاؤلية فى حديثه عن مستقبل الفكر المعادل للعمل، ومستقبل التعادلية فى علاج الإنسان.

ولكن هل تحقق أمل توفيق الحكيم وما تنبأ بـه مـن مستقبل للفكـر المعادل للعمل ومستقبل للتعادلية فى علاج الإنسان والقضاء على شروره؟ إنه سؤال نطرحه من جانبنا ونعتقد أنه من الصعب الإجابة عليه ولكننا نكتفى بالقول بأن توفيق الحكيم قد كتب التعادلية عام ١٩٥٥، أى منذ أكثر من أربعين عاماً. وإذا كنا نجده فى بعض كتبه ومسرحياته قبل كتاب التعادلية غير ملتزم بقاعدة أو أكثر من القواعد الخمسة للفكر التعادلى والتى ذكرها فى آخر كتابه "التعادلية" وقد سبق أن أوردناها منذ قليل، فإنه من الصعب أيضاً أن نقول إن توفيق الحكيم فى كتبه ومسرحياته ومقالاته التى كتبها بعد التعادلية كان ملتزماً التزاماً حرفياً بتلك القواعد.

ولا يعنى هذا القول من جانبنا توجيه نقد أو أكثر من نقد إلى أديبنا العملاق توفيق الحكيم، فى موضوع مدى التزامه أو عدم التزامه بفكره التعادلى، إذ أننا نرى أن فكرة التعادلية سواء كما عبر عنها توفيق الحكيم من خلال الأمثلة التى ذكرها (الإنسان فى الكون والإنسان فى المجتمع)، أو كما عبر عنها بصورة تختلف فى قليل أو فى كثير عن الصورة التى ذهب إليها توفيق الحكيم، عبر عنها مفكرون سابقون، القول إن فكرة التعادلية نفسها لا تسلم من أوجه ضعف ونقص، وإن كانت رغم ذلك قد تعد مثلاً أعلى ونموذجاً يحتذى. وقد سبق أن أشرنا إلى مواضع اتفاقنا واختلافنا مع الحكيم فى تعادليته وقلنا إن فكرا فى التعادلية يثير الجدل والمناقشة أكثر من ربع قرن من الزمان، إنما يدلنا على عظمة توفيق الحكيم وعلى عمق فكر أديبنا الشامخ.

لقد وجد فكر توفيق الحكيم ليبقى أبد الدهر لأنه جدير بالبقاء. وجد أدبه لكى نعتز به ونتمسك كما تعتز كل دول العالم بمفكريها العمالقة. لكى نفخر به ونتفاخر تماما كما نفعل بالنسبة للأهرام وأبى الهول وبقية آثارنا الخالدة. لقد تحدث عن موضوعات داخلة فى إطار المذاهب الأدبية والفنية والجمالية، وكان الرائد

والمعلم، لقد تحدث عنها بثقة ويقين وواثق الخطوة يمشى ملكا. كان حديثه عنها ثمرة لقراءاته الواسعة وحدة ذكائه وتأمله الخصب العميق فى "البرج العاجى"، وتحت شمس الفكر"، "وتحت المصباح الأخضر" ومن هنا كان حديثه صادرًا عن أستاذية قلما نجد لها نظيرًا، وكم أساء إليه أناس تحسبهم أدباء وما هم بأدباء، تحسبهم نقادًا والنقد منهم براء، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

كم أسأنا إلى فكر توفيق الحكيم وإلى أدبه ومسرحه، كم شغلتنا الأمور الهامشية حول الحكيم وحياته، وهل كان بخيلاً أم لا، وهل كان عدوًا للمرأة أم مناصرًا لها ومدافعا عنها. وقد آن لنا أن نقدره حق قدره، لأنه رائد فى مجاله، عملاق بين العمالقة، هرم فكرى بارز، لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور، ودخل تاريخ أدبنا المعاصر ومسرحنا المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها، وأنا من جانبى ورغم اختلافى معه - كما أشرت من قبل - فى العديد من الآراء والإتجاهات لا أخفى إعجابى به أديبا عظيما ومفكرًا كبيرًا.

الفصل الثانى عشر

الدكتور لويس عوض وكتاب عنه:

ويتضمن هذا القسم:

أولا: مذكرة كنت قد قدمتها مع زميلى الأستاذ نبيل فرج لإصـــدار كتاب تذكارى عن الدكتور لويس عـــوض، منــذ ســنوات أحسبها بعيدة، ولذلك يلاحظ القـــارئ أن بعــض الأســماء المقترحة قد رحلت عن عالمنا منذ أكثر من سنوات عديدة.

ثانيا: دراسة نقدية لكتاب الأستاذ نسيم مجلى عن لويس عـــوض بعنوان: لويس عوض ومعاركه الأدبية

أولاً: مذكرة خاصة باقتراح إصدار كتاب تذكارى عن لويس عوض

السيد الفاضل الأستاذ الدكتور/ سمير سرحان

رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب

تحية طيبة وبعد:-

فنظراً للمكانة العلمية والأدبية الرفيعة التى يحتلها الدكتور لويس عوض فى حياتنا الثقافية والدور الكبير الذى نهض بأدائه فى عالمنا العربى طوال نصف قرن من الزمان، فإننا نرجو التكرم بالموافقة على أن تقوم هيئة الكتاب بإصدار كتاب تذكارى عنه فى حدود ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير عنوانه: لويس عوض أديباً عربياً ومفكراً إنسانياً، يشترك فى تحريره مجموعة كبيرة من الكتاب والنقاد يمثلون كافة الإتجاهات الفكرية، ممن لهم الدور البارزفى سماء حياتنا الأدبية والفكرية، ويقوم بالإشراف على هذا الكتاب دكتور عاطف العراقى والأستاذ نبيل فرج.

ومرفق بالخطاب الخطة المقترحة للكتاب التذكارى وبعض الأسماء المقترحة للإسهام فى هذا العمل.

وتفضلوا بقبول فائق الإحترام والتقدير،،

عاطف العراقى

نبيل فرج

الخطـــــة

أولاً: الحياة الفكرية وتشمل الجوانب الثقافية العامة والسياســـية والإجتماعية

ثانياً: الجوانب النقدية (النظرية والتطبيقية)

ثالثاً: الجوانب الإبداعية (روائية ومسرحية وشعرية وسيرة ذاتية)

رابعاً: الترجمة (دور الرائد الكبير فى مجال الترجمة)

خامساً: وثائق مختلفة ونادرة خاصة بالرائد الراحل لويس عوض

سادساً: ثبت شامل بأسماء كتبه ومقالاته منذ بداية حياته الفكرية حتى وفاته.

لجنة الإشراف

١ د. عاطف العراقي
٢ أ. نبيل فرج

المشاركون

٣ أ. نجيب محفوظ
٤ د. زكي نجيب محمود
٥ د. محمود مكي
٦ الأب جورج قنواتي
٧ د. مجدي وهبة
٨ د. عبد العظيم أنيس
٩ أ. فاروق خورشيد
١٠ أ. نسيم مجلي
١١ د. شوقي ضيف
١٢ أ. يوسف إدريس
١٣ د. عبد القادر القط
١٤ د. إبراهيم حمادة
١٥ د. شكري عياد
١٦ د. علي الراعي
١٧ د. علي شلش
١٨ أ. أحمد عباس صالح
١٩ أ. ألفريد فرج

٢٠ د. فخرى قسطندى

٢١ د. إلياس نحار

٢٢ د. فؤاد زكريا

٢٣ د. عبد الرشيد الصادق

٢٤ د. عبد الغفار مكاوى

٢٥ د. رمسيس عوض

٢٦ د. رؤوف عباس

٢٧ د. عبد المعطى شعراوى

٢٨ د. أمين العيوطى

٢٩ د. حمدى السكوت

٣٠ أ. أحمد عبد المعطى حجازى

٣١ د. محمد زكى العشماوى

٣٢ أ. فاروق عبد القادر

٣٣ د. إنجيل بطرس سمعان

٣٤ أ. إبراهيم سعفان

٣٥ د. صبرى حافظ

٣٦ أ. كامل زهيرى

٣٧ أ. بدر الديب

ثانيا

كتاب: لويس عوض ومعاركه الأدبية

تأليف: الأستاذ نسيم مجلى



كتاب: لويس عوض ومعاركه الأدبية - تأليف الأستاذ نسيم مجلى

يحتل الدكتور لويس مكانة كبيرة فى تاريخ الفكر العربى المعاصر. لقد أثرى مكتبتنا العربية بالعديد من المؤلفات والدراسات والبحوث الهامة، وأثار العديد من القضايا والتى تعد بالغة الأهمية. صحيح أن القارئ لكتبه والمطلع على القضايا التى أثارها، قد يختلف معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها، ولكن هذا الإختلاف يعد ظاهرة صحية وليس ظاهرة مرضية. إن الخلاف فى الرأى يعد من طبيعة الفلسفة والتفلسف، كما أن الرأى والرأى الآخر يدلنا على حيوية الجدال وأهمية هذه القضية أو تلك من القضايا التى أثارها الدكتور لويس عوض، بالإضافة إلى الشجاعة الفكرية التى تميز بها هذا الرجل.

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى أن يلتزم الفرد منا بمجرد متابعة السابقين عليه، وبحيث يكون مجرد مرددٍ لآراء الآباء والأجداد. وإذا كنا لا نجد بصمةً تطابق تمام المطابقة بصمةً أخرى، ولا نجد ورقة من أوراق الشجر تعد صورة طبق الأصل من ورقة أخرى، فأولى بنا إذن نحن معشر البشر، أن يجتهد كل واحد منا فى التوصل إلى رأى أو أكثر من الآراء التى يعتقد بها ويدافع عنها، وإلا ما فائدة عقولنا وأفهامنا. نقول ونكرر القول: ما استحق أن يولد من كان مجرد متابع لآراء من سبقوه، إذ أن المجدد غير المقلد. المجدد ينظر نظرة مستقبلية، ينظر إلى أعلى، فى حين أن المقلد ينظر إلى أسفل، يكون عالة على السابقين، وإذا زعم لنفسه أنه يصعد إلى أعلى، فإن ذلك يكون مجرد زعم من جانبه، لأن صعوده سيكون إلى الهاوية وبئس المصير.

من هنا كانت سعادتنا حين قمنا بدراسة كتاب كبير موضوعه "لويس عوض ومعاركه الأدبية" قام بتأليفه أستاذ فاضل، وناقد معروف، هو الأستاذ نسيم مجلى، وهو من هو فى مجال الكتابة الجادة، والنقد الدقيق الموضوعى والمستنير.

وسنحاول من جانبنا تحليل بعض جوانب من هذا الكتاب الضخم، كتاب لويس عوض ومعاركة الأدبية والذى قام بتأليفه كما أشرنا منذ قليل، الأستاذ نسيم مجلى. ويقينى أن المهتمين بفكرنا العربى المعاصر، والمهتمين بالقضايا الأدبية، والقضايا النقدية، لن يكون بإمكانهم إهمال هذا الكتاب عن لويس عوض، والذى استغرق تأليفه مجموعة من السنوات.

يقع الكتب فى ٥٧٩ صفحة. ويقسم المؤلف كتابه إلى أربعة أقسام، وذلك على النحو التالى:

القسم الأول: تمهيد .

القسم الثانى: ثورة الأدب الجديد.

القسم الثالث: لويس وشاكر: صراع الأصالة والمعاصرة.

القسم الرابع: الأيديولوجيا وصراع القوميات.

وكل قسم من الأقسام التى ذكرنا يتضمن مجموعة من النقاط والعناصر والأجزاء الهامة. لقد تحدث المؤلف، الأستاذ نسيم مجلى فى القسم الأول عن العديد من الجزئيات ومن بينها: لماذا معارك لويس عوض الأدبية، وحلل فى القسم الثانى موضوعات: الأدب فى سبيل الحياة، والمكارثية والأدب، ومناقشة عقلانية حول الأدب الإشتراكى.

أما القسم الثالث فقد تضمن مجموعة من العناصر، وذلك على النحو التالى:

- هجوم على هامش الغفران.
- من جحيم هوميروس وأريسطوفان إلى نعيم المعرى (أبو العلاء المعرى) .

- هل للثقافة اليونانية أثر في رسالة الغفران.
- الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران.
- من المقارنة إلى المفارقة - الدعوة إلى العامية.
- ابن خلدون وأوروسيوس.
- المعلم يعقوب ومشروع الإستقلال الأول.
- رموز العقيدة المسيحية في الشعر الحديث.
- شاكر والثقافة المسيحية الغربية.

أما القسم الرابع والأخير من هذا الكتاب، وموضوعه الأيديولوجيا وصراع القوميات فقد تحدث فيه مؤلفنا الأستاذ نسيم مجلى عن موضوعات عدة، وذلك على النحو التالي:

- أقنعة الناصرية والوعي الغائب.
- الصراع بين القومية المصرية والقومية العربية.
- الإيراني الغامض في مصر (جمال الدين الأفغاني).
- فقه اللغة (الكتاب والقضية).

ويقول الأستاذ نسيم مجلى في السطور الأولى من كتابه موضحاً مكانة المفكر لويس عوض: يعد الدكتور لويس عوض نموذجاً فذاً في ثقافتنا المعاصرة. فهو كاتب غزير الإنتاج، قدم للمكتبة العربية نحو خمسين كتاباً في النقد والإبداع. وهو شخصية متعددة الجوانب. فهو معلم من طراز نادر يربط بين المعرفة والحياة، كما يربط بين التعليم وتحرير العقل من الخرافة وتحرير الفرد من التسلط والقهر. شديد الحضور في أذهان تلاميذه ومريديه. يتصارع في داخله المفكر العقلاني الباحث عن الحقيقة، والأديب الفنان الجانح إلى الحرية والتجديد. لكنه يظل دوماً رائداً من أكبر رواد التنوير في تاريخنا الحديث. لقد ذاع صيته حتى شمل المنطقة العربية

كلها، وتعداها إلى آفاق عالمية فى الشرق والغرب، وذلك نتيجة لانتشار مقالاته عن طريق الصحافة المصرية خصوصاً بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ إذ أخذ ينشر مقالاته بجريدة "الجمهورية" ثم "الشعب" وأخيراً "الأهرام" مما جعل لآرائه وأفكاره أصداء واسعة، لأن أفكاره غالباً ما تكون جديدة وثورية ومفاجئة، فتقلق أوساط الرجعيين والتقليديين الذين كانوا يناصبونه العداء (ص١٥)٠

كلمة صادقة يقولها مؤلف كتاب لويس عوض ومعاركه الأدبية، ويشير إلى جزء يسير من الجهد الكبير الذى قام به لويس عوض. ونحن نتفق تماماً مع الأستاذ نسيم مجلى فى تقديره للدور العظيم الذى أداه لويس عوض، فلويس عوض قد دخل - كما قلنا - تاريخ فكرنا العربى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها، وكان عظيماً بين عظماء مفكرينا، رائداً من رواد فكرنا الأدبى. وليس بإمكان أى باحث منصف أن يقلل من الدور الحيوى والشجاع الذى أداه لويس عوض، وبصرف النظر عن الإتفاق معه تارة، والإختلاف معه تارة أخرى.

ويقينى فيما نرى من جانبنا أننا لو كنا نعيش حياة ثقافية جادة، لكان الحال غير الحال. ولكننا للأسف الشديد نعيش حياة الجهل والصعود إلى الهاوية. حياة يتطاول فيها الصغار والأقزام على الكبار والرواد. حياة الصراصير التى يتنازع فيها كل صرصار مع الآخر. لقد أدى لويس عوض فى أكثر الميادين الفكرية، دوراً، ودوراً هاماً، ولكن الجهال يتطاولون على الكبار. ماذا فعل لويس عوض حتى يطرد من الجامعة، وتوجه إليه مجموعة كبيرة من الشتائم وأنواع الهجوم والتى لا تصدر إلا عن أناس تعد كتاباتهم جهلاً على جهل. أناس تحسبهم من المثقفين وهم ليسوا بمثقفين، بل أشباه مثقفين، ومن المتخلفين عقلياً والعياذ بالله.

فإذا جاء الأستاذ نسيم مجلى لكى يقدم لنا مجلداً كبيراً يكشف من خلاله عن أبرز إيجابيات لويس عوض، وبحيث يدخل فى حوار مع آراء الرجل، ويوافقه

تارة ويختلف معه تارة أخرى، ويكشف عن حقيقة آرائه ويتجه إلى إنصافه. فإن هذا يدعونا إلى الإعجاب بما فعله نسيم مجلى. إنه ينتقل من دراسته لقضية من القضايا التى أثارها لويس عوض، إلى دراسته لقضية أخرى، بعد أن يقوم بتحليل كل جوانب القضية المثارة. إنه يكتب بثقة ويقين وبعد الرجوع إلى مئات المصادر والمراجع، وواثق الخطوة يمشى ملكاً كما نقول. ويقينى أن كل المهتمين بإبداع لويس عوض، وبكتابات لويس عوض، لن يكون بإمكانهم إهمال هذا المجلد الكبير الذى قدمه إلى مكتبتنا العربية مؤلفنا الفاضل نسيم مجلى بعد أن قضى سنوات وسنوات فى البحث والدراسة، ولم يكن كهؤلاء المتعجلين والذين يكتبون فى كل شئ، ولا يفهمون فى أى شئ، تجدهم كأنفار المقاولين يسارعون بالكتابة فى أى مجال، حتى لا يمانع الواحد منهم فى الكتابة عن التدبير المنزلى، وبحيث أصبحوا بحالة من الإسهال الفكرى حين قدموا لمكتبتنا آلاف الصفحات السوداء.

نعم إن الأستاذ نسيم مجلى قضى سنوات طوال فى تأليف هذا الكتاب البالغ الأهمية ولم يكن كهؤلاء الذين يكتبون دون أن يبادر الواحد منهم إلى القراءة قبل أن يكتب. وقد نختلف - كما قلنا - مع الأستاذ نسيم مجلى حول رأى أو أكثر من الآراء التى ذهب إليها، ولكن هذا الإختلاف يعد معبراً عن ظاهرة صحية، وليس عن ظاهرة مرضية. يعد معبراً عن طبيعة الفلسفة والتفلسف، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وإذ لم يكن بالإمكان أن نشير إلى كل فصول الكتاب الضخم، كتاب: لويس عوض ومعاركه الأدبية، فإنه لا مفر إذن من الإشارة إلى مجرد نماذج من فصول هذا الكتاب.

يتحدث نسيم مجلى عن الحياة الفكرية للدكتور لويس عوض، ويقف وقفات طوال عند المفكرين الكبار والذين تأثر بهم لويس عوض، ومن بينهم طه حسين

وعباس العقاد وسلامة موسى، ويذكر ما قاله لويس عوض عن هؤلاء الثلاثة: يقول لويس عوض: بقدر ما وجدت طه حسين مهيباً وعباس العقاد شامخاً، وجدت سلامة موسى متواضعاً. كان غزير العلم في غير تكلف. ولم تكن هيئته تدل على شئ: كان يمكن أن يكون مدرساً بالمدارس الثانوية أو طبيباً أو رئيس مصلحة حكومية. ولكن ما أن يبدأ في الكلام حتى يتدفق علمه الموسوعي ويتجلى ذكاؤه الحاد كالنصل القاطع.

ويقول الأستاذ نسيم محدداً دور سلامة موسى على سبيل المثال في التكوين الفكري للويس عوض: كان دور سلامة موسى له أبلغ الأثر ليس فقط في تنظيم حياته وتوجيهه إلى الإشتراكية، ولكن أيضاً في دفعه للتفوق في اللغة الإنجليزية وآدابها التي تخصص فيها بالجامعة. وهو دور يتضاءل أمامه تأثير الأساتذة الإنجليز والأجانب عموماً بقسم اللغة الإنجليزية الذين وجدوا أمامهم شاباً مصرياً نبغ في لغتهم فأولوه اهتمامهم كل في تخصصه، فكانوا يزودونه بالتوجيه والنصح وبالمراجع المطلوبة (ص٦٣)

وإذا كان الأستاذ نسيم مجلي قد درس باستفاضة البيئة الفكرية والمؤثرات الثقافية والتي شكلت إلى حد كبير آراء لويس عوض، فإن هذا كان شيئاً ضرورياً وبالغ الأهمية، إذ أن المفكر عادة حينما يقول برأي من الآراء، فإن هذا الرأي أو ذاك من الآراء التي يقول بها، ليس مقطوع الصلة بالبنية الفكرية الخاصة به، تلك البنية التي استفاد في جانب منها، من عدد من المفكرين الذن سبقوه إلى الدعوة إلى مجموعة من الآراء، إذ أن المفكر، أي مفكر، غالباً ما يتأثر بالذين سبقوه، وبالتالي يكون مؤثراً في بلورة فكر الذين عاشوا بعده أو عاصروه، وهذه قضية التأثر والتأثير. تأثر المفكر بالسابقين، وتأثيره في اللاحقين. وقد أجاد نسيم مجلي كل الإجادة في

تحليل المؤثرات الثقافية والفكرية والإجتماعية والتى أدت دورا هاما فى بلورة رأى أو أكثر من آراء مفكرنا الشامخ لويس عوض.

ولم يكن الأستاذ نسيم مجلى، مكتفيا بمجرد العرض، بل كان يلجأ باستمرار فى كتابه عن لويس عوض إلى التحليل والمقارنة والموازنة بين العديد من تلك المؤثرات، وكيف أدت دورا يختلف شدة وضعفا، إذا قارنا بين مؤثر ومؤثر آخر من تلك المؤثرات وحديث الأستاذ نسيم مجلى عن تلك المؤثرات، يعد حديثا غاية فى الموضوعية والدقة ويكشف عن الثقافة الموسوعية الشاملة عنده.

ويعرض الأستاذ نسيم مجلى لرأى الدكتور لويس عوض حول "الأدب فى سبيل الحياة" ويذكر قول لويس عوض فى هذا المجال. فيقول: صدر العدد الأول من جريدة الجمهورية يوم الاثنين ٧ ديسمبر عام ١٩٥٣م وتحت شعار الأدب فى سبيل الحياة" كتب لويس عوض مقاله الأول فى شكل بيان ثورى بعنوان: هذه الصفحة، نعنى فيها نهاية الأدب القديم وبداية الأدب الجديد بقوله: انتهى الأدب الأنانى. انتهى الأدب الذى يعبد نفسه ويزعم للناس أنه يعبد فنه. وإذا لم يكن قد انتهى فسوف نعمل على إنهائه. فنحن على أعتاب عصر جديد، ونحن نكتب الأدب فى سبيل الحياة الجديدة. نعم الحياة الجديدة. فلقد ورد فى الأساطير أن العنقاء تحرق نفسها كل مائة عام كلما أدركتها الشيخوخة لتخرج من رمادها العنقاء الجديدة. ومصر هى العنقاء الجديدة والعنقاء لا تموت. لهذا نكتب الأدب فى سبيل الحياة. ومن يكتب الأدب فى سبيل الحياة الجديدة فهو ملتزم(ص١٠٥)

هذا الرأى من جانب لويس عوض، كان يحتاج إلى مناقشة نقدية من جانب الأستاذ نسيم مجلى. صحيح أن المؤلف كتب هذا الموضوع فى أكثر من ثلاثين صفحة من كتابه، موضوع الأدب فى سبيل الحياة (من ص١٠٥ حتى ص١٣٧)، وصحيح أيضا أن لويس عوض قد دافع عن الحرية وضرورة الإلتزام بها،

وبين لنا أن الحرية تعد نقيضاً للفوضى، وحدد من جانبه معنى الإلتزام، ولكن العبارة التى كتبها لويس عوض قد يبدو من خلالها أن العبرة بالجديد، وبحيث نقلل من أهمية القديم، يبدو من خلال العبارة أن لويس عوض يتجه إلى ما يسمى أدب التفسير، ويبتعد عما يسمى أدب التعبير. وإذا كان لويس عوض قد دافع عن الجديد بوجه عام، دافع عن العصر الجديد، وأشار إلى أسطورة العنقاء التى تحرق نفسها كل مائة عام، فإننا نقول له إن ما وقع عليه من اضطهاد تمثل فى إبعاده عن الجامعة، قد تم فى العصر الجديد. هذا بالإضافة إلى أن أمجاد الفكر وأمجاد الأدب فيما نرى من جانبنا، تلك الأمجاد التى نرى أنها تمت منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين تعد أفضل بكثير من الفترة التى تنبأ لويس عوض لها بأنها ستكون بداية جديدة وبحيث نقضى فيها على الأدب الأنانى كما يقول. بل إننا فى الماضى البعيد وجدنا مجموعة من الأدباء والشعراء من أمثال المتنبى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى، فى حين أننا لا نجد منذ كتب لويس عوض مقالته التى أشرنا إليها وقد كتبها فى عام ١٩٥٣م، أقول لا نجد فى الغالب إلا مجموعة من الكلمات المتقاطعة والركيكة ويطلق عليها أصحابها، الشعر الحديث، فى الوقت الذى لا دخل لها بالشعر وخصائصه من قريب أو من بعيد. وهل استطاع شاعر، منذ منتصف القرن العشرين وحتى الآن، أن يقدم لنا قصيدة تكاد تقترب من قصائد هؤلاء الشعراء القدامى وقصائد بعض المحدثين كعباس العقاد وأحمد شوقى؟

ومهما يكن من أمر، فقد بين لنا لويس عوض قواعد الأدب، ولم يهمل القديم لمجرد أنه قديم، ولكن كان منتظراً من لويس عوض التنبيه إلى ضرورة الإستفادة من الأدب العربى فى قديمه، وفى حديثه حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وذلك حتى لا يقدم أى فرد منا مجموعة من الكتابات نثراً كانت أو شعراً، تضرب عرض الحائط بالقواعد الأدبية والفنية، وإذا قلنا له إنها لا تعد أدباً، فإنه

يقول لنا إنها تعد أدباً حديثاً، وكأن الأدب الحديث من الضرورى له، أن يضرب عرض الحائط بكل ما اتفق عليه القدامى من الأدباء والنقاد.

ويعرض الأستاذ نسيم مجلى، عرضاً موسعاً لرأى لويس عوض حول مجموعة من القضايا الأخرى من بينها:

١- الدعوة إلى العامية وتحطيم عمود الشعر.

٢- موقفه من تاريخ مصر الثقافى إبان الحملة الفرنسية على مصر، ومشروع استقلال مصر الذى قدمه المعلم يعقوب.

٣- اجتهاداته عن ابن خلدون.

٤- موقفه السياسى والقومى.

ويحلل نسيم مجلى، تحليلاً غاية فى الدقة والأمانة العلمية ما أثير من معارك وقضايا حول هذه الموضوعات. لقد أحاط نسيم مجلى بهذه الآراء والقضايا إحاطة دقيقة، ولم يكن مهتماً بمجرد عرض الرأى من خلال كتابات لويس عوض، بل إنه رجع إلى العديد من آراء الكتاب والنقاد وسواء اتفقوا أو اختلفوا مع لويس عوض. والتحليل الرائع الذى قدمه لنا نسيم مجلى يعد تحليلاً من الضرورى الإحاطة به إحاطة تامة، وذلك حتى نتعرف على كل أبعاد تلك الآراء التى قال بها لويس عوض، وما أثير حولها من معارك. أقول للقراء الأعزاء إن ما كتبه نسيم مجلى حول هذه الآراء والقضايا، الرأى والرأى الآخر، يكشف عن ثقافة واسعة وشاملة، ولا غنى عنها لكل المهتمين بهذه القضايا التاريخية والنقدية.

ويقف الأستاذ نسيم مجلى وقفة مطولة ومتأنية حول ما أثير حول رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى. إنه يعرض عرضاً موسعاً لرأى لويس عوض والردود عليه، أو بالأحرى الهجوم عليه من جانب الأستاذ محمود شاكر (من ص٢١٤ حتى ص٢٦٥). وكما عهدنا فى الأستاذ نسيم مجلى من الإحاطة الشاملة بكل أبعاد

الموضوع الذى يكتب عنه فى المؤلف الضخم "لويس عوض ومعاركه الأدبية". فإننا نراه حين يعرض لهذا الموضوع، يلجأ إلى أكثر ما كتب حول هذا الموضوع، ويحلل تحليلاً رائعاً وموضوعياً حجج لويس عوض، وأيضاً ردود الأستاذ الفاضل محمود شاكر عليها. والدليل المؤكد على أمانة وموضوعية الأستاذ نسيم مجلى، أننا نجده يدخل فى حوار مع الدكتور لويس عوض. إنه لم يتابع مجرد متابعة آراء لويس عوض، بل إنه أثار العديد من القضايا والآراء حول هذا الموضوع، وعرض عرضاً أميناً لآراء مجموعة من الكتاب حول هذا الموضوع، موضوع رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى، ومدى تأثيرها فى الكوميديا الإلهية لدانتى، ومصادر فكر أبى العلاء المعرى.

قلنا إن كتاب الأستاذ نسيم مجلى، والذى يعد موسوعة فى مجاله، مجال المعارك الأدبية والفكرية عند لويس عوض، قد تضمن تحليلات رائعة لمواقف لويس عوض، وكيف أثيرت المعارك حولها. ومن هنا يكون من الصعب، بل من المستحيل وكما سبق أن أشرنا، دراسة كل فصول هذا الكتاب البالغ الأهمية،كتاب لويس عوض ومعاركه الأدبية. وإذا كنا قد أشرنا بإيجاز إلى بعض القضايا الى درسها نسيم مجلى دراسة دقيقة فإننا نود أن نقف وقفة قصيرة عند قضية أخرىمن القضايا التى نجدها فى هذا الكتاب، وما أكثرها، وما أروع ما كتبه نسيم مجلى عنها. إنها قضية جمال الدين الأفغانى[1]. فمن الصفحات ٤٢٦ حتى ٤٨٦ نجد تحليلاً مطولاً تحت عنوان "الإيرانى الغامض فى مصر". يقول نسيم مجلى فى السطور الأولى من هذا الفصل، أو هذا القسم من أقسام كتابه: نشر هذا البحث، بحث الإيرانى الغامض فى مصر للويس عوض، أولاً فى شكل مقالات بمجلة التضامن بلندن، فى الفترة من ١٦

---

[1] راجع الفصل الذى كتبناه عن الأفغانى فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر. دار قباء – القاهرة.

أبريل إلى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٨٣. وأحدثت هذه المقالات ردود فعل عنيفة عند ظهور الأعداد الأولى وقبل أن يكتمل نشرها، وتمثلت فى هجوم شرس قادته صحيفة الأهرام على المؤلف، وكان لويس عوض قد قدم هذا البحث قبل ذلك لنشره بالأهرام واستقال منها احتجاجاً على تأخرها فى نشره.

ويرى نسيم مجلى أن مقالات الهجوم هذه قد اثبتت حقيقة هامة وهى أن كتابها كانوا فى عزلة تامة عن كل ما نشر عن الأفغانى على مدى ربع قرن قبل ذلك، والتى ظهرت فى إيران وأوروبا وأمريكا.

لقد ناقش الأستاذ نسيم مجلى هذا الموضوع مناقشة مستفيضة تكشف عن قدرته البارعة فى التحليل والمقارنة والموازنة بين العديد من الآراء، وذلك من خلال ما يقرب من ستين صفحة فى كتابه (من ص٤٢٦ إلى ص٤٨٦). وأورد العديد من الآراء التى أثيرت بعد كتابات الدكتور لويس عوض، ومن بينها ما كتبه صاحب هذه الدراسة لكتاب نسيم مجلى، وذلك على صفحات جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٣/٩/٢٠، وجريدة وطنى بتاريخ ١٩٩٥/٧/٢ •

ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن رأى الدكتور لويس عوض حول جمال الدين الأفغانى يعد إلى حد كبير رأياً سليماً، وإن كان يحتاج إلى أدلة أخرى عديدة. والمهم فى رأينا وكما قلنا أكثر من مرة، إن الأفغانى بقدر ما كان نشيطاً فى المجال السياسى، فإنه كان خاملاً وغاية فى الضعف فى المجال الفكرى. إن كتاباته حين يتعرض للجوانب الفكرية، تعد أضعف من خيط العنكبوت، بل تكشف عن جهله وسطحيته، هذا بالإضافة إلى بعض عباراته والتى نجد فيها خلطاً فاحشاً بين الدين والسياسة.

الأمانة والموضوعية والدقة صفات التزم بها مؤلفنا الفاضل الأستاذ نسيم مجلى حين عرض لكل أبعاد موضوع "الإيرانى الغامض فى مصر". وأعتقد اعتقاداً لا

يخالجنى فيه أدنى شك، أن دراسة نسيم مجلى لهذا الموضوع تعد دراسة لا يمكن أن يستغنى عنها أى مهتم بجمال الدين الأفغانى من قريب أو من بعيد.

أقول وأكرر القول إنه ليس بوسع أية دراسة، أن تحلل كتاباً موسوعياً غاية فى الروعة والدقة، ونقصد به كتاب لويس عوض ومعاركه الأدبية لمؤلفنا الناقد نسيم مجلى، وهو من هو فى مجال الدراسات النقدية والأدبية والفكرية. لقد بذل فى كتابه الذى اقتربت صفحاته من ستمائة صفحة، جهداً، وجهداً كبيرًا. وإذا كنت قد اختلفت مع مؤلفه فى بعض الآراء التى أشرت إليها خلال هذه الدراسة النقدية، فإن هذا الإختلاف، أو الخلاف فى الرأى يعد شيئاً طبيعياً، ولا يقلل من أهمية هذا الكتاب، أو المجلد بأية صورة من الصور. صحيح أن بعض القضايا التى تضمنها الكتاب كانت تحتاج إلى مناقشة مستفيضة، ومن بينها المصادر التى اعتمد عليها لويس عوض، بالإضافة إلى أن بعض الآراء التى أوردها الأستاذ نسيم مجلى، كشهادات أو أقوال كان من الأفضل عدم ذكرها، إذ أن بعضها لأناس من أشباه الباحثين، والهالات التى أحاطت بهم، إنما تمت تحت تأثير الطبل الأجوف وأبواق الدعاية. ولكن حرص الأستاذ نسيم مجلى على الموضوعية كان فيما يبدو الدافع له لذكر هذه الآراء، سواء المؤيدة أو المعارضة للويس عوض. من حقنا أن نفخر بالكتاب، ومن واجبنا دراسة كل صفحة من صفحاته. إنه كتاب قضى الأستاذ نسيم مجلى فى تأليفه سنوات طوال. وإذا كان لويس عوض قد دخل تاريخ فكرنا العربى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها،فقد دخل أيضاً كتاب الأستاذ نسيم عن لويس عوض من أوسع الأبواب فى تاريخ المؤلفات العميقة والأكاديمية والجادة فى مكتبتنا العربية، وما أقلها وما أندرها.

الفصل الثالث عشر

قاسم أمين: المرأة الجديدة

دراسة د. زينب الخضيرى



قاسم أمين

المرأة الجديدة[1]

دراسة: د. زينب الخضيرى

يمكننا القول بأن قاسم أمين يحتل فى تاريخنا الفكرى المعاصر مكانة بارزة. ويكفى أننا لا نذكر حركة تحرير المرأة العربية، إلا ونذكر معها كتاب المرأة الجديدة، وكتاب تحرير المرأة. والكتابان من تأليف قاسم أمين.

لقد بذل مفكرنا قاسم أمين جهدا، وجهدا كبيرا، فى هذا المجال، مجال الدفاع عن تحرير المرأة العربية، واستطاع أن يضع بصماته الواضحة البارزة فى ميدان الدفاع عن تحرير المرأة والدعوة إلى تحررها من القيود والأغلال والعادات والتقاليد البالية.

إن من يطالع الفصول التى تضمنها كتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين، يدرك مقدار الجهد الذى بذله مؤلفنا فى محاولته اقناع العقول والنفوس بالقضية التى يدافع عنها، وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا الفترة الزمنية التى تم خلالها تأليف هذا الكتاب. فإذا كانت الأفكار التى قال بها قاسم أمين، قد أصبحت مقررة وواضحة الآن إلى حد كبير، إلا أنها كانت فى أيامه، وحين شرع فى تأليف كتابه، تحتاج إلى دفاع ومناقشة للآراء المعارضة للأفكار التى ذهب إليها، تماما كما هو الحال بالنسبة للدكتور طه حسين، إذ أن الأفكار التى قال بها، إذا كنا نجد بعضها يعد الآن أقرب إلى الآراء البديهية، إلا أن تلك الأفكار قد لاقت معارضة كبيرة فى الوقت الذى قال فيه بتلك الأفكار.

---

[1] راجع ما كتبناه عن قاسم أمين فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر.

ينبغى إذن الحكم على الجهد الذى قام به قاسم أمين من خلال الفترة الزمنية، لقد ألف كتابه المرأة الجديدة منذ ما يقرب من ثمانين عاماً، وعلى وجه التحديد عام ١٩٠٠م ومعنى هذا أنه يفصل بيننا وبينه فترة زمنية تعد طويلة إذا وضعنا فى اعتبارنا التطورات والمكاسب الكبيرة التى حصلت عليها المرأة، ليس فى مصر أو عالمنا العربى فحسب، بلْ فى سائر بلدان العالم.

قلنا إن كتاب المرأة الجديدة قد تضمن مجموعة من الفصول أو الأقسام. إنه يدرس "المرأة فى حكم التاريخ، وحرية المرأة" والواجب على المرأة لنفسها"، والواجب على المرأة لعائلتها "والتربية والحجاب" إلى آخر الفصول أو الأقسام التى تضمنها كتابه الهام،"المرأة الجديدة".

كتاب هام إذن قام بتأليفه مفكرنا قاسم أمين. كتاب لا غنى عنه إذا أردنا دراسة التطور الفكرى فى مصر وخاصة فى مجال المرأة، وإذا أردنا أيضاً المقارنة بين صورة المرأة قديماً، والصورة التى يرجوها قاسم أمين للمرأة، وأيضاً صورة المرأة فى أيامنا الحالية.

من هنا كان ترحيبنا بصدور طبعة جديدة لكتاب المرأة الجديدة، وذلك منذ شهور قليلة. وقد تميزت هذه الطبعة بدراسة مطولة، دراسة دقيقة عميقة متأنية قامت بها الدكتورة زينب الخضيرى تحت عنوان "قراءة جديدة للمرأة الجديدة". وقد سبقت هذه الدراسة، نص الكتاب.

والمتأمل فى هذه الدراسة يجد أن المؤلفة الدكتورة زينب الخضيرى قد بذلت فيها أقصى جهدها، وناقشت مناقشة مستفيضة آراء قاسم أمين، والآراء العديدة التى دارت حول الكتاب منذ صدوره. وهى دراسة ضرورية ولا غنى عنها، إذ ما أكثر القضايا المتشابكة والشائكة التى تتعلق بهذا الكتاب، ومن بينها ما أثير حول كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين والذى يتصل بطبيعة الحال بكتاب "المرأة الجديدة"، وما

أثير حوله من آراء وصلت إلى حد نسبة الكتاب إلى مؤلف آخر، وغير ذلك من قضايا وآراء متعارضة وشائكة، قامت بتحليلها وفحصها فحصاً نقدياً دقيقاً باحثتنا الدكتورة زينب الخضيرى فى دراستها لهذا الكتاب، والتى بلغت ٣٥ صفحة (من ص٥ إلى ص٣٩)

ومن الواضح أن مفكرنا قاسم أمين يدافع عن المرأة ويعلى قدرها، وذلك ابتداء من الصفحات الأولى من كتابه، بل من صفحة اهدائه الكتاب إلى سعد زغلول.فهو يقول فى إهدائه: إلى صديقى سعد زغلول. فيك وجدت قلباً يحب وعقلاً يفكر وإرادة تعمل. أنت الذى مثلت إلى المودة فى أكمل أشكالها: فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها. من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته. ذلك هو سر السعادة التى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالاً ونساء.

ويربط قاسم أمين فى مقدمة كتابه بين المرأة الجديدة والتمدن الحديث فالمرأة الجديدة هى ثمرة من ثمرات التمدن الحديث بدأ ظهورها فى الغرب على أثر الإكتشافات العلمية التى خلصت العقل الإنسانى من سلطة الأوهام والظنون والخرافات وسلمته قيادة نفسه ورسمت له الطريق التى يجب أن يسلكها.

ويلاحظ قاسم أمين أن الأوروبيين كانوا قبل ذلك يرون رأينا اليوم فى النساء وأن أمرهن مقصور على النقص فى الدين والعقل وأنهن لسن إلا عوامل الفتنة وحبائل الشيطان وكانوا يقولون إن "ذات الشعر الطويل والفكر القصير" لم تخلق إلا لخدمة الرجل. وكانوا يسخرون من المرأة التى تترك صناعة الطعام وتشتغل بمطالعة كتب العلم ويرمونها بالتطفل على ما كانوا يسمونه خصائص الرجال.

معنى هذا أن قاسم أمين يبين لنا أننا لكى نتطور مثل أوروبا فلابد إذن من تغيير نظرتنا إلى المرأة وذلك حتى نعيش عصرنا، عصر التمدن والحضارة.

وإذا كنا نجد بعض رجال الدين يقاومون تعلم المرأة والنظر إليها نظرة سامية راقية، فإن قاسم أمين وجد من الضرورى أن يبين لنا أن هذا التصور من بعض رجال الدين لا يعد تصورا سليماً، بل منافياً للشريعة الإسلامية. فهو يقول: المطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة هو من <u>أنفس الأصول</u> التى يحق لها أن تفتخر به على ما سواها لأنها منحت المرأة من اثنى عشر قرناً مضت الحقوق التى لم تنلها المرأة الغربية إلا هذا القرن وبعض القرن الذى سبق. حتى أنها لا تزال محرومة من بعض الحقوق وهى الآن مشتغلة بالمطالبة بها (المرأة الجديدة ص٤٧)

ويحاول قاسم أمين بحكم دراساته السياسية والقانونية والإجتماعية أن يبين العلاقة بين مشكلة المرأة من جهة، والأنظمة الديمقراطية أو الديكتاتورية من جهة أخرى فهو يبين لنا أننا إذا نظرنا إلى البلاد الشرقية فإننا نجد أن المرأة فى رق الرجل، والرجل فى رق الحاكم. فهو ظالم فى بيته، مظلوم إذا خرج منه. أما بالنسبة للبلاد الأوروبية حيث الحكومات هناك تقوم على الحرية ومؤسسة على احترام الحقوق الشخصية، فإننا نجد شأن النساء فيها قد ارتفع إلى درجة كبيرة فى الإعتبار وحرية الفكر والعمل. كما أن المرأة الأمريكية منحت فى جميع الولايات المتحدة حظاً عظيماً من الحقوق العمومية. ومثال ذلك أنها تشتغل بالمحاماة وتترافع أمام جميع المحاكم ويوجد قضاة من النساء فى بعض الولايات الأمريكية كما تم تعيين بعض النساء فى وظيفة نائب عمومى، ويوجد عدد عظيم منهن فى وزارات الخارجية والداخلية والحربية (المرأة الجديدة ص٥٢ - ٥٤ فى مواضع متفرقة).

أما بالنسبة لروسيا، فإن مركزها الجغرافى - فيما يقول قاسم أمين. قد قضى عليها بأن تتأثر بالعادات الشرقية، ولهذا فقد عاش نساؤها من أهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى محجوبات كنساء مسجونات فى البيوت محرومات من التربية والتعليم وليس لهن من الحقوق إلا ما تسمح به رحمة أزواجهن، ولم تبطل هذه

العادة من البلاد الروسية إلا بعد صدور أمر من جانب بطرس الأكبر بإلغاء الحجاب مرة واحدة وكان ذلك فى سنة ١٧٢٥ ثم قامت الأمبراطورة كاترين بإتمام عمل بطرس الأكبر حين اشتغلت بتأسيس المدارس للبنات ونشر التربية العقلية والأدبية بينهن (المرأة الجديدة ص٥٥ – ٥٦)

وهكذا يعطينا قاسم أمين الكثير من الأمثلة التاريخية من خلال إشاراته إلى كثير من البلدان الشرقية والغربية والأمريكية. كما يبين أنه من استعراض تاريخ حياة المرأة فى العالم يتكشف لنا أن المرأة عاشت حرة فى العصور الأولى حيث كانت الإنسانية لم تزل فى مهدها ثم بعد تشكيل العائلة وقعت فى الإستعباد الحقيقى. ثم لما قامت الإنسانية على طريق المدنية تغيرت الصورة، صورة هذا الرق واعترف للمرأة بشئ من الحق، وإن خضعت لإستبداد الرجل الذى قضى عليها بأن لا تتمتع بالحقوق التى اعترف لها بها. ثم لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية نالت المرأة حريتها التامة وتساوت المرأة بالرجل فى جميع الحقوق أو على الأقل فى معظمها.

هذا يعنى وجود أربعة مراحل أو أدوار لتاريخ حياة المرأة فى العالم ويمكن من جانبنا توضيحها فيما يلى:

المرحلة الأولى: حرية المرأة فى فجر الإنسانية وقبل تشكيل الأسرة.

المرحلة الثانية: الإستعباد الحقيقى للمرأة بعد تشكيل الأسرة (الرق).

المرحلة الثالثة: الإعتراف للمرأة ببعض الحق، وإن كانت قد خضعت للرجل (تغير صورة الرق).

المرحلة الرابعة: حصول المرأة على حريتها التامة ومساواتها بالرجل فى أكثر الحقوق.

وإذا تساءلنا فى محاولة لتطبيق هذه المراحل على المرأة المصرية، عن المرحلة التى تمر بها اليوم، أجابنا قاسم قائلاً: المرأة المصرية هى اليوم فى الدور

الثالث من حياتها التاريخية بمعنى أنها فى نظر الشرع إنسان حر له حقوق وعليه واجبات ولكنها فى نظر رئيس العائلة وفى معاملته لها ليست بحرة بل محرومة من التمتع بحقوقها الشرعية وهذه الحال التى عليها المرأة اليوم هى من توابع الإستبداد السياسى الذى كان يخضعنا ونخضع له (المرأة الجديدة ص٥٦).

ويلاحظ أن قاسم أمين رغم الجهد الكبير الذى قام به سواء فى ضرب الأمثلة من البلاد العربية والأوروبية والأمريكية، أو فى محاولته تقسيم تاريخ المرأة إلى أربعة أدوار، أن الصواب قد جانبه تماماً حين يلجأ إلى التعميمات التى لا تخلو من أخطاء وأوجه فساد. فمن الصعب فيما نرى من جانبنا القول بطابع معين لوضع المرأة فى عصر معين وفى بلد معين. وقد تختلف النظرة إلى المرأة من المدينة إلى القرية. وقد نجد تشابها بين وضع المرأة فى بعض الفترات الزمنية، وضعها فى ولاية أمريكية، ووضعها فى روسيا، مع ملاحظة أن قاسم أمين يتحدث بطبيعة الحال عن البلاد الروسية قبل الثورة. لقد لجأ قاسم أمين إلى تعميمات خاطئة وقد أفسدت عليه وعلينا التوصل إلى النظرة الصحيحة للمرأة وتاريخها فى كل مرحلة من المراحل كما يلاحظ أن قاسم أمين حين يتحدث عن الظلم الواقع على المرأة، لا يركز أساساً إلا على الإستبداد السياسى، فى حين أننا قد نجد دولتين تعانى كل دولة منهما من الإستبداد السياسى ورغم ذلك قد نجد وضع المرأة فى دولة منها يختلف تماماً عن وضع المرأة فى الدولة الأخرى. هذا نجده قديماً ونجده فى الفترة الزمنية التى عاشها قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨) كما نجده فى الأيام التى نعيشها الآن. وكان ينبغى على قاسم أمين وبحكم دراساته السياسية والقانونية والإجتماعية، أن يتجنب تماماً هذه التعميمات الخاطئة، والمقدمات غير الصحيحة التى لابد أن تؤدى به بالتالى إلى نتائج خاطئة ومجانبة للصواب. ماذا أقول! بل لا يخلو بعضها من نوع من

السطحية والسذاجة، وذلك على الرغم من القصد النبيل الذى سعى إليه مؤلفنا العظيم قاسم أمين.

ويعقد قاسم أمين فصلا رائعا يتحدث فيه عن حرية المرأة وعن الحجاب وهو يعطينا العديد من الأمثلة التى لايخلو أكثرها من دقة وتحليل اجتماعى صادق، كما يناقش قدرات الرجل والمرأة وذلك للرد على كثير من الإعتراضات التى تقوم على أساس ضرورة التمييز بين الرجل والمرأة ورفع الرجل على المرأة.

فإذا كان الرجل يرى أن المرأة تعد ملكا له، فإن الحجاب هو عنوان ذلك الملك القديم وأثر من آثار تلك الأخلاق المتوحشة – فيما يرى قاسم أمين – والتى عاشت بها الإنسانية أجيالا قبل أن تهتدى إلى إدراك أن الذات البشرية لا يجوز أن تكون محلا للملك لمجرد كونها أنثى كما اهتدت إلى أن تفهم أن سواد البشرة ليس سببا لأن يكون الرجل عبدا للأبيض.

لقد كبر على الرجل أن يعتبر المرأة التى كانت ملكا له بالأمس، مساوية له اليوم، فزين له أن يضعها فى مرتبة أقل منه فى الخلق، وزعم أن الله لما خلق الرجل وهبه العقل والفضيلة وحرمها من هذه الهبات، وأنها لضعفها وقلة عقلها وميلها مع الشهوات، يلزم أن تعيش غير مستقلة تحت سيطرة الرجل وأن تنقطع عن الرجال وتحتجب بأن تقعد فى بيتها وتستر وجهها إذا خرجت وأنها ليست أهلا للرقى العقلى والأدبى فيلزم أن تعيش جاهلة. وذلك هو السر فى ضرب الحجاب وعلة بقائه إلى الآن. فأول عمل يعد خطوة فى سبيل حرية المرأة – فيما يرى قاسم أمين – هو تمزيق الحجاب ومحو آثاره(ص٦٥ من المرأة الجديدة).

كما يذكر قاسم أمين آراء كثير من العلماء حول طبيعة المرأة فى مجال القدرات العقلية وغيرها ويذهب بعض ذكره لبعض الآراء إلى القول بأن المرأة فى رأى أعظم العلماء وأدقهم بحثا مساوية للرجل فى القوى العقلية وتفوقه فى

الإحساسات والعواطف، وإنما يظهر للناظر وجود فرق عظيم بينهما فى العقل لأن الرجال اشتغلوا أجيالا عديدة بممارسة العلم فاستنارت عقولهم بخلاف النساء. فعلى أى دليل علمى يستند الرجال فى استعباد النساء وبأى حق جاز لهم أن يحرموهن من حريتهن، لنفرض جدلا أن عقل المرأة أقل من عقل الرجل فهل نقصان العقل فى شخص يبيح لأحد أن يجرده من حريته وما قررته الشريعة الإسلامية من حقوق للمرأة يقودنا إلى أن هذه السلطة الأدبية هى التى ترمى إليها الآية الشريفة التى ذكرت أن الرجال قوامون على النساء. وقد نحت الشرائع الأوروبية هذا النحو فخولت للرجل مثل هذه السلطة على زوجته وسمتها سلطة الزوجية ومع ذلك فكل إنسان يرى النساء الغربيات متمتعات بحريتهن.

وهكذا يمضى مفكرنا النابغة قاسم أمين فى ذكر العديد من الأمثلة التى ينبغى من ورائها الدفاع عن حرية المرأة وبيان أضرار الحجاب. ونجد هذا واضحا تماما ليس فى هذا الفصل فقط والذى عنوانه حرية المرأة، بل نجده أيضا فى الفصل الذى يناقش فيه الواجب على المرأة لنفسها. وهو يدافع عن تعليم المرأة ويبين لنا أهمية أن تفعل. فمهما اختلف الناس فى فهم طبيعة المرأة، فلا يجوز أن يدعى أحد أنها يمكنها أن تستغنى عن الأعمال التى تحافظ لها على قواها الحيوية وتعدها للقيام بحاجات وضرورات الحياة الإنسانية. وإذا كان الكثير منا يظن أن المرأة فى غنى عن أن تتعلم وتعمل ويزعمون أن رقة مزاج النساء ونعومة بشرتهن وضعف بنيتهن يصعب معه أن يتحملن متاعب الكد وشقاء العمل، فإن هذا الكلام هو فى الحقيقة تدليس على النساء وإن كان ظاهره الرأفة بهن.

ويحلل تحليلا دقيقا أوجه الحاجة إلى عمل المرأة وخاصة بالنسبة لنفسها على المستوى الشخصى والعائلى على الأقل وذلك حتى لا تبقى عالة على أبيها أو أخيها فى حالة عدم زواجها. وهو يذكر العديد من الأمثلة لكى يدلل بها على وجهة

نظره ويضرب أيضاً أمثلة كثيرة لبعض المهن التى يمكن للمرأة القيام بها. فيجب أن تربى المرأة على أن تكون لنفسها أولاً لا أن تكون متاعاً لرجل ربما لا يتفق لها أن تقترن به مدة حياتها. يجب أن تربى على أن تدخل فى المجتمع الإنسانى وهى ذات كاملة لا مادة يشكلها الرجل كيفما شاء. يجب أن تربى المرأة على أن تجد أسباب سعادتها وشقائها فى نفسها لا فى غيرها (ص٩٠)

إنها مبادئ يقررها قاسم أمين فى كتابه عن المرأة الجديدة. ومن الواضح دفاعه عنها خلال كل صفحات وفصول كتابه. وهو يرتب على ذلك قوله: نتج من كل ما تقدم أن للمرأة حقاً فى أن تشتغل بالأعمال التى تراها لازمة للقيام بمعاشها وأن هذا الحق يستدعى الإعتراف لها بحق آخر وهو أن توجه تربيتها إلى الطرق التى تؤهلها إلى الإنتفاع بجميع قواها وملكاتها. وليس معنى ذلك إلزام كل امرأة بالإشتغال بأعمال الرجال وإنما معناه أنه يجب أن تهيأ كل امرأة للعمل عند مساس الحاجة إليه.

وهذا ما نجده أيضاً فى الفصل الذى يناقش فيه "الواجب على المرأة لعائلتها" فهو يدافع عن عمل المرأة، ويرد على ظن بعض الناس بأن تمتع المرأة بحريتها واشتغالها بما يهتم به الرجال والتوسع فى تربيتها يؤدى إلى إهمالها فى القيام بما يجب عليها فى الشئون العائلية وبالتالى وضعوا بينها وبين العالم الخارجى حجاباً تاماً حتى لا يشغلها شئ عن معاشرة زوجها وإدارة منزلها وتربية أولادها.

كما نطالع فى آخر فصل من فصول كتابه مناقشة مستفيضة لموضوع التربية والحجاب وهو فصل بذل فيه مفكرنا قاسم أمين جهداً واضحاً بارزاً وإن كان يميل فى بعض نقاطه إلى التركيز على رأيه دون المناقشة الموضوعية للآراء المخالفة، كما نجد فيه نوعاً من الخلط وإدخالاً لبعض الموضوعات التى لاتدخل دخولا مباشراً فى الموضوع الذى يكتب فيه.

وفى الصفحات الأخيرة من الكتاب، أى الخاتمة، فإننا نجد تركيزا من جانب المؤلف على بيان أن النساء قطعن دور الاستعباد ولم يبق بينهن وبين الحرية إلا حجاب رقيق، إذ شعر المصريون بالحاجة إلى تربية بناتهم بعد أن كانوا لا يعلمونهن شيئا، كما تم تخفيف الحجاب وذهابه شيئا فشيئا، بالإضافة إلى ضيق الشبان من التزوج على الطريقة القديمة وتمنيهم تغييرها بما يمكنهم من معرفة المخطوبة. بل إن الحكومة قد اهتمت بموضوع إصلاح المحاكم الشرعية وما يتعلق بهذا الإصلاح من مجالات تتعلق بالعائلات المصرية وموضوع تعدد الزوجات، وتخويل المرأة حق الطلاق.

وهو يشير إلى ما جاء فى تقرير الشيخ محمد عبده الخاص بإصلاح المحاكم الشرعية، ويركز على كلامه الخاص بموضوع تعدد الزوجات حين قال: هذا وإنى أرفع صوتى بالشكوى من كثرة ما يجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة. فإن الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو اثنتان وهو لا يستطيع الإنفاق عليهن ولا يزال معهن فى نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية ثم إنه لا يطلقهن ولا حتى واحدة منهن ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفى أولادهن ولا يمكن له ولا لهن أن يقيموا حدود الله وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف على أحد.

وكم يثنى قاسم أمين على الشيخ محمد عبده حين يجد من جانبه اهتماما بمسألتين أثارهما فى كتاب تحرير المرأة ولم يغفلهما فى كتاب المرأة الجديدة وهما - كما قلنا - مسألة تعدد الزوجات ومسألة تخويل المرأة حق الطلاق. فهو يقول: هاتان المسألتان مسألة تعدد الزوجات ومسألة تخويل المرأة حق الطلاق هما من أهم المسائل التى استلفتتا إليهما الأنظار فى كتاب تحرير المرأة ويسرنا أن عالماً عظيماً وفقيهاً حكيماً مثل الشيخ محمد عبده رأى أنهما جديرتان بهمته فأيد بصوته المسموع ما اقترحناه فيهما (ص١٣٥).

مسائل عديدة وموضوعات شائكة تعرض قاسم أمين لدراستها وتحليلها وقد تسلح بالشجاعة لا شك فى ذلك وخاصة إذا وضعنا فى الإعتبار الفترة الزمنية التى أتم فيها تأليف هذا الكتاب، كتاب المرأة الجديدة. وإذا كنت قد أشرت إلى بعض مواضع الضعف فى كتاب قاسم أمين سواء من حيث المنهج الذى سار عليه أو المادة العلمية فى كتابه، إلا أننى أحنى رأسى لشجاعته، إن عقليته تعد عقلية متفتحة وما أحوجنا الآن إلى أمثاله. مناقشاته تعد إلى حد كبير مناقشات مستفيضة زاخرة بالأمثلة الواقعية الحية وهذا كله يحمد له.

لهذا كله كانت سعادتنا - كما قلت - بالدراسة القيمة التى قدمتها زميلتنا الدكتورة زينب الخضيرى. لقد استطاعت سبر أغوار فكر قاسم أمين فى كتابه المرأة الجديدة. وأثارت مجموعة من القضايا الهامة التى تتعلق من قريب أو من بعيد بفكر الرجل. ولم تقتصر على الكتاب الذى تصدت لدراسته، كتاب المرأة الجديدة، بل نجدها تشير إشارات هامة وضرورية جدا إلى بقية كتاباته وعلى رأسها كتابه "تحرير المرأة" وقد ألفه عام ١٨٩٩ أى قبل "المرأة الجديدة" بعام واحد.

وإذا كانت الدكتورة زينب الخضيرى قد اهتمت بدراسة كتاب قاسم أمين، فإن هذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على أهمية الموضوعات التى أثارها المؤلف فى كتابه وحيويتها حتى أيامنا هذه. إذ لا يخفى علينا أن الموضوعات التى تصدى قاسم أمين لدراستها ما زالت مثار اهتمام مفكرينا وكتابنا حتى يومنا الحالى وبصورة مباشرة وغير مباشرة ومن بينهم درية شفيق فى كتاباتها وتوفيق الحكيم وخاصة فى كتابه "تحت شمس الفكر" والدكتور زكى نجيب محمود فى مقالاته الرائعة بجريدة الأهرام وقد أثارت ردود فعل واسعة... بالإضافة إلى ما يثار بالجمعيات النسائية والتنظيمات الخاصة بالمرأة، وأيضا قوانين العمل بالنسبة للمرأة، وقوانين الأحوال الشخصية والقوانين الخاصة بالأسرة، إلى آخر تلك القوانين التى لا نعدم وجود صلة

بينها وبين ما أثاره قاسم أمين في كتابه الرائع "المرأة الجديدة" استطاعت الدكتورة زينب الخضيرى فى دراستها المتأنية الدقيقة التوصل إلى فهم أفكار قاسم أمين، فهما موضوعياً شاملاً. وكانت لها شخصيتها الواضحة فى تحليل ما تصدت له من دراسة خاصة بهذا الكتاب وما فيه من قضايا هامة. وعلى الرغم من ميل الدكتورة زينب الخضيرى إلى الدفاع عن آراء قاسم أمين، إلا أنها لم تلجأ إلى المبالغة فى الدفاع عن المرأة مجرد دفاع لكونها من السيدات، أى لم تلجأ إلى لغة الصراخ والعويل والحشو كما نجد ذلك عند بعض النساء العربيات بصفة خاصة، بل نجد مؤلفتنا الفاضلة وقد استفادت من دراستها الفلسفية والمنطقية، تلجأ إلى المناقشة الهادئة والموضوعية والعلمية.

وتكشف الدراسة عن المنهج الذى آثره قاسم أمين. لقد بينت لنا أن قاسم أمين قد أدرك خطورة الإستغراق فى التأملات النظرية التى تسفر عن نظريات مثالية لا تأثير لها فى حياتنا الواقعية. ولهذا نراه يتجه إلى الدراسة العلمية. إنها تقول بعد ذكرها للعديد من الأمثلة التى تؤيد بها رأيها: لقد أدرك قاسم أمين بعد أن درس تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وما آلت إليه، وتاريخ الحضارة الغربية وما أصبحت عليه، أن الفارق بين الإثنتين هو أن الأولى تجاهلت المنهج العلمى الحديث، بينما جددت الثانية صرحها على أساسه (ص١٠ من دراستها).

وهكذا نجدها فى تحليلها لآراء قاسم أمين الخاصة بالمرأة تشير واثقة الخطوة فى تفسيراتها لآراء مفكرنا قاسم أمين وكم رجعت إلى العديد من المصادر والمراجع التى تتعلق بالموضوعات التى أثارها قاسم أمين، وواثق الخطوة يمشى ملكاً. إنها تنتقل انتقالاً منطقياً وعلى أساس دقيق متين من معالجتها لمشكلة المرأة الحضارية، وطبيعة المرأة، ومشكلة الحجاب بالنسبة للمرأة، وتربية المرأة وتعليمها (ص١٤ حتى ص٢٩ فى مواضع متفرقة).

لقد استطاعت التعبير بدقة عن الآراء الحقيقية لقاسم أمين وحاولت إزالة الضباب الذى تكون حول بعض آرائه. ويقينى أن روح قاسم أمين ترفرف الآن فى سعادة بالغة بهذه الدراسة الجيدة التى قدمتها الدكتورة زينب الخضيرى، وخاصة أن آراء قاسم أمين قد لاقت معارضة شديدة تارة وتجاهلاً تارة أخرى.

إنها تبين فى دراستها كيف آمن قاسم أمين بأن السبيل الوحيد للنهوض بالمجتمع وإصلاحه هو تحرير المرأة، وبأن السبيل الوحيد لتحرير المرأة هو تربيتها تربية سليمة لقد جعل هذه القضية - كما تقول - هى رسالته فى الحياة حبا فى وطنه. حدد لنفسه هدفاً دقيقاً، الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هى التخطيط والعمل، ورفض أن يبعثر الجهد فى الكلام عن غايات رائعة ولكنها غير محددة، ولم تدرس وسائل تحققها بعناية (ص٣٠ من مقدمتها).

وإذا كنا قد أشرنا إلى وجود بعض القضايا والمشكلات حول حقيقة كتاب المرأة الجديدة إذا اعتبرناه إيضاحاً وبلورة للقضايا الرئيسية الموجودة بكتاب تحرير المرأة، ووجود بعض القضايا المتعلقة بالشك فى نسبة الكتاب إلى قاسم أمين، كتاب تحرير المرأة، والمتعلقة أيضاً بمدى أصالة أفكار قاسم أمين فى كتاب "تحرير المرأة" وكتاب "المرأة الجديدة". وقد ناقشت الدكتورة زينب الخضيرى كل قضية من القضيتين مناقشة مستفيضة (من ص٣١ حتى ص٣٩ من المقدمة) وقد ذكرت آراء القائلين بنسبة كتاب تحرير المرأة إلى مؤلف آخر غير قاسم أمين وقامت بالرد ردًا منطقياً محكماً على هذه الآراء وخاصة ما تعلق منها بنسبة الكتاب إلى الشيخ محمد عبده، وكأن الشيخ محمد عبده هو المثقف الوحيد الذى أنجبته مصر المعاصرة!! فى حين أن محمد عبده له العديد من الأخطاء والتى لا أدرى لماذا نتغافل عنها وذلك رغم دوره الكبير فى مجال الإصلاح والتجديد.

ولا أود الإشارة إلى هذه القضية إشارة تفصيلية وخاصة أنها تتعلق أساساً بكتاب تحرير المرأة، وأكتفى بالقول بأن بعض حجج الذين ذهبوا إلى اتهام قاسم أمين بأنه ليس صاحب كتاب "تحرير المرأة" لا تخلو من سطحية وسذاجة، كما أن بعض أصحاب تلك الحجج لم يكلفوا أنفسهم مقارنة أفكار وأسلوب قاسم أمين بأفكار وأسلوب محمد عبده.

أما موضوع أو قضية ريادته فى مجال مشكلة المرأة، أى مدى أصالة أفكاره وهل كانت آراؤه مجرد نقل أو تأثر بالسابقين مجرد تأثر، فإننى أود أن أشير من جانبى إلى أنه ليس فينا أصيل، وذلك إذا فهمنا الأصالة بمعنى عدم التأثر إطلاقاً بالسابقين ومنذ سنوات ليست ببعيدة قال العلامة الأمريكى ول ديورانت فى موسوعته "قصة الحضارة" وهو بصدد دفاعه عن كتاب الشفاء وكتاب القانون لابن سينا: إن المبدعين تمام الإبداع الأصلاء تمام الأصالة لا يوجدون إلا فى مستشفيات الأمراض العقلية".

صحيح أن قاسم أمين قد تأثر بأفكار سبقته. وقد أشارت الدكتورة زينب الخضيرى لمحاولات من سبقوه. ومن فينا لم يتأثر بالسابقين. إن التأثر بالسابقين يعد ظاهرة صحية لا ظاهرة مرضية وإن كان أشباه الدارسين لا يعلمون. وحسناً فعلت المؤلفة الدكتورة زينب الخضيرى حين اعترفت بتأثر قاسم أمين بمن سبقوه وحين بينت "الجديد" عند قاسم أمين. استمع إليها أيها القارئ العزيز حين تقول بعد دراستها المتأنية لجوانب المشكلة، مشكلة مدى أصالة قاسم أمين فى أفكاره. إنها تقول: إن الجديد الذى أتى به قاسم أمين كان فى استيعابه لكل الجهود السابقة ولصياغتها فى بنية فكرية جديدة تماماً، ريادة قاسم أمين فى رأيى تمثلت فى الطرح الجديد للمشكلة القديمة، هذا الطرح العظيم الذى مكنه من تبين الحل الذى

يتمثل فى ضرورة تعليم المرأة وتربيتها ومشاركتها فى الحياة الإجتماعية (ص٣٧ من الدراسة).

والواقع أن قاسم أمين قد وضع بصماته البارزة فى مجال الإهتمام بالمرأة وقضاياها ومشكلاتها ودخل هذا المجال أو الميدان من أوسع أبوابه وأرحبها لقد قدم لنا فى "المرأة الجديدة" دراسة محكمة مستنيرة. كما قدمت لنا الدكتورة زينب الخضيرى دراسة شاملة لهذا الكتاب، دراسة لا يستغنى عنها المهتمون بالقضايا الإجتماعية والفكرية من قريب أو من بعيد.

الفصل الرابع عشر

زكى نجيب محمود

ذكريات ومحاضرات عنه وكتب له

ويتضمن هذا الفصل:

١- مقالة لتوفيق الحكيم نشرت بجريدة الأهرام فى ٨/ ٤/ ١٩٨٥ ويشير فيها إلى ضرورة نشر محاضرتى عن زكى نجيب محمود فى مناسبة مرور ثمانين عاماً على مولده.

٢- نص محاضرتى بدمياط عن زكى نجيب محمود والتى أشار بنشرها توفيق الحكيم وقد نشرت بجريدة الأهرام الدولية وقدم لها الأستاذ سامى خشبة.

٣- صورة من شهادة تقدير خاصة بالإحتفال بزكى نجيب محمود فى دمياط.

٤- خطاب من زكى نجيب محمود للمؤلف

٥- صور من إهداءات زكى نجيب محمود للمؤلف

٦- خطابات من المؤلف للناقد عبد الفتاح البارودى (الأخبار)

٧- خطاب من المؤلف للأستاذ محمد صالح (الأهرام)

٨- مقالة بعنوان: زكى نجيب محمود... مفكر عربي بروح غربية.

٩- مقالة بعنوان: زكى نجيب محمود ورؤيته المستقبلية.

١٠- مقالة بعنوان: زكى نجيب محمود وثقافة القرن الجديد.

١١- تصدير المؤلف لكتاب: زكى نجيب محمود: آراء وأفكار - تأليف د. سعيد مراد.

١٢- تحليل نقدى لكتاب بذور وجذور لزكى نجيب محمود.

ص ١١ ١٩٨٥/٤/٨

بلوغ الثمانين .. لزكى نجيب محمود

اردت ان اهنىء الدكتور زكى نجيب محمود ببلوغه الثمانين .. وكنت بالمستشفى ورقم تليفونه ليس معي . وفطنت الى ان التهنئة بالكلمة ليست كافية فمجرد مرور سنة من العمر لايعني في نظرى شيئا مهما .. انما المهم هو ماصنع الانسان بهذا العمر .. وماصنعه زكى نجيب محمود في عمره ليس بالقليل .. لقد قرا حتى ضعف بصره وحمل على كتفيه قضية هي اجل واخطر قضية في حياتنا الفكرية : قضية تجديد الفكر العربي ... وهو يواصل في كل كتاباته السير في هذا الطريق مسلطا اشعة مصباحه الفكرى على كل المراحل التى فطنت الى هذا الطريق وحاولت ان تضيف حجرا في بناء هذا التجديد .. باحثا منقبا عن صفة هذا التجديد وعناصره وملامحه كما يراه ويتمناه .. وهو عمل شاق تحمله بصبر واصرار ، دون انتظار لشكر او رغبة في تكريم .. لانه يعلم ان دولة الفكر وخاصة في بلادنا بعيدة عن هذه العملة الذهبية التى يجرى تداولها في ملاعب الاقدام وانتصاراتها ومغاني الاصوات والحانها .. فالفكر مثل المحرك الخفي في جوف السيارة .. لاتراه الاعين ، التى لاترى غير العجلات التى تسرع بالسيارة والنفير الذى يدوى بالتنبيه .. اما المحرك الصامت المسكين فلا يدرى كيف ينبه الناس الى وجوده القابع في الداخل .. وماذا يهمه من ذلك مادام يقوم بواجبه وعمله الذى خلق له ورسالته التى كلف بها .. وهي دفع السيارة الى السير .. ولكن الذى سرني هو ان اجد من بين المثقفين من يذكرك ويعرف فضلك . ومنهم هذا الذى ارسل الى ماالقاه تنويها بعملك في هذه المحاضرة الطويلة التى ارجو ان تجد طريقها الى النشر في الاهرام دون ان يحول دون ذلك طولها وعدد صفحاتها .. ولايوجد عندنا الان مع الاسف مجلة متخصصة في الفكر تتيح النشر لمثل هذه الموضوعات العميقة .. هذا الى ان رجال الفكر عندنا لم يعتادوا بعد التعاون على حمل الفكرة الكبيرة .. بل سلكوا مسلك المجتمع كله الان ، مجتمع الصراصير كما اسميه دون قصد الاهانة او السخرية .. فهو مجتمع مختلف عن مجتمع النمل ... فالنملة عندما تعثر على قطعة سكر تجدها وقد اجتمعت حولها جماعة من النمل تتعاون على حملها ... اما مجتمع الصراصير فهو مثل مجتمعنا اليوم قلما تجد مجموعة من صرصار تحمل فكرة وتعمقها وتفيد بها .. لان كل صرصار مشغول بنفسه فقط ... ولهذا لايوجد بناء فكرى او فلسفي او ادبي يقوم شامخا متكاملا ... انما الموجود افراد كل فرد مشغول بفكرته يحملها وحده ولايلتفت او يهتم الا بما يحمله هو .. وهذا سر من اسرار تخلف مجتمع « الصراصير » فمعذرة ايها العزيز زكى نجيب محمود .. وربما يتغير الحال ويلتقى الجميع الى فكرتك العظيمة في « تجديد الفكر العربي » .. وارجو ان احقق رجاء الدكتور عاطف العراقى في نشر كل او ماتيسر من محاضرته عنك ... وهو اقل القليل تنويها باعمالك التى ستبقى مابقى الفكر العربى □

توفيق الحكيم

(٢)

هذا هو البحث الأخير من مجموعة الأبحاث التى قدمت حول أعمال زكى نجيب محمود وحياته فى المؤتمر العلمى الذى أقامته جامعة المنصورة المصرية تكريما للأستاذ المفكر الكبير وقد اخترنا هذا البحث الشامل عن فكر زكى نجيب محمود لكى يكون ختام ما قدمناه من أبحاث هذا المؤتمر لأنه من وضع أحد أبرز مفكرى الجيل التالى من الأكاديميين فى مصر، وأحد أبرز زملاء وتلامذة المفكر الكبير..

سامى خشبة

زكى نجيب محمود.. وتجديد الفكر العربى

اعتقد من جانبى اعتقادا لا يخالجنى فيه أدنى شك، أن الدارس والمحلل والمتأمل لخريطة حياتنا الثقافية فى مصر المعاصرة يجد أن من واجبه وضع مكانة ومكانة كبيرة للدكتور زكى نجيب محمود لقد وضع مفكرنا العملاق زكى نجيب محمود، والذى يعتبر أستاذا بكل ما تحمله كلمة الأستاذ من معنى ومدلول، أقول وضع بصماته الظاهرة والبارزة على ثقافتنا ليس فى مصر فقط، بل فى عالمنا العربى كله.

والواقع أنه يعد من الصعب بل من المستحيل تماما أن نعرض لجوانب فكر زكى نجيب محمود، فى مقالة، بل فى مئات المقالات، إذ أن فكره يعد ثريا غاية الثراء وعميقا غاية العمق. ويشهد على ذلك عشرات الكتب التى قدمها لنا، ومئات الدراسات الجادة التى وضعها بين أيدينا والتى تعالج موضوعات شتى فلسفية وأدبية وفنية واجتماعية. وإصلاحية، ومئات المقالات التى تعد كل واحدة منها معبرة عن فكرة أو مجموعة من الأفكار يتميز بها مفكرنا الكبير ولا تعد معبرة عن نوع من المتابعة أو التقليد للآخرين. وأيضاً العديد من الأحاديث الإذاعية والتليفزيونية سواء

فى مصر أو خارجها. وكم كانت تلك الكتب والدراسات والمقالات والأحاديث هادية ومرشدة لآلاف القراء والدارسين والباحثين إلى اكتشاف عوالم جديدة تماما لم يكن بإمكانهم اكتشافها ولا التوصل إليها، بل والإقتراب من حدودها ومعالمها وأبعادها ومجالاتها إلا بفضل زكى نجيب محمود وعظمة زكى نجيب محمود وذكائه الخارق النافذ إلى أعمق أعماق وجودنا الفكرى والثقافى وذلك عن طريق التأمل العميق والتحليل الذى يسبر أغوار كل فكرة وكل مشكلة وما أكثر تلك الأفكار والمشكلات.

أقول: إنه من المستحيل تماما أن نعبر من خلال مقالتنا هذه عن جوانب فكر زكى نجيب محمود ومذهبه إنه مجدد والمجدد لا يكون متابعا للآخرين ولا عالة عليهم مثله فى ذلك مثل من يريد الحصول على ثمرة من الثمار،فإنه يحدد مكانها ويصعد بنفسه لاقتطافها من فوق الشجرة أما المقلد فإنه يكون كما قلت متابعا وعالة على الآخرين أنه يحصل على الثمرة من تحت الشجرة اعتمادا على أن أفرادا آخرين سبقوه و وضعوا تحت يديه تلك الثمرة إن مجددا كزكى نجيب محمود قد سار فوق الصخور والأشواك ومهد لنا الطريق إنه يعد كالبوصلة التى تحدد اتجاهنا وتهدينا إلى الطريق السليم ولم لا؟ وفكر زكى نجيب محمود يعد معبرا عن روح العصر وتياره الأصيل.

من أجل هذا كله، فإننا لا نجد مفرا من التركيز على جانب رئيسى من جوانب فكره الجانب الذى يتبلور حول قضية التجديد وكيف كانت دعوته للتجديد تعبيرا عن تيار العصر وروح الحضارة وكلما تمر علينا فى المستقبل سنوات وسنوات وقرون وقرون، سيزداد تقديرنا لفكر الرجل وعمق آرائه لأن المجدد بما يتمتع به من الذكاء الحاد وأصالة البصيرة إنما يتخطى عصره إنه يخترق حجب الماضى والحاضر متجها إلى المستقبل. المستقبل الذى لا يدركه المقلد لأنه يجتر من ماضيه أساسا فى

حين يكتشفه المجدد بعمق نظرته وأصالة تأمله، وقد أدركه مفكرنا زكى نجيب محمود عن طريق العقل أساسا وليس عن طريق رؤية صوفية أو تجربة وجدانية وطريق العقل فى كل زمان وفى كل مكان إنما يختلف اختلافا جذريا عن طريق الذوق والوجدان والتصوف.

الحياة الفكرية

ولنشر الآن إشارة موجزة إلى الحياة الفكرية لزكى نجيب محمود،ثم نعرض لبعض أبعاد اتجاهه الفكرى مركزين كما قلت على المجال الذى يتعلق بقضية التجديد والدعوة إلى حركة التنوير العقلى وكيف بدأت ارهاصات هذا التجديد والتنوير خلال مكونات حياته الفكرية.

ولد زكى نجيب محمود فى قرية ميت الخولى عبد الله وكانت تابعة لمحافظة الدقهلية ثم أصبحت تقع فى زمام محافظة دمياط وتاريخ مولده هو ١/ ٢/ ١٩٠٥م. وقد قضى مرحلتى التعليم الإبتدائى والثانوى بكلية جوردون بالخرطوم عاصمة السودان حيث كان والده يعمل بالسودان. أما الدراسة الجامعية فكانت فى مصر وقد تخرج عام ١٩٣٠.

يقول الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه قصة عقل: أسدلت العشرينات أبوابها، وبدأ عقد الثلاثينات وفى أول أعوام (١٩٣٠) تخرج صاحبنا فى مدرسة المعلمين العليا، وبدأ حياة التدريس ليجعلها أحد خطين متوازيين سار عليهما: أما الخط الثانى فهو الإقبال الشديد على متابعة الحياة الثقافية متابعة كادت ألا تترك كتابا أو مقالة مما كان يكتبه أعلام الحركة الفكرية والأدبية فى مصر، ومعها متابعة أخرى لم تكن شاملة لما يصدر فى أوروبا - وانجلترا بصفة خاصة - من نتاج ثقافى (ص١٦).

هذا ما يقوله مفكرنا عن الفترة التى أعقبت مباشرة تخرجه فى مدرسة المعلمين العليا. وليلاحظ القارئ اهتمام مفكرنا بمتابعة أحداث الحركة الفكرية سواء فى مصر أو خارجها، إذ أعتقد من جانبى أن هذه المتابعة إن دلتنا على شئ، فإنما تدلنا على فهم الدكتور زكى نجيب محمود لوظيفة المثقف وكيف ينبغى أن تكون وكم نجد العديد من مقالات أستاذنا فى الكثير من المجلات والصحف طوال نصف قرن تكشف لنا عن اهتمامه برصد كل الظواهر الفكرية الهامة وتحليلها تحليلا يعد غاية فى الدقة والعمق.

الرحلة إلى الغرب

وكانت الفترة منذ تخرجه حتى سفره إلى إنجلترا عام ١٩٤٤، فترة مليئة بالنشاط الفكرى وخاصة ما ارتبط بمجلة الرسالة ولجنة التأليف والترجمة والنشر، وتأليف العديد من الكتب كقصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة وقصة الأدب فى العالم وأيضاً تعريب كتاب فنون الأدب.

وقد قضى مفكرنا بانجلترا عدة أعوام للحصول على درجة الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة لندن وهى من كبرى الجامعات الإنجليزية العريقة، وذلك من سبتمبر عام ١٩٤٤م حتى أواخر عام ١٩٤٧م وقد أثرت دراسته بانجلترا فى تكوين العديد من وجهات نظره ويتضح ذلك من خلال الكثير من كتبه كالمنطق الوضعى وخرافة الميتافيزيقا ونحو فلسفة علمية وحياة الفكر فى العالم الجديد، بل إن إيمانه المبكر بفكرة الحرية قد ظهر فى اختياره موضوع رسالة الدكتوراه وكان موضوعها الجبر الذاتى وطالما نجد من جانبه ربطا بين الحرية وبين تيار العصر والحضارة.

يقول الدكتور زكى نجيب محمود لقد بلغ اهتمامى يومئذ بفكرة الحرية الإيجابية أن جعلتها موضوعا لرسالتى فى الدكتوراه فموضوع رسالتى هو الجبر الذاتى، والمقصود بعبارة الجبر الذاتى هو أن الإنسان فى حرية إرادته مقيد بماضيه

هو نفسه على الأقل، كما هو مقيد بعوامل أخرى تكون له الإطار العام الذى يتحرك حرا بين حدوده ولكنه داخل تلك الحدود نفسها إذا ما فعل فعلا أو قال قولا فى مستطاعه دائما أن يبدع ما هو جديد غير مسبوق إليه، أى أن علوم الدنيا بأسرها لا تستطيع أن تتنبأ على وجه اليقين بما أنا فاعله أو قائله فى اللحظة الزمنية القادمة، فهو فعل جديد أو هو قول جديد، لكنها فى كلتا الحالتين جدة تضيف إلى حصيلة البشرية من أفعال أو أقوال، وليست هى مجرد الجدة، كالتى نراها مثلا فى تخليط المجانين أو فى شخبطة الأطفال إذا ما وجدوا ورقا وأقلاما (قصة عقل ص٤٨ – ٤٩).

العودة للوطن

وقد عاد الدكتور زكى نجيب محمود إلى مصر وعمل مدرسا للفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة تلك الكلية التى تفخر دوما بأن مفكرنا كان من الذين قاموا بالتدريس فيها مدرسا فأستاذا مساعدا ثم أستاذا ولم يشأ أن يتقلد خلال فترة وجوده عضوا بهيئة التدريس بقسم الفلسفة، القسم الذى يعد أعرق قسم من أقسام الفلسفة فى جامعاتنا المصرية، لم يشأ أن يتقلد منصبا من المناصب الإدارية لأنه يعتقد باستمرار أن عمله هو الفكر والفكر أساسا وكم بين لى أثناء مقابلاتى لسيادته فى منزله مدى التعارض بين الإخلاص للفكر، والحرص على المناصب الإدارية البراقة. لقد كان حريصا منذ عودته إلى مصر فى خريف عام ١٩٤٧م على الدعوة إلى التشبع بروح الثقافة المعاصرة من جهة والدعوة إلى التجريبية العلمية من جهة أخرى إنه يذكر لنا فى كتابه قصة عقل (ص٥٧) أن فكره حين عاد إلى مصر كان قد تبلور فى شعبتين إحداهما وجوب الأخذ بروح الثقافة الأوروبية المعاصرة لعلها تنتهى بنا إلى مثل ما انتهت بأصحابها إليه من وضع الإنسان الفرد فى مكانة تشبه التقديس والثانية هى وجوب الدعوة إلى التجريبية العلمية، لأنها إذا كانت مجرد اتجاه فلسفى هناك فهى

بالنسبة للأمة العربية ضرورة، إذ من شأنها أن تضبط اللفظ فى مجال التفكير العلمى ضبطا صارمًا وهو ما أظننا فى أشد الحاجة إليه.

وكما كان مفكرنا شعلة من نشاط من النادر أن نجد لها مثيلا فى حياتنا الثقافية المعاصرة، قبل سفره إلى إنجلترا، كان أيضاً هذا حاله بعد عودته من إنجلترا لقد سافر فى مهمات علمية عديدة إلى كثير من البلدان شرقا وغربا عمل أستاذا زائرا بأمريكا خلال عامى ثلاثة وخمسين وأربعة وخمسين كما عمل مستشارا بسفارتنا بواشنطن. وسافر إلى الكويت حيث عمل بجامعاتها أستاذا للفلسفة لمدة خمسة أعوام من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٣ وتمت دعوته لزيارة أكثر من بلدة عربية من بينها الإمارات العربية المتحدة لإلقاء مجموعة من المحاضرات بجامعاتها.

لقد حصل أستاذنا على العديد من الجوائز تكريما له واعترافا بدوره الفكرى والثقافى وريادته فى مجال الفكر العربى المعاصر والفلسفى منه على وجه الخصوص. حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٠ عن كتابه "نحو فلسفة علمية" وحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٥ وحصل منذ عام على وجه التقريب على جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وهو أول مصرى يحصل على هذه الجائزة وقد ذكر لى أثناء إحدى مقابلاتنا بمنزله، أن منحه هذه الجائزة يدلنا على أن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة.

لقد دعانا زكى نجيب محمود إلى ضرورة التعرف على فكر الغرب والإستفادة منه وقام من جانبه بترجمة العديد من الكتب ترجمة تعد آية فى الدقة والأمانة ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر الجزء الأول والجزء الثانى من كتاب تاريخ الفلسفة الغربية للفيلسوف الإنجليزى المعاصر، برتراند رسل ومجموعة أجزاء من الموسوعة الضخمة، قصة الحضارة للمفكر الأمريكى ول ديورانت، وكتاب المنطق للفيلسوف الأمريكى جون ديوى، ومجموعة من محاورات أفلاطون لقد

شملت ترجماتة التراث القديم والفكر الحديث والمعاصر أيضاً وهذا يعد من جانبه اعترافا بقيمة الترجمة ودورها فى التنوير تماما كما حدث فى العصر العباسى، وما حدث أيضاً فى عصر النهضة الأوروبية.

غير مجد فى ملتى واعتقادى تصور التنوير بدون الإهتمام بالترجمة فى جميع المجالات علمية وأدبية وفكرية وفلسفية إننا إذا أردنا لأنفسنا مواصلة التيار الذى ظهر فى مصر منذ ما يزيد على قرن من الزمان والذى يعد فى جوهره إعلانا عن بداية عصر جديد من عصور مصر الفكرية، فلا مفر من الإتجاه بكل قوتنا نحو الترجمة الدقيقة الواعية. وإنه لمن المؤسف حقا أن نرى دول العالم تتجه بكل قوتها نحو الترجمة والإستفادة من الأفكار الموجودة فى أمم أخرى، فى حين أننا نتغافل عن الترجمة وأهميتها ودورها فى إثراء حياتنا الفكرية وصياغة وجودنا الأدبى والفلسفى.

إن التنوير لا يمكن تصوره إلا من خلال التعرف على أفكار الأمم الأخرى. وقضية الأصالة والمعاصرة لا يمكن تصورها,والبحث فيها إلا بأن نتجه بكل قوتنا نحو الترجمة إنّ التقدم فى جميع المجالات أدبية وعلمية ومادية لا يمكن أن يتم أو يتحقق إلا بأن نعرف أفكار أمم الأرض قاطبة من مشرق الدنيا إلى مغربها ولا أشك فى أن فتح النوافذ حيث الهواء المتجدد النقى يعد أفضل ألف مرة من الهواء الراكد. إن ثقافتنا بدون الترجمة ستكون معبرة عن الظلام لا النور. ومن يطلب منا عدم التعرف على أفكار الأمم الأخرى عن طريق الترجمة إنما يهدف من وراء ذلك إلى أن يظل شبابنا محصورا فى معرفته داخل الأفكار المسطحة والتى لا نجد فيها عمقا، أى عمق.

لقد نبهنا مفكرنا العملاق زكى نجيب محمود إلى أهمية الترجمة. ولم يكن هذا من جانبه مجرد دعوة نظرية بل إنه - كما قلت - قد قام فعلا بترجمة العديد من أمهات الكتب فى مجالات شتى فلسفية وغير فلسفية.

بل يمكن القول بأن المتأمل فى تحليلات زكى نجيب محمود لثقافة العصر، وتصوره للحضارة والتنوير، إنما يدرك تماما أن الترجمة تعنى التواصل بين الأجيال تعنى إقامة الجسور بين ثقافة وثقافة أخرى، إن الثقافة فى انتقالها من ماضيها إلى حاضرها إلى مستقبلها إذا كان حالها كالجسور التى على أساسها ننتقل من مكان إلى آخر و على أساسها نضمن التواصل بين الأجيال والأفراد فى كل زمان وفى كل مكان، فإن من يدعونا إذن إلى أن ننصرف عن الترجمة فإن حاله كحال من يدعو إلى هدم الجسور إنه يريد فصل ما اتصل لا وصل ما انقطع.

لقد كان الدكتور زكى نجيب محمود فى دعوته التجديدية حريصا الحرص كله على أن يبين لنا أهمية الإستفادة من أفكار الأمم الأخرى، أى الإنفتاح على حضارة الغرب.. إننا نجد هذا واضحا سواء فى كتبه الفلسفية أو فى كتبه التى يغلب عليها أنها تعالج موضوعات أدبية نعم إننا نجد هذا واضحا تمام الوضوح فى كتب عديدة تركها لنا هرمنا الفكرى الشامخ زكى نجيب محمود ومن بينها الشرق الفنان وتجديد الفكر العربى والمعقول واللامعقول وحياة الفكر فى العالم الجديد، وبرتراند رسل وديفيد هيوم والمنطق الوضعى ونحو فلسفة علمية وجنة العبيط، وشروق من الغرب وقشور ولباب، ومجتمع جديد أو الكارثة والثورة على الأبواب، وفى زاوية فلسفية، وفى حياتنا العقلية، وفى فلسفة النقد، وهموم المثقفين، وثقافتنا فى مواجهة العصر، قصة نفس وقصة عقل.. إلى آخر تلك الكتب التى نجد فيها كما قلت دعوة إلى الأخذ بأسباب العلم وأسباب الحضارة.

(المنطق والتجديد)

بل نود أن نؤكد من جانبنا على أننا لا نجد تعارضا كما يتوهم البعض – بين اهتمام زكى نجيب محمود اهتماما بالغا بالدراسات المنطقية على النحو الذى نجده فى المنطق الوضعى وخرافة الميتافيزيقا (موقف فى الميتافيزيقا) ونحو فلسفة علمية، واهتمامه بتجديد الفكر العربى ولا أشك فى أن اهتمام مفكرنا العملاق بالدراسات المنطقية عند الغربيين قد فتح أمامه الطريق إلى السعى بكل قوة نحو حل مشكلة الأصالة والمعاصرة وتجديد فكرنا العربى.

لقد درس مفكرنا دراسة دقيقة المحاولات التى سبقته ويمكننا القول بأننا نجد مواقف عديدة حول قضية التراث وصلته بعلوم الغرب وحضارته. فمن المفكرين من يعتمد على الحديث والحديث فقط أى الدعوة إلى المعاصرة فحسب دون أن يأخذ فى اعتباره الماضى من تراثنا ومن هؤلاء سلامة موسى وحسين فوزى ولويس عوض. كما نجد أمثلة لأناس وجدوا أن الصحيح هو التراث والتراث فقط. ومن بينهم مصطفى صادق الرافعى. وأيضاً نجد مفكرين قد حاولوا المزج بين القديم والجديد، بين التراث والمعاصرة ومن بينهم رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وطه حسين وعباس العقاد وتوفيق الحكيم.

وقد وجد زكى نجيب محمود أن الصحيح إلى حد كبير جدا إنما يتمثل فى هذا الموقف الأخير إنه موقف لا يرفض تراثنا لمجرد أنه قديم، ولا يرفض أيضاً الإعتماد على ثقافة الغرب وحضارة الغرب.

لقد انطلق مفكرنا وبكل ما يملك من وقت وجهد نحو البحث فى مشكلة تجديد الفكر العربى، مشكلة الأصالة والمعاصرة، مشكلة المواكبة بين التراث من جهة، وتيار العصر والحضارة من جهة أخرى لقد أخلص للبحث فى هذه القضايا التى

ترتبط كل قضية منها بالأخرى وتقترن بها، أكثر من ربع قرن من الزمان.

نعم لقد استغرق منه البحث فى هذه القضايا ما يقرب من ثلاثين عاما. لقد أكد لى فى لقاء تم بيننا منذ أيام ما سبق أن ذكره فى كتابه الخالد، قصة عقل لقد قال لى أن تفكيره فى المزج بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قد بدأ فى عام ١٩٥٦م ثم صاغ الفكرة فى عام ١٩٦٠م وذلك فى كتاب الشرق الفنان. إن هذا الكتاب يعد خطة تفكير، أى خطة بحث فى المشكلة التى وهب لها عمره، مشكلة الأصالة والمعاصرة وما يدور حولها، فى البحث فى كيفية تجديد الفكر العربى والبحث فى أفضل الصيغ أو الحلول المناسبة والبحث أيضاً فى كيفية مواكبة تيار العصر والحضارة والحضارة الغربية منها على وجه الخصوص.

زكى نجيب محمود
وتجديد الفكر العربى

فى الجزء الأول من هذه الدراسة الشاملة لفكر الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود - تحدث الأستاذ الدكتور عاطف العراقى عن الأسس المكونة الأولى لفكر زكى نجيب محمود: الإتجاه إلى التجديد، والإعتماد على العقل، والدور الحاسم للمنطق فى كل من النزعة إلى التجديد والإعتماد على العقل كأداة للمعرفة وللإدراك سويا، ومن ثم الدعوة إلى التنوير العقلى.. وقد أوجز الكاتب الكبير مسار الحياة العلمية - التعليمية والفكرية، فى التحصيل والإبداع عند المفكر الكبير - وأوضح محورية فكرة "الحرية" عنده، وأبعادها الميتافيزيقية والتاريخية والمادية.. وتحدث الكاتب عن جوانب هامة من نشاطات زكى نجيب محمود العملية، فى التعليم الجامعى، وفى التأليف الموسوعى، وفى الترجمة، وفى الكتابة التعريفية بثقافات الغرب الحديثة، وفى مجال إقامة الجسور بين ثمار الثقافات الحديثة وثمار تراثنا الثقافى القومى ونقد هذا التراث والعمل على إحياء جانبه العقلى والنقدى المستنير..

واليوم نستكمل بقية دراسة الدكتور عاطف العراقى - أحد أبرز المفكرين الأكاديميين فى مصر من الجيل التالى لزكى نجيب محمود، ولكى نختم بهذه الدراسة سلسلة مشوقة وهامة من الدراسات المتنوعة تناولت جوانب مختلفة من تجربة جيلين، وعدة اتجاهات فكرية فى مصر، مع وفى العوالم الرحيبة والخصبة التى فتحها - ولا يزال يفتح منها المزيد - عقل زكى نجيب محمود، وجهده الفلسفى والتعليمى التنويرى، الإيمانى والنقدى معا.. خلال الأعوام الخمسة والثلاثين الأولى

من حياته التى أضاف بها إلى حياة الأمة أمادا من المعرفة والفهم، واضواء من الإدراك والحس النقدى النفاذ والعميق.

الأهرام – سامى خشبة

التجديد بين أصالة الاستقلال بالنقد وأصالة الالتزام بالتراث

لقد تميز أستاذنا زكى نجيب محمود بحس نقدى غاية فى الدقة والروعة أيضاً حس يجعلنا نقف أمامه فى إجلال وإكبار، تماما كما نقف أمام الأهرامات وأبى الهول ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الحس النقدى هو أهم ما يميز الفكر الفلسفى، أهم ما يعبر عن خصائص الموقف الفلسفى. وكل مفكر يبرز لديه الحس النقدى إنما يعد مفكرا عملاقا، مفكرا شامخاً، مفكرا يحتل مكانة فريدة بحيث تميز عمن سواه من المفكرين فأرسطو خالد لحسه النقدى وابن رشد يعد عملاقا لمنهجه النقدى. وتوما الأكوينى يعد على رأس فلاسفة المسيحية فى العصر الوسيط للحس النقدى الذى يميزه عن فلاسفة المسيحية الذين سبقوه والفيلسوف الالمانى "كانت" إنما تشطر فلسفته، الفلسفة الحديثة إلى شطرين، الفلسفة قبل "كانت" والفلسفة بعد "كانت" وذلك لأسباب عديدة أهمها حسه النقدى البارز والذى تجلى فى ثلاثيته النقدية: نقد العقل الخالص، نقد العقل العملى، نقد ملكة الحكم، وطه حسين يعد عملاقا لأننا قلما نجد ظاهرة ثقافية واجتماعية أو فكرية إلا ونجده قد تصدى للبحث فيها على أساس اتجاهه النقدى. وزكى نجيب محمود يعد على رأس مفكرينا المعاصرين لأنه أعلى كلمة العقل فوق كل كلمة، أقام تجديده للفكر العربى على أساس نقدى دقيق. والنقد هو أهم خصائص المجدد، لأن المجدد لا يكون مقلدا أو متابعا للآخرين مجرد متابعة.

وليرجع القارئ العزيز إلى أكثر كتب زكى نجيب محمود سواء كانت فى مجال الفلسفة أو كانت فى مجال الأدب، وسيرى مقدار ما تمتع به مفكرنا من حس نقدى، أعانه عليه ذكاؤه الخارق واطلاعه الجم وتنظيم وقته تنظيما غاية فى الدقة بحيث يكون مخصصا أساسا للفكر وقضاياه، إن الحس النقدى التحليلى إذا كان يظهر بكل قوته عند مفكرنا سواء فى كتبه الفلسفية أو فى كتبه الأدبية، فإنه يظهر أيضاً بأعظم صوره حين يبحث زكى نجيب محمود فى مجالات الفنون لقد كتب صفحات عديدة رائعة فى هذه المجالات الفنية. وعلى رأسها ما كتبه فى مؤلفه "أيام فى أمريكا".

ومن الواضح غاية الوضوح إذا حللنا تاريخ الفكر العالمى، أنه توجد صلة وصلة وثيقة بين الإيمان بالبعد النقدى من جهة والمعارك الفكرية التى يخوضها المؤمن بدور النقد، المؤمن بعدم تقليد أو متابعة الآخرين تقليدا أعمى. ومن هنا نجد أستاذنا يدخل فى معارك فكرية عديدة، لقد خاض تلك المعارك متسلحاً بالثقافة الغزيرة متسلحاً بالشجاعة مؤمنا بأفكاره التى أقامها على أساس ثابت وطيد متماسك البنيان. وإذا كان من حق كل إنسان أن يؤمن بالرأى الذى يعتقد بصحته، إلا أنه ليس من المعقول ولا المنطقى أن يلجأ نفر من أشباه الدارسين وأنصاف المثقفين إلى الهجوم على آراء مفكرنا لمجرد الهجوم. إن هجومهم على هذه الصورة الفجة يكشف لنا عن أن هجومهم إنما يعد جهلاً على جهل ولكن أكثرهم لا يعلمون. ماذا يريد هؤلاء الأشباه، هل يريدون منا العودة إلى عصور الظلام؟ هل يريدون لنا الإنغلاق حول أنفسنا؟ لقد خاض زكى نجيب محمود معاركه الفكرية التى لا حصر لها دفاعا عن طريق النور، دفاعا عن تيار الحضارة بأجلى وأخصب معانيها. دفاعا عن الإنسان وكرامة الإنسان.

الإنسان والفلسفة

ولنقف عند عبارة رائعة نجدها فى كتابه العظيم: قصة عقل (ص٧٣ - ٧٤) إنه يقول: إذا أنت أمعنت النظر فى الإتجاهات الفلسفية المعاصرة، ويمكن بلورتها فى أربعة اتجاهات، وحدت جذرها المشترك هو اتخاذ الإنسان فى حياته الدنيوية محوراً للإهتمام وانظر على هذا الضوء إلى تلك الإتجاهات الأربعة أحدها هو اتجاه الفلسفة التحليلية التى تعنى أكثر ما تعنى بفلسفة العلوم والتى هى الفلسفة السائدة فى بريطانيا، فما دامت تصب اهتمامها على التفكير العلمى، فهى بالتالى تقصر ذلك الإهتمام على ما هو ذى صلة بحياة الإنسان هنا على هذه الأرض، وثانيها هو اتجاه الفلسفة البرجماتية الذى له السيادة فى الولايات المتحدة الأمريكية وأساسه هو أن الفكرة تعد صحيحة إذا كانت نتائجها نافعة للإنسان فليس المهم هو أصل الفكرة من أين جاءت؟ وكيف جاءت؟ بل المهم هو ماذا عساها أن تثمر للإنسان من نتائج تنفعه فى حياته، وثالثها هو اتجاه الفلسفة الوجودية فى غربى أوروبا، ومدار تلك الفلسفة حرية الإنسان فى القرار الذى يتخذه لنفسه ليكون بعد ذلك مسئولا عنه مسئولية خلقية، ورابعها هو اتجاه الفلسفة المادية الجدلية السائدة فى شرقى أوروبا، ومحورها هو أن الحياة الثقافية كلها بما فيها القيم الإخلاقية والجمالية. إنما تولدت عن الحياة الإقتصادية من زراعة أو تجارة أوصناعة، فإذا غيرت من أسس الحياة الإقتصادية المادية، تغيرت بالتالى دنيا الثقافة، وإذن ففى مقدورنا أن نشكل العلاقات الإقتصادية تشكيلا ينتهى بنا إلى إقامة حياة إنسانية تصون للإنسان حقوقه.

ويبين لنا مفكرنا أن الفكر فى الغرب إذا كان اتجاهه وهمه الأول هو صون الإنسان من العوامل التى كانت تطحنه وتقهره قهرا، فإنه من الضرورى إذن العمل على إيجاد مثل هذا الفكر فى بلادنا، وذلك حتى نتمكن من توقير وتقديس مكانة الإنسان وكرامته، بل لا مفر من قبول النتائج الفرعية التى تنبثق من تلك الجذور

ومنها ما هو خاص بالنظرة العلمية الواقعية إلى الأمور، ما دامت أمورا لا صلة لها بمشاعر الإنسان الخاصة. ومن هنا جاءت دعوة زكى نجيب محمود إلى الأخذ الصارم بالنظرة العلمية التجريبية مفرقا فى حياة الإنسان بين مجالين: مجال التفكير العلمى بكل تفريعاته، ومجال الحياة الوجدانية بشتى جوانبها، فما يصلح لذاك لا يصلح لهذا فلكل منهما مواقف ولكل منهما معايير للرفض أو القبول.

ويقينى أن المهاجمين لفكر زكى نجيب محمود، واتجاه زكى نجيب محمود، إذا كانوا قد وضعوا فى اعتبارهم هذه التفرقة عند مفكرنا لجنبوا أنفسهم الهجوم عن جهل أو عن تجاهل وكم أساء الكثيرون إلى العديد من أفكار مفكرنا وخاصة تلك التى قال بها فى كتابه: خرافة الميتافيزيقا ولم يضعوا فى اعتبارهم أنهم أخطأوا نتيجة لتسرعهم فى الهجوم دون مبررات معقولة يستندون إليها. إنهم لم يضعوا فى اعتبارهم تأكيدات مفكرنا المستمرة على هذا المعنى وهذه التفرقة يقول مفكرنا (قصة عقل ص١٤) الإيمان بضرورة اللجوء إلى العقل وإلى العلم الذى هو فى الحقيقة تجسيد للعقل، فى رسم السبل النّاجحة، يتضمن إيمانا بقدرة العقل الإنسانى على الإضطلاع بما خلقه الله من أجله لكن هل هذه الوقفة هى التى لها السيادة فى حياتنا؟ كلا. فنحن نفاخر سائر الدنيا بأننا أصحاب عقول عامرة بوجدانها، لا فرق فى ذلك بين أن يكون الموضوع المعروض للمعالجة مما تنفع أو لا تنفع فيها القلوب ووجدانها، ومن ثم كانت دعوتى التى مافتئت أكررها، بوجوب التفرقة الواضحة بين مجالين: مجال لا يصلح له إلا العقل بكل رصانته وبروده، ومجال آخر من حق المشاعر أن تشتعل فيه ما شاءت لها حرارتها.

(التراث وتجديده)

إن مفكرنا لم يقف فى دراسته لقضية التجديد، وخاصة من خلال كتابيه تجديد الفكر العربى والمعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى عند التراث لمجرد أنه

تراث، كما أنه لم يرفض التراث جملة وتفصيلا. نعم لم يرفض التراث من أساسه كما يزعم نفر من المتسرعين وأشباه الدارسين الذين حشروا أنفسهم بين الدارسين للفكر الفلسفي، والفكر منهم براء وليرجع القارئ إلى القسمين اللذين يتألف منهما كتابه الرائع تجديد الفكر العربي وخاصة الفصل التاسع من القسم الثاني وموضوعه قيم باقية من تراثنا وأيضاً فليرجع إلى القسمين اللذين يتألف منهما كتابه المعقول واللامعقول إنه يضرب أمثلة من التراث، ولا يضرب أمثلة من الهواء الفارغ إنه يدرس التراث دراسة عميقة وبعد ذلك يرتضي لنفسه أن يقف منه موقف المؤيد لبعض ما فيه من قيم تتفق مع العقل، وموقف المعارض لما فيه من قيم تعبر عن شطحات اللاعقل ألم أقل إن أبرز ما يميز مفكرنا العملاق، إنما هو حسه النقدي، والذي ظهر بأجلى صوره في موقفه من الفكر العربي وكيف نوجد مواكبة بين هذا الفكر وبين تيار العصر والحضارة

إنه يقول في كتابه قصة عقل (ص٢١٧) لقد قرأت ما قرأته من (التراث العربي) ليكون حكمي عليه قائما على معايير عصرنا نحن، من حيث انتفاع الناس به وعدم انتفاعهم، إنني قرأت ما قرأته من التراث العربي قراءة مثقف يعيش في القرن العشرين، ويتنفس في مناخ حضاري له خصائصه ومقوماته، ويريد أن يرى الحبل موصولا بينه وبين أسلافه لكنه في الوقت نفسه يشعر بأنه ماكل ما عاشه أولئك الأسلاف صالح له هو ولزمانه ولكنه لابد بحكم طبائع الأمور ذاتها، أن يكون في حياة الأسلاف كذلك ما يجوز بل ما يجب - أن يبقى ليبقى الرباط.

إن المعيار الذي على أساسه نقبل موقفا من التراث ونرفض موقفا آخر إنما يتمثل في العقل وأحكامه، كما يتمثل في مدى ملائمة الموقف لروح العصر وحضارته.

لقد أخلص مفكرنا العملاق للبحث في قضية الأصالة والمعاصرة اخلاصا لا حد له. إنه يقول إن قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معايشتنا لعصرنا ربما كانت أهم

ما تعرضت له من اهتمامات بالتفكير والكتابة لقد أصبحت على يقين من أن هذه المسألة هى أم المسائل الثقافية جميعا إنها القضية التى يصح أن نقول حيالها قولة هاملت فى أزمته النفسية: أن أكون أو لا أكون ذلك هو السؤال (قصة عقل ص٢٢٢).

هذا هو مفكرنا العملاق أستاذا ومفكرا وأديبا. إنك لن تستطيع فهم لب فكره لب مذهبه إلا إذا قرأت كل ما كتب سطرا سطرا بل كلمة كلمة لقد دخل تاريخنا الفكرى والثقافى المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور، وترك لنا – أمد الله فى عمره ومتعه بالصحة والسعادة – ثروة فكرية فلسفية أدبية غاية فى العمق. ولن يستطيع مفكر أو أديب أن يغفل أو يتغافل عن هذه الثروة التى تعد من أغلى كنوز العالم، إنها تعد كنزا فكريا أبدعه عقل مفكر جبار، أبدع قلم يعلم تماما أثر الكلمة المكتوبة وخطرها نعم إنه يعد عظيما بين العظماء، عملاقا، والعمالقة تبدد كلماتهم وأقوالهم ظلام الجهل سعيا وراء نور المعرفة، نور العقل، نور الضياء الذى يهدينا فى حياتنا وإذا اختلف البعض حول فكره وآرائه فإن هذا الإختلاف فى حد ذاته يدلنا على أن أفكاره تعد حية وليست أفكارا ميتة، إن الأفكار الحية دون غيرها هى التى توجب الصراع حولها لأنها أفكار المسافة بينها وبين التقليد والمتابعة أكبر من المسافة أو الفرق بين الإنس والجن. إنه رائدنا ومفكرنا العظيم إنه زكى نجيب محمود الذى تعد كتاباته دعوة إلى التمسك بتيار العصر والحضارة تيار التجديد تيار العقلانية.

١- صورة من شهادة تقدير خاصة بالاحتفال بزكى نجيب محمود بدمياط

٢- خطاب من زكى نجيب محمود للمؤلف

٣- صورتين من اهداءات زكى نجيب محمود للمؤلف

شهادة تقدير

جامعة المنصورة
كلية التربية بدمياط
مهرجان أعلام دمياط

بسم الله الرحمن الرحيم

شهادة تقدير

السيد / أ. الدكتور عاطف العراقي

تتقدم لكم بكل الشكر والتقدير والعرفان بالجميل على المجهودات المخلصة والإتجاهات الإيجابية لإسهامكم فى مؤتمر زكى نجيب محمود والكلية اذ تشكر لكم كريم جهدكم وفضل تشريفكم تتمنى لكم دوام التقدم والتوفيق .

وفقكم الله لما فيه الخير ،،

مع تحياتى ،،

عميد الكلية ورئيس المؤتمر
أ. د. محمد أبو الفتوح شريف

خطاب من زكى نجيب محمود للمؤلف

٦ / شارع ابن مالك
الجيزة
٢١/١٢/٧٥

أخي العزيز الدكتور عاطف العراقي

أهديك تحية قلبية، وبعد، فلقد سعدت ببرقيتكم الكريمة بالتهنئة، ولكم مني أخلص الشكر على هذا الذي تفضلت به علينا، وعلى ما سبق أن أسبغته علينا من فضل أسعدني وشرفني معاً، إذ تحدثت إلى [illegible]، والذي كان يتناول كتاب ثورة العقل الذي زدت فضائله به فضلاً، فيم أهديته إليّ؟ ولست أملك أكثر من أن أدعو لك الله بالتوفيق والنجاح والسعادة؟ لأنك لكل خير جدير.

أكرر شكري وتحيتي

زكي نجيب محمود

اهداء للمؤلــف

إلى الصديق الكريم
الأستاذ الدكتور محمد عاطف العراقي
تحية ومودة وتقديرا
٤/٢/٧٨ زكي نجيب

المعقول واللامعقول

اهداء للمؤلـــف

عن
الحرية
اتحدث

الى الأخ العزيز
الأستاذ الدكتور عاطف العراقي
تحية ود وتقدير
زكي نجيب محمود
١٥/٧/٨٦



(٦)

السيد الفاضل/ الأستاذ عبد الفتاح البارودى

تحية قلبية طيبة وكل عام وأنتم بخير:

وبعد فأرجو لكم كل خير وتقدير. اطلعت على كلمتكم المنشورة يوم الأربعاء ٣/٤ عن موضوع تكريم الدكتور زكى نجيب محمود بدار الأوبرا. ويهمنى إبلاغ سيادتكم بوجود العديد من السلبيات التى تتعلق بهذا التكريم سواء قبل الإحتفال أو أثناء الإحتفال.

أولاً: هل تعلمون سيادتكم بأن أكثر الأسماء التى تفضلتم بذكرها فى كلمتكم يوم الأربعاء الماضى لم تهتم بزكى نجيب محمود ولا بفكر زكى نجيب محمود ولم تكتب سطراً واحداً عن زكى نجيب محمود.

ثانياً: مما يؤسف له أن المشرفين على الحفل - ربما عن قصد أو غير قصد - لم يكلفوا أنفسهم دعوتى رغم ما تفضلتم بكتابته عن زكى نجيب وعن كتابى ثورة العقل الذى قمت بإهدائه إلى سيادته ورغم كتابتى العديد من الدراسات التى نشرت بمصر وخارجها عن زكى نجيب وتتلمذى على يديه وإشرافى على أكثر من رسالة للماجستير والدكتوراة عن زكى نجيب محمود. منها رسالة مسجلة بكلية الآداب بسوهاج عن الإتجاه النقدى عند زكى نجيب، ورسالة مسجلة بآداب القاهرة عن فلسفة زكى نجيب. واشتراكى فى مناقشة رسالة نجوى عمر عن زكى نجيب أديباً، وإشرافى على ملف عن زكى نجيب محمود نشر بمجلة المنتدى فى أول مايو ١٩٩١م. إن ما حدث يعد معبراً عن الشللية التى تحذرون منها باستمرار. لقد تمت دعوتى لحضور التكريم فى اللحظات الأخيرة قبيل الحفل وأحسست داخلى بأن المشرفين على الحفل ربما كانوا

يرون أنه من الأفضل عدم حضورى. وحضرت الحفل رغم ذلك وتعمدت عدم التحدث فيه.

ثالثاً: الأسئلة التى وجهت إلى زكى نجيب كانت تحتاج إلى دقة فى الإعداد. لقد وجهت بعض الأسئلة التى تكشف عن أن من قاموا بتوجيهها لم يكلفوا أنفسهم قراءة كتاب واحد من كتب زكى نجيب وعلى سبيل المثال كتابه الشرق الفنان والذى قسم فيه بلدان العالم فكريا إلى أقسام ثلاثة. ولم يكن بالحفل من يقوم بتوجيه أو إدارة الحوار.

رابعاً: العناصر الخاصة بنقاط الحوار والتى تم توزيعها على الحاضرين أكثرها لا يرتبط بفكر المحتفى به (د. زكى نجيب) من قريب أو بعيد. وإذا كان الحفل قد نجح إلى حد ما فإن هذا يرجع إلى مهارة د. زكى نجيب فى الحديث، وإلى تواضعه الذى ظهر فى رده على الأسئلة رغم ما فى بعضها أى الأسئلة من سذاجة وسطحية وعدم تعمق فى دراسة آراء زكى نجيب.

هذه نقاط أرجو أن يتم تلافيها فى الإحتفاليات القادمة. إنها تتعلق بقضية الثقافة والمثقفين وليت الهدف يكون باستمرار ومستقبلاً هو خدمة الثقافة، خدمة مصر، بعيداً عن الشللية. ويكفى ما حدث بالنسبة لحفل تكريم زكى نجيب!!. إنها نقاط أرجو التنبيه إليها.

وتفضلوا بقبول فائق احترامى وتقديرى لشخصكم النبيل .

عاطف العراقى

٧/ ٣/ ١٩٩٢م

السيد الفاضل / الأستاذ عبد الفتاح البارودى

تحية طيبة وبعد:

فأعزيكم فى وفاة رائد التنوير فى عالمنا العربى الدكتور زكى نجيب محمود، والذى قضى ما يقرب من سبعين عاماً من حياته التى امتدت من أول فبراير عام ١٩٠٥م حتى الثامن من سبتمبر عام ١٩٩٣م، قارئاً ومفكراً ومتأملاً. ترك لنا آلاف الصفحات وعشرات الكتب ومئات الأفكار التنويرية العلمية التى تصلح أن تكون دستوراً لنا فى حياتنا الفكرية. أرجو أن تكون الإذاعة والتليفزيون على مستوى الحدث الجلل والمصاب الأليم. لقد لاحظت أن برامجنا الإعلامية حتى الآن إذا ذكرت رأياً له أو فكرة عنه، فإنها غالباً ما تكون خاطئة لأنها تصدر عن أناس ناصبوا الدكتور زكى نجيب العداء طوال حياته وسخروا من أفكاره.

إننا إذا كنا نتحدث عن القدوة وعن التنوير وعن حب مصر، فينبغى أن نبادر إلى تكريم الرجل الذى أخلص لمصر إخلاصاً بغير حدود. يجب أن نبادله حباً بحب. إن سيرته الفكرية التى كتبها فى "قصة نفس" و"قصة عقل" و"حصاد السنين" آخر كتبه تصح أن تكون نموذجاً للقدوة، نموذجاً فى العطاء والتضحية.

فهل آن الأوان أن تقوم وسائلنا الإعلامية بما هو واجب عليها نحو عملاق الثقافة العربية فى عالمنا العربى المعاصر، والذى كان يعد آخر جيل الرواد العظام. إنها رسالة يجب أن تجد صداها، أكتبها فى عزاء أستاذى الذى كنت كما تعلمون أقرب الناس إليه وكتبت عنه مئات الصفحات التى أفخر بأننى كتبتها عن أستاذى ومعلمى ورائدى. من حقنا أن نفخر بأننا عشنا فى عصر زكى نجيب محمود ومن واجبنا أن نقوم بتكريمه وما أكثر صور التكريم.

وتفضلوا بقبول فائق احترامى وتقديرى ،

عاطف العراقى

٩/ ٩/ ١٩٩٣م

(٧)

السيد الفاضل/ الأستاذ محمد صالح

تحية قلبية طيبة وبعد:

إننى أدعو جميع وسائل الإعلام فى مصر إلى أن تبادر بتكريم عملاق الثقافة فى عالمنا العربى المعاصر، وهرمنا الثقافى زكى نجيب محمود. إن ما قرأته حتى اليوم فى بعض الوسائل الإعلامية وما استمعت إليه لا يبشر بخير. إشارات موجزة لا تليق بابن مصر البار. وأخطاء فى سيرة حياته الفكرية لا يصح أن نقع فيها. توجد برامج إذاعية وتليفزيونية لا حصر لها والحمد لله، وواجبها أن تكون على مستوى الحدث الجلل والمصاب الفادح. وهل من المعقول أن نجد من يتحدث عنه ويلقى كماً من الأخطاء القصد منها التشويه. هل من المعقول أن نجد من قدموا إليه الإساءة وسخروا من فكره ولم يتعمقوا فى دراسة كتاب واحد من كتبه، هم من يتكلمون الآن.

آلاف الصفحات كتبها العملاق زكى نجيب. مئات الأفكار التى تكشف عن ذكاء حاد ونبوغ لا مثيل له. عشرات الكتب والمقالات تركها الرائد والمعلم زكى نجيب محمود. ألا تصلح هذه أن تكون مادة خصبة لمئات البرامج فى الإذاعة والتليفزيون. والمهم أن نتحرك.

لقد كنت من أكثر تلاميذه اقتراباً منه وأدرك عظمة فكره، وكرامة نفسه، وكيف قضى ما يقرب من سبعين عاما قارئا وكاتبا، إن مواقفه. الإنسانية وحدها يجب أن يعرفها كل أفراد الشعب العربى من مشرقه إلى مغربه. ومن المؤسف أن تطلب منى إذاعة لندن العربية كتابة سيرته والحديث عن أبرز أفكاره حتى تذاع هذا الأسبوع، ولا أجد حتى الآن فى الإذاعة المصرية ولا التليفزيون فى مصر برنامجاً على مستوى الحدث الجلل.

إذا كانت وسائلنا الإعلامية تتحدث عن القدوة وعن حب الوطن، فقد آن الأوان لإبراز دور آخر عمالقة مصر والعالم العربى فى مجال ريادته التنويرية ودفاعه عن العلم دفاعاً مجيداً وحديثه عن العقل أشرف ما فى الإنسان. أشهد أن كل زائر لمصر من المفكرين الكبار كان حريصاً على أن يلتقى بالرجل ولو لدقائق معدودات تماماً كما يكون حريصاً على زيارة الأهرامات وأبى الهول. توجد اثنتا عشرة حلقة تليفزيونية كل حلقة منها ساعة من الزمان قام بتسجيلها قبيل وفاته وأشرفت عليها. فليبادر التليفزيون إلى الحصول على نسخة منها، كما توجد عشرات البرامج الإذاعية التى تم تسجيلها معه فلنبادر.. إلى الإستفادة منها، ففيها حكمة الزمان وخلاصة تجارب العملاق زكى نجيب محمود.

إنها رسالة أكتبها عن رجل ولد فى أول فبراير عام ١٩٠٥، وتوفى فى الثامن من سبتمبر عام ١٩٩٣م وقضى حياته كلها مؤمناً بمصر وريادتها الفكرية، ينبض قلبه بحب مصر، فلنبادله إذن بعد رحيله حباً بحب وثناء بثناء حتى تلتقى الأرواح فى عالم الخلود.

عاطف العراقى

٩/ ٩/ ١٩٩٣م



(٨)

زكى نجيب... مفكر عربى بروح غربية

زكى نجيب محمود... مفكر عربى بروح غربية[1]

إذا كنا هذه الأيام نعيش فى الذكرى الخامسة لوفاة الرائد والمعلم والأستاذ زكى نجيب محمود، فإنه من الواجب علينا الإستفادة من الدروس التى تركها لنا من خلال حياته ومن خلال آلاف الصفحات التى تركها لنا، وما أعظمها من دروس.

إننا لا نتصور تاريخا لفكرنا العربى المعاصر يخلو من البصمات القوية والبارزة لهذا الرجل الذى عاش للفكر وبحيث لم يتقلد منصباً من المناصب الإدارية طوال حياته سواء بمصر أو غيرها من البلدان العربية والغربية.

نعم لقد أخلص للفكر إخلاصاً بغير حدود، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. والدروس التى نستطيع استخلاصها من مئات الأفكار التى قال بها، تعد دروساً رائدة. ولكن ماذا نفعل فى مواجهة جيوش الظلام ودعاة الأصولية والإرهاب والذين يحرفون كلماته عن مواضعها. ماذا نفعل ونحن نعيش فى مجتمع الصراصير وليس فى مجتمع النمل والنحل حيث التعاون فى العمل والإعتراف بفضل الآخرين.

من الغريب والمؤسف معاً أننا نجد الكثيرين يستفيدون من أفكاره العظيمة ثم ينسبونها إلى أنفسهم ويقومون بمهاجمة الرجل وكتاباته. وهل من المعقول أننا لا نجد لأفكاره حتى الآن مساحة بارزة فى أكثر أقسام الفلسفة فى مصر إن لم يكن فى كلها؟ إنها ظاهرة مؤسفة ولكن ماذا نفعل أمام انتشار أشباه الأساتذة وأنصافهم وأرباعهم والذين لا يريدون الإعتراف بما للناس على الناس من فضائل وخدمات. ماذا نفعل أمام تحريف أفكاره من جانب أناس يقفون عند السطور ولا يفهمون ما وراء السطور.

---

[1] يمكن الرجوع إلى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى – دار قباء – القاهرة – الفصل الخاص بزكى نجيب محمود.

ونود فى هذه الذكرى أن نؤكد على القول من جانبنا أن مفكرنا الشامخ إذا كان عربياً، فإن كتاباته تسودها الروح الغربية. ولهذا لم يكن غريباً حين نراه فى طليعة من اهتموا بالتوفيق بين الأصالة والمعاصرة، وبحيث جمع بين الثقافتين العربية والغربية. نعم لقد كان كعنوان كتاب عظيم من كتبه: عربياً بن الثقافتين.

لم يكن زكى نجيب منتقلاً من مرحلة التجريبية العلمية أو الوضعية المنطقية، إلى مرحلة أخرى، مرحلة التجديد، تجديد الفكر العربى كما يتصور صغار الباحثين. والرجل بلسانه ذكر لى وأنا استعد لإلقاء محاضرة عنه بدمياط فى مناسبة الإحتفال بمرور ثمانين عاماً على مولده، إنه لا تعارض بين المرحلتين، أو إن شئت فقل إنها مرحلة واحدة. لقد استفاد بغير حدود من اعتزازه بالوضعية المنطقية وبحيث فرق تفرقة حاسمة بين المعقول واللامعقول، بين العلم والخرافة. بين النور والظلام. صحيح أننى من جانبى قد اختلف مع مفكرنا الشامخ العملاق حول فكرة أو أكثر من الأفكار التى قال بها حول الغزالى على سبيل المثال وغيره من المفكرين، ولكن الإختلاف فى الرأى من طبيعة الفلسفة والتفلسف. فالغزالى فيما أرى من جانبى صاحب عقلية رجعية لأنه أعلن الحرب على الفلسفة والتفلسف، تماماً كابن تيمية الذى عاش بعده والذى يتمسك بأفكاره أنصار البترو فكر، وأصحاب العقليات المتخلفة والرجعية.

والدليل على أن مفكرنا الكبير زكى نجيب كان يكتب بروح غربية، تلك الروح التى أتمنى أن تسود حياتنا وأفكارنا، إقدامه على ترجمة العديد من الكتب الأوروبية، ومؤلفاته التى تبرز أهمية الفكر الأوروبى سواء فى مجال الأدب أو فى مجال الفلسفة، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر، شروق من الغرب، وجنة العبيط، وقشور ولباب، ونحو فلسفة علمية، والمنطق الوضعى، وحياة الفكر فى العالم الجديد، والفيلسوف الإنجليزى "ديفيد هيوم" وإلى غير ذلك من كتب عظيمة يقوم

الآن بعض صغار الباحثين فى أقسام الفلسفة وغيرها بالسطو عليها ونسبة بعض أفكارها إلى أنفسهم.

نعم لقد اعتز زكى نجيب بالفكر الغربى الأوروبى والأمريكى، ونقله إلينا نحن العرب من خلال آلاف الصفحات التى قام بترجمتها. ولابد أن نضع فى اعتبارنا أنه من الواجب علينا أن ندرس دقائق حياته الفكرية من خلال قصة عقل وقصة نفس وحصاد السنين، وأيام فى أمريكا، والعديد من مقالاته الأخرى وما أعظمها وذلك حتى ندرك دفاعه عن الفكر الغربى الأوروبى، وإن كان ذلك لم يمنعه بطبيعة الحال من تقديره لبعض النماذج العربية القديمة، والدليل على ذلك اهتمامه كما سبق أن أشرنا بالبحث فى قضية الأصالة والمعاصرة، وبحيث كان على رأس المهتمين بها كما ذهب إلى ذلك بحق الأديب الكبير توفيق الحكيم، فى مقالة له نشرت بجريدة الأهرام تتضمن تحية لزكى نجيب فى عيد ميلاده الثمانين.

لقد اقتربت من مفكرنا منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمان وحتى اللحظات الأخيرة من حياته. وأشهد أننى استفدت منه الكثير من الأفكار وما أروعها. ولم أتردد فى كتابة مئات الصفحات عنه وفى كل مناسبة من المناسبات، كما أهديت إليه كتاباً من كتبى، وهو كتاب "ثورة العقل فى الفلسفة العربية" وأطول الفصول التى كتبتها فى كتابى "العقل والتنوير" إنما كانت عن الرائد الكبير زكى نجيب محمود.

فمن خلال كتبه والتى اهتم فيها بفكرنا العربى من منظور الروح الغربية مثل تجديد الفكر العربى، والشرق الفنان، والمعقول واللامعقول، وثقافتنا فى مواجهة العصر، وبذور وجذور، وعربى بين ثقافتين، ومجتمع جديد أو الكارثة. وغيرها من عشرات الكتب، والتى جاءت ثمرة لإخلاصه للفكر بغير حدود. من النادر فى مجال الترجمة بالإضافة إلى مجال التأليف، أن تجد فى مصرنا المعاصرة من أتقن الترجمة

ومن يكاد يقترب من زكى نجيب. لقد قام بترجمة آلاف الصفحات وعشرات الكتب كما سبق أن أشرنا. أذكر للتاريخ أننا سألنا العقاد أديبنا الكبير عن أفضل من لديه القدرة على ترجمة مسرحيات وروايات الشاعر العظيم شكسبير. لقد أجاب العقاد دون تردد: إنه زكى نجيب. أذكر أيضاً أن الرجل من كثرة الترجمات التى قام بها، أن نسى قيامه بترجمة الفصل الخاص بالفلسفة فى كتاب فلسفة العصور الوسطى وطلب منى هذا الكتاب الضخم لكى يتأكد من ذلك.

لقد أخلص الرجل لوطنه إخلاصاً بغير حدود. ولم يترك القراءة والكتابة منذ سنوات حياته الأولى، وهذا يذكرنى بأعظم وآخر فلاسفة العرب "ابن رشد" والذى أعلن بوفاته انتهاء الفلاسفة فى عالمنا العربى ومنذ ثمانية قرون. وأذكر فى هذه المناسبة للتاريخ أيضاً أننى اشتركت مع زكى نجيب فى تأليف كتيب عن ابن رشد فى مناسبة احتفال الجزائر بمرور ثمانية قرون هجرية على وفاة ابن رشد وذلك كطلب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وتشاء المصادفة أن يكون زكى نجيب بعد ذلك، أول الحاصلين على جائزة المنظمة العربية، أى أول مصرى يفوز بها.

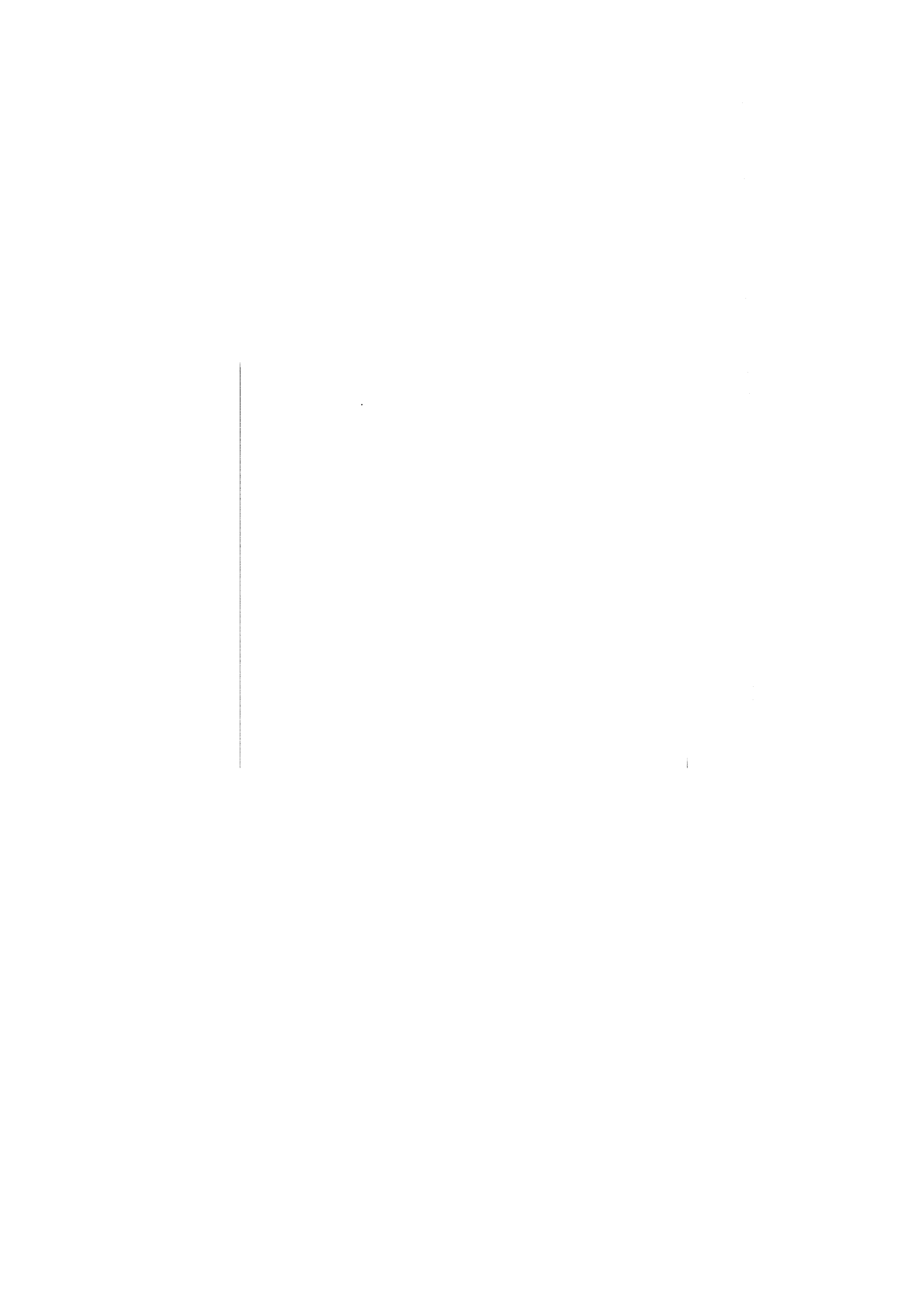
دعانا الرجل إلى الكثير من القيم الخالدة والأفكار البناءة الرائعة، ومن بينها التأكيد على أهمية العلم فى حياتنا المعاصرة، والكشف عن الأسس الفاسدة التى يرددها القائلون بالغزو الثقافى، والدفاع عن المنجزات وعن الحضارة الأوروبية، وبيان أن التقدم العلمى لا يتعارض بالضرورة مع الأخلاق، وبيان خطورة الخلط بين الدين والسياسة، وتأكيده على أن النقد يعد علماً. فالعمل الفنى يعد معبراً عن بعد ذاتى وجدانى، ولكن أن أقوم بنقد لوحة أو قصيدة لشاعر، فإن هذا يعد داخلاً فى إطار علم النقد... إلى آخر تلك القيم والدروس الفكرية الرائعة.

كما بين لنا الشروط الواجب توافرها فى المثقف، وكيف يختلف مفهوم المثقف عن مفهوم المتخصص فى كل مجال من مجالات العلوم والآداب والفنون.

كان الرجل لا يكل ولا يمل. وإذا كانت روحه قد غادرت هذا العالم الزائل إلى العالم الأخروى، فإن آثاره ستظل باقية، ما بقيت حياة على سطح هذا الكوكب الذى نعيش فيه. لقد دخل الرجل تاريخنا الفكرى والأدبى من أوسع الأبواب وأرحبها. وأحسب أن روحه تحلق الآن فى السماء وفى سعادة، حين تدرك وجود آلاف المقدرين لأفكاره، آلاف الدارسين لكتاباته، وما أعظمها من كتابات تتضمن مئات الأفكار التى تعد غاية فى العظمة والعمق والثراء. إنها تحية فى ذكراه الخامسة، فهل تجد صداها فى النفوس والعقول؟



(٩)
زكى نجيب محمود ورؤيته المستقبلية



زكى نجيب محمود ورؤيته المستقبلية

إن الدور الذى أداه العملاق زكى نجيب محمود لا يقل بأى حال من الأحوال عن أى دور قام بأدائه أعظم المفكرين فى أمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها وعلى امتداد تاريخها من القديم حتى أيامنا الحالية: لقد أدى دور المجدد لفكرنا العربى على أعظم صورة. ولا يخفى علينا أن المجدد له رؤيته المستقبلية، الرؤية إلى الأمام والتى ستظل خالدة على مدى العصور وإلى أبد الآبدين.

لم يكتب الدكتور زكى نجيب كلمة واحدة إلا وكان واضعاً فى اعتباره المستقبل العلمى والفكرى لأمتنا العربية. حدد مواضع الداء واقترح أوجه العلاج.

ويقينى أن الأفكار المستقبلية لزكى نجيب محمود لم تكن صادرة إلا عن ذكاء حاد وسرعة بديهة من النادر أن نجدها عند أكثر المفكرين فى عالمنا العربى. لقد أدرك بثاقب نظره أنه لابد من الإنفتاح على الغرب وعلومه وحضارته وذلك إذا أردنا لأنفسنا مكاناً، ومكاناً بارزاً على الخريطة العالمية. فمن منطق الأمور كما يقول أن يحاول المتأخر أن يلحق بالمتقدم، وليس من المنطقى أن نطلب من المتقدم أن يظل فى حالة ثبات فى مكانه، حتى يلحق به المتأخر.

درس مفكرنا الشامخ. هرم مصر الفكرى التراث العربى على امتداد تاريخه، ورأى ابتداء من كتابه الشرق الفنان أنه لابد من القيام بعملية تجديد لهذا التراث عن طريق المزج بينه وبين المعاصرة وإلا سنظل فى حالة ثبات، حالة تقليد، حالة رجوع إلى الوراء وصعود إلى الهاوية. إن هذه تعد من جانبه رؤية مستقبلية إذا لم ندرك أبعادها فى الحاضر، فسنكون فى أمس الحاجة إليها فى المستقبل، هذا إذا كنا جادين معشر العرب فى المزيد من التقدم. لقد أدرك ضرورة البحث عن أيديولوجية

عربية، لا تقوم على اجترار الماضى والبكاء على الأطلال، بل تنظر فى غضب إلى التراث الذى يجيئ معبراً عن حالات التخلف والتقليد والرجعية، وبحيث لا تأخذ من التراث إلا ما يكون موصلاً إلى النهضة الفكرية الخلاقة المبدعة. نجد هذا فى أكثر كتبه ومن بينها تجديد الفكر العربى، والمعقول واللامعقول، وثقافتنا فى مواجهة العصر، وعربى بين ثقافتين، وبذور وجذور حتى حصاد السنين آخر كتبه والذى قال فيه كلمته الأخيرة لا لكى نقف عندها، بل لكى نحاول الإستفادة منها فى تكوين أيديولوجية عربية مستقبلية.

ولا نجد فى تاريخنا الفكرى الحديث مفكراً أخلص لهذه القضية، بمثل إخلاص زكى نجيب، وكما قال ذلك بحق توفيق الحكيم. وهذه القضية هى قضية التقدم، قضية الريادة فى المجتمع العربى، قضية المستقبل الذى أراد له زكى نجيب أن يكون خيراً من ماضينا وحاضرنا.

ونجد الرؤية المستقبلية عند زكى نجيب حين بين لنا الواجب الإجتماعى للمثقف. فالثقافة لا يمكن عزلها عن المجتمع، بل إن العروبة ثقافة قبل أن تكون سياسة. وإدراكاً من جانبه لوظيفة المثقف فى المجتمع، نجده يخوض العديد من المعارك الفكرية. وآراؤه تعد آراء مستقبلية، وهل يمكن أن ننسى معركته حول العلمانية، معاركه حول التراث وغيرها من معارك لا حصر لها.

لقد أدرك زكى نجيب أن من واجبنا السعى بكل قوتنا نحو الحضارة الغربية والإستفادة من منجزاتها الحضارية إذ من الأخطاء البالغة أن نقول بالغزو الثقافى فى عالم أصبح قرية صغيرة. من التناقض أن نهاجم الحضارة الغربية ونسعى فى نفس الوقت إلى الإستفادة من التطبيقات التكنولوجية.

وإذا كان مفكرنا العملاق قد كتب آلاف الصفحات فى مجال تجديد الفكر العربى، والنظر إليه بمنظور المستقبل، وليس من خلال منظور الماضى، فإننا إذن لا

نجد تعارضاً يذكر بين دعوته إلى الوضعية المنطقية وبين اخلاصه إخلاصا بغير حدود فى مجال تجديد الفكر العربى. فالدعوة إلى التجريبية العلمية قد ساعدته على التمييز بين المعقول واللامعقول، ساعدته على اكتشاف الأخطاء التى نجدها فى تراثنا والنظر بعين نقدية إلى هذا التراث.

ومما يدلنا على عمق الرؤية المستقبلية عند مفكرنا الخالد زكى نجيب، أنه كان طوال حياته مدافعاً عن العقل وأحكامه، كان معبراً فى أفكاره عن شعلة العقل الخالدة، إذ أنه أدرك بثاقب نظره، أن التنوير يستند إلى العقل، والذى يعد أعدل الأشياء قسمة بين البشر. والدفاع عن العقل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتأكيد على أهمية العلم فى حياتنا. لقد فعل ذلك زكى نجيب من خلال كتب لا حصر لها، من بينها الوضعية المنطقية، ونحو فلسفة علمية، وحياة الفكر فى العالم الجديد، وشروق من الغرب. فجناحا التقدم هما العقل والعلم ويلتقيان نحو السعى بكل قوة نحو التنوير، مستقبل الأمة العربية الوضاء والمشرق.

لم يترك لنا زكى نجيب فكرة واحدة تحمل معانى الرجعية والتأخر والتقليد، بل كان فى أفكاره وفى أمتنا العربية، سابقاً لعصره. كل فكرة من أفكاره تحمل فى طياتها السعى إلى الأمام. كل فكرة تركها لنا كان الهدف منها تبديد الظلام سعيا نحو النور والضياء. فالظلام يعنى العدم والنور يعنى الوجود والبقاء والاستمرار. وهذا الوجود لكى يستمر فلابد إذن من فتح النوافذ وتجديد الهواء ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق الترجمة التى نعرف عن طريقها أفكار الآخرين. وكم سعى زكى نجيب إلى ترجمة العديد من الكتب الخالدة،حتى يحدد لنا طريق التقدم، طريق المستقبل.

أدرك زكى نجيب محمود أنه لابد من التركيز على الأفكار التى تؤدى إلى التنوير والتى يمكن أن نجدها فى تراثنا عند إخوان الصفا فى المشرق العربى، وابن

رشد في المغرب العربي، ولكن لابد من النظر إليها نظرة تقدمية معاصرة، فقد تكون مشكلات الحاضر أو مشكلات المستقبل، غير مشكلات الماضي.

لقد وقف الدكتور زكي نجيب على قمة عصره، وكان ممثلاً لآخر جيل العمالقة، جيل الرواد، وخاصة عن طريق حسه النقدي البارز. الحس الذي يكشف لنا أخطاء الماضي والحاضر وبحيث نتجاوز هذه الأخطاء سعياً من جانبنا نحو المستقبل لعلنا نجده أكثر إشراقاً وازدهاراً. أدرك أننا لابد أن نختار طريقاً من طريقين: طريق المعقول وطريق اللامعقول. ودافع عن الطريق الأول دفاعا بغير حدود لأنه أدرك من خلال رؤيته المستقبلية أنه لا مفر أمامنا من اختيار المعقول. ورفض اللامعقول. وطريق المعقول هو الطريق الذي يضمن لنا البقاء والإستمرار. إنه الطريق نحو الأيديولوجية الجديدة التي يجب أن نلتف جميعاً حولها إذا أردنا لأنفسنا أن نكون من بني الإنسان. لقد دخل زكي نجيب محمود فكرنا من أوسع الأبواب وأرحبها. وسيبقى فكره إلى أبد الآبدين وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. لأنه الفكر الخالد، الفكر التقدمي، الفكر المستقبلي.

(١٠)

زكى نجيب محمود وثقافة القرن الجديد

(فى الذكرى السادسة لوفاته)

زكى نجيب محمود وثقافة القرن الجديد[1]

(فى الذكرى السادسة لوفاته)

يحتل زكى نجيب محمود فى تاريخ فكرنا العربى المعاصر مكانة كبيرة. إن المؤرخ لهذا الفكر لابد وأن يضع فى اعتباره البصمات التى وضعها مفكرنا على فكرنا المعاصر. ويقينى أنها بصمات قوية وبارزة، وبحيث لا نتصور تاريخاً لفكرنا المعاصر، إلا بأن نخصص فيه مساحة كبيرة لمفكرنا الشامخ العملاق زكى نجيب.

وإذا كنا قد عاهدنا أنفسنا أن نكتب عن زكى نجيب فى كل عام بمناسبة ذكراه، وفى موضوع من الموضوعات التى اهتم بها، فإننا فى الذكرى السادسة لوفاته، ونحن نقترب من الدخول إلى قرن جديد، نجد واجباً علينا وقد عايشنا فكر زكى نجيب ما يقرب من نصف قرن من الزمان، واقتربنا من الرجل فى حياته، وتأثرنا بفكره بعد مماته، أن نشير إلى مجموعة من المبادئ والأفكار التى اعتقد من جانبى أنها تساعدنا مساعدة فعالة علـى التعايش مع أفكار القرن الجديد، أفكار المستقبل، أفكار العولمة والتى هى آتية لا ريب فيها.

لقد كان الرجل مجدداً لفكرنا. والمجدد يتخطى حجب الماضى وأستاره، وبحيث ينطلق نحو المستقبل. ولِمَ لا، والرجل كان يدعو طوال حياته ومن خلال عشرات الكتب التى تركها لنا ومئات المقالات التى كتبها، إلى النور والتنوير. والوجود يقترن بالنور، تماماً كما يقترن العدم بالظلام، العدم الذى يريده لنا أصحاب الدعوة الأصولية الإرهابية والتجارة بالدين. الأشباه الذين تنطلق أفكارهم بما نسميه البتروفكر.

---

[1] يمكن الرجوع إلى ما كتبناه عن حصاد السنين "لزكى نجيب محمود، فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر – دار قباء – القاهرة.

نعم دعانا الرجل إلى الرؤية المستقبلية. فلا خير فينا إذا نحن وقفنا عند التراث والتجارة بالتراث. إن حالنا سيكون كمن يبكي على الأطلال، نظراً لأن الوقوف عند التراث يمثل الماضي والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية، في حين أننا نريد التقدم والسعي نحو المستقبل، والنظر إلى الماضي في غضب، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

إن من يتأمل في العديد من كتب مفكرنا زكي نجيب محمود، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر، "شروق من الغرب"، و"قشور ولباب"، و"الثورة على الأبواب"، و"تجديد الفكر العربي"، و"بذور وجذور"، و"ثقافتنا في مواجهة العصر"، و"المعقول واللامعقول"، يجد حرص الرجل على الانطلاق نحو المستقبل، والحديث المستمر عن التقدم في أوروبا في شتى مجالات العلم والأدب والفن.

إنه يحدد الأسباب التي أدت بالعرب إلى التخلف، ويتحدث عن سبل التقدم إلى الأمام. إنه لا يكتب من فراغ ولا يطلق مجرد الصيحات والأوهام على النحو الذي نجده عند أشباه الكتاب، وأنصاف المثقفين، بل يدرس الماضي دراسة جيدة. ويحدد مواضع الداء ويصف الدواء، وذلك حتى تكون أفكاره مواكبة للحاضر ومنطلقة نحو المستقبل المشرق.

لقد كان الرجل طوال حياته حريصاً على الكشف عن دور العلم في التقدم. فإذا أهملت أمة من الأمم، الجانب العلمي، فمعنى هذا أنها تقول للتقدم وداعاً ولن يكون لها نصيب في الإسهام في كتابة تاريخ الحاضر والمستقبل.

إن من يتأمل في العديد من كتبه "كالمنطق الوضعي" و"نحو فلسفة علمية" و"موقف من الميتافيزيقا" يجد من جانبه الدعوة إلى ضرورة العلم في حياتنا وتقدمنا وأسباب وجودنا. إنه في أول عبارة من عباراته في المنطق الوضعي يقول: أنا مؤمن بالعلم.

والعلم الذى يتحدث عنه زكى نجيب، هو العلم بمعناه الدقيق، وليس العلم بمعناه المهوش وغير الدقيق والذى نجده عند أسلافنا من العرب، والذين يخلطون فى حديثهم عن العلم بين الجانب الكمى، والجانب الكيفى. والكيف لا صلة له بالعلم من قريب أو من بعيد. ومن هنا لم يكن غريباً أن العلم العربى القديم لم نتوصل من خلاله إلى أبسط نوع من أنواع المخترعات، بل كل المخترعات والتطبيقات التكنولوجية إنما هى ثمرة لقرون ثلاثة، القرن الثامن عشر، والقرن التاسع عشر، والقرن الذى نقترب الآ ن من نهايته.

فخصائص العلم الآن، غير خصائصه فى الماضى. وقد يكون ذلك من جانب زكى نجيب نوعاً من التأثر بمفكرنا العملاق طه حسين. لقد ذهب طه حسين فى أعظم كتاب من كتبه، كتاب "من بعيد" إلى القول بأن الويل كل الويل للأمة العربية حين تلجأ فى الطب إلى ما كتبه ابن سينا وغيره من القدامى.

وإذا كان زكى نجيب يتحدث عن العلم بمعناه الدقيق، معناه الحديث، وليس العلم التراثى الكلاسيكى، فإن ذلك يعد نابعاً من نظرته النقدية إلى التراث. وأقول من جانبى إن التراث إذا كنا نجد فيه بعض الجوانب الإيجابية، إلا أننا نجد فيه كماً هائلاً من الخرافات تعد أكثر عددًا من سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها.

وبالإضافة إلى ذلك، نجد زكى نجيب صاحب نظرة مستقبلية حين يدافع عن الحضارة الحديثة، ويقصد بها الحضارة الأوروبية. إن من يهاجمون الحضارة الحديثة يتناقضون مع أنفسهم حين يسعون من جانبهم إلى الإستفادة من منجزات هذه الحضارة الأوروبية. إنهم يقولون إن الظلام فى الغرب، وفى نفس الوقت يعالجون أنفسهم فى المستشفيات الحديثة بأوروبا وغيرها، ويستخدمون الطائرات والسيارات فى تنقلاتهم من مكان إلى مكان آخر. بل إنهم يستخدمون المطبعة وهى

نتاج أوروبى خالص فى طبع كتبهم التى تدعونا إلى التخلف والصعود إلى الهاوية والعيش فى كهوف الخفافيش والثعابين والذئاب.

نعم كان زكى نجيب صاحب رؤية تقدمية حين أدرك بثاقب نظره وذكائه الحاد أنه لا خير فينا نحن العرب إذا قضينا وقتنا فى الهجوم على الغرب. فماذا فعلنا نحن كعرب مقابل ما فعلته أوروبا. لم نفعل شيئاً وكذلك كانت حضارتنا حضارة كلامية، أو كما كان زكى نجيب يفرق بين الكلاملوجيا والتكنولوجيا. لقد تحول العرب إلى مستهلكين ولم يكونوا منتجين.

ونعلم تماماً أننا فى المستقبل، وفى ظل العولمة لابد أن نبادل الدول الأخرى عطاء بعطاء وإلا سنكون كالهنود الحمر، أو سنكون فى خبر كان إن صح التعبير.

ويميز زكى نجيب محمود بين خصائص العلم وخصائص الدين، وبحيث لا يخلط بين الدين والعلم. فالدين ثابت والعلم متغير، فكيف إذن نلحق الثابت بالمتغير. إنه يكتب العديد من المقالات الرائعة حول هذا الموضوع ويرد على من يخلطون بين المجالين، ولكن ماذا نفعل إزاء أناس من أصحاب الفقر فى الذكاء والتخلف العقلى والعياذ بالله.

ولا يلجأ زكى نجيب محمود إلى الخلط بين مجال الدين ومجال السياسة، وذلك على النحو الذى نجده عند أناس يتاجرون بالدين.

كما يبين لنا مفكرنا زكى نجيب أن التقدم العلمى لا يتعارض مع الأخلاق، بل على العكس نجد من العلم تعزيزاً للجانب الخلقى. فالحضارة الأوروبية الحديثة لا يصح أن نقول عنها إنها تضرب عرض الحائط بالأخلاق والقيم النبيلة السامية.

نعم أدرك زكى نجيب منذ سنوات شبابه الأولى، أهمية العلم والمنهج العلمى. وآمن بالوضعية المنطقية أو التجريبية العلمية. وحين ركز على دراسة

مشكلات الفكر العربى، لم يكن هذا نوعاً من التناقض كما يزعم الأشباه والصغار والأقزام، بل إن دراسته للوضعية المنطقية هى التى أفادته فى التمييز بين المعقول واللامعقول، بين العلم والخرافة. نقول هذا ونؤكد على القول به نظراً لأننا ما زلنا نجد على الساحة الفكرية من يفسد فيها، من يتكلمون فى كل شئ، ولا يفهمون أى شئ.

أذكر يوم قدمت لمفكرنا زكى نجيب كتابى الذى أهديته له وهو "ثورة العقل فى الفلسفة العربية"، أن أثرت معه هذا الموضوع، فقال لى بغير تردد: لا تناقض فى موقفى إطلاقاً.

لقد دعانا زكى نجيب إلى كثير من الأفكار البناءة والقيم السامية النبيلة. أخلص للفكر إخلاصاً بغير حدود. لم يكتب أفكاره لكى نضعها فى زاوية النسيان والإهمال، ولكن لكى نستفيد منها فى دخولنا أبواب القرن الجديد. ولكن ماذا نفعل ونحن نعيش فى مجتمع الصراصير الفكرية التى تتقاتل وتتنازع، ولا نعيش فى مجتمع النمل والنحل حيث التعاون والإئتلاف وبالتالى التقدم إلى الأمام. إننى أشعر أن روح زكى نجيب ترفرف الآن فى السماء فى سعادة، حين تدرك الإهتمام بأفكاره ومناقشتها حتى ندخل فى ثقة ويقين أبواب قرن جديد. إنها أفكار مستقبلية صادرة عن رجل آمن بدينه وآمن بوطنه، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

(١١)

تصدير لكتاب: زكى نجيب محمود، آراء وأفكار

تأليف: د. سعيد مراد



تصدير لكتاب: زكى نجيب محمود: آراء وأفكار

تأليف د. سعيد مراد

يحتل الدكتور زكى نجيب محمود فى تاريخنا الفكرى المعاصر مكانة كبيرة. لقد شق طريقه وسط الأشواك والصخور، وخاض العديد من المعارك الفكرية الهامة والتى تشكل بنية رئيسية فى الفكر العربى المعاصر. والمقارن بين المعارك الفكرية التى أثارها عملاق الفكر العربى وهرم الثقافة العربية زكى نجيب محمود، والمعارك التى يثيرها الآن أشباه المثقفين، سرعان ما يقول لنفسه: إلى الجحيم أيها الأشباه. إن معارك أشباه المثقفين تبدو كالكلمات المتقاطعة ولا تصدر إلا عن أناس بلغوا درجة كبيرة من التخلف العقلى. إنهم يضعون أنفسهم زوراً وبهتاناً داخل دائرة الثقافة، والثقافة منهم براء، إذ لا صلة بينهم وبين الثقافة من قريب أو من بعيد. ولكن ماذا نفعل أمام بريق الدعاية والطبل الأجوف؟ ورحم الله زكى نجيب حين تحدث فى آخر كتبه "حصاد السنين" عما أسماه "عملقة الأقزام".

من حقنا أن نفخر بأننا عاصرنا مفكرين كبار، من بينهم رائدنا العملاق زكى نجيب محمود ومن واجبنا أن نكتب عن زكى نجيب، وفكر زكى نجيب، وآراء زكى نجيب. إنه لم يقل بتلك الآراء لكى توضع فى زوايا النسيان والإهمال، بل لكى تظل الضياء والنور بالنسبة لنا فى كل مكان، وعلى امتداد الزمان.

وإذا كنت من جانبى قد لازمت طوال ما يقرب من نصف قرن من الزمان، صاحب الفكر الشامخ زكى نجيب، وكتبت عنه مئات الصفحات، وعرفت كل صغيرة وكبيرة عن الرجل المعلم، والرائد الكبير، فإننى أكون سعيداً غاية السعادة حين أجد اليوم تلميذى وصديقى الدكتور سعيد مراد، يبذل كل جهده لكى يكتب عن آراء مفكرنا ومعتمداً بالدرجة الأولى على مؤلفات زكى نجيب وما أروعها وما أعظمها.

وتدلنا دراسة سعيد مراد والتى يقدمها للطبع والنشر على غزارة اطلاع من جانب صاحبها. إنه لم يكتب عن فكرة من أفكار زكى نجيب، إلا بعد تأمل طويل، وجدية فى البحث والدراسة، ووقفة متأنية. إن سعيد مراد صاحب قلم ثابت راسخ، وكم كنت سعيداً حين قدمته للقراء من خلال العديد من كتبه وبحوثه. وإذا كنت اختلف معه حول رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها بين ثنايا كتابه عن زكى نجيب محمود، فإن هذا الإختلاف كما أقول دائماً من طبيعة الفلسفة والتفلسف، ويعد ملازماً للبحث العلمى.

أشار باحثنا سعيد مراد فى مقدمته إلى أهمية فكر زكى نجيب، وأهمية الموضوعات التى اختارها كمجال للدراسة. ومن الطبيعى أن يختار الباحث مجموعة من آراء زكى نجيب محمود لكى يبحث فيها داخل الكتاب، إذ ليس بالإمكان تحليل كل أفكار الرائد زكى نجيب داخل كتاب واحد.

قسم باحثنا كتابه إلى مجموعة من الفصول. حلل فى الفصل الأول وعنوانه "أحاسيس ومشاعر" الكثير من الجوانب التى تتعلق بحياة مفكرنا زكى نجيب. وإذا كنت أرى من جانبى أن هذا الفصل كان يحتاج إلى وقفة أطول من جانب الباحث، وإلى ربطه بالفصول التالية عليه، إلا أن باحثنا قد قدم العديد من الآراء، وألقى الكثير من الأضواء حول المجال الذى جعله موضوعاً للفصل الأول من كتابه.

وإذا كان أستاذنا زكى نجيب قد ربط بين الفكر والمجتمع، وأعطانا مفهوماً دقيقاً للمثقف فإن باحثنا سعيد مراد، قد رأى أنه من الضرورى بحث هذا الجانب، ومن هنا نجده يخصص الفصل الثانى من كتابه لدراسة مجموعة من القضايا تدور حول "نقد المجتمع". والقارئ لهذا الفصل يرك مدى اهتمام الدكتور زكى نجيب بتقديم الكثير من أوجه العلاج للعديد من مشكلاتنا الفكرية والإجتماعية. وقد كان الدكتور سعيد مراد مصيباً حين اهتم بإبراز هذا الجانب من فكر رائدنا زكى نجيب.

وكلنا نعلم مدى اهتمام زكى نجيب بالقضية الكبرى، قضية التنوير، إنها قضية مصيرية. والباحث فى فكر زكى نجيب يدرك مدى ارتباط هذه القضية، بالبحث فى "الأصالة والمعاصرة" إن التنوير يعنى النظرة إلى الأمام وليس إلى الخلف. وقد ارتبط الوجود بالنور، كما ارتبط العدم بالظلام. ألم يقل ابن سينا فيلسوف المشرق الكبير فى مناجاته لله تعالى: "يافالق ظلمة العدم بنور الوجود". ونحن فى أمتنا العربية بين طريقين لا ثالث لهما: إما طريق التنوير، وإما طريق الظلام. ولا مفر من التنوير إذا أردنا لأنفسنا مكانة لائقة بين الأمم،ومن المنطقى أن يلحق المتأخر بالمتقدم، ولا يصح أن ننتظر من المتقدم أن يقف فى مكانه حتى يلحق به المتأخر. هذه سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

كان من الطبيعى أن، يخصص مؤلفنا سعيد مراد، فصلاً للبحث فى موضوع التنوير وارتباطه بالدعوة إلى الإصلاح. ومن منا يستطيع أن يغفل آراء زكى نجيب فى مجال التنوير لقد أخلص للبحث فى التنوير إخلاصاً بغير حدود، وربط بينه كما قلنا وبين البحث فى قضيته الكبرى، قضية الأصالة والمعاصرة. وليتنا كباحثين نواصل الإهتمام بأفكار زكى نجيب محمود فى هذا المجال، مجال التنوير، ومجال الأصالة والمعاصرة. ولكن ماذا نفعل وقد أصبح أكثر المتحدثين عن الثقافة من غير المثقفين. ماذا نفعل وقد انتشرت الحشرات الآدمية بيننا، والثقافة منهم براء، والمسافة بينهم وبين الثقافة، أبعد من المسافة بين الإنس والجن، بين المشرق والمغرب وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

أذكر أن الأديب الكبير توفيق الحكيم حين وجه تحية فى عيد مولد زكى نجيب محمود، بمناسبة مرور ثمانين عاماً على مولده، قد قال على صفحات جريدة الأهرام أثناء إشارته إلى دراسة لى عن أستاذى زكى نجيب محمود قمت بإرسالها إليه، لقد قال توفيق الحكيم. إننا لو كنا نعيش فى مجتمع النمل لكنا قد اهتممنا

بدراسة آراء زكي نجيب، ولكننا نعيش في مجتمع الصراصير. إن النملة تتعاون مع الأخرى في مملكة النمل، ولكن الأمر يختلف تماماً في مجتمع الصراصير، حيث التقاتل والنزاع والخراب.

وإذا كان الدكتور سعيد مراد قد خصص فصلاً من كتابه: زكي نجيب محمود: آراء وأفكار" للحديث عن التنوير، فإننا نجده يخصص فصلاً لدراسة آراء زكي نجيب في مجال الفن، وفصلاً آخر لتحليل آرائه في مجال السياسة. وإذا كانت توجد مجالات كان من الضروري دراستها داخل إطار هذين الفصلين، ولا نجدها داخل الفصلين، فإننا ننتظر من باحثنا سعيد مراد، استكمال دراسة هذه الآراء أو المجالات.

ولم يقف سعيد مراد عند دراسة المجالات التي أشرنا إليها، بل نجده مهتماً بدراسة موقف زكي نجيب محمود من التراث، وقد خصص له فصلاً من كتابه وقام بتحليل مجموعة أخرى من آرائه داخل إطار الفصل الأخير من كتابه، وجعل عنوانه: ثورة الفكر.

والواقع أن باحثنا سعيد مراد قد بذل جهداً واضحاً في دراسته. لم يكن مكتفياً بالعرض الموضوعي لآراء زكي نجيب، بل نجده يضيف إلى ذلك بعدًا ذاتياً وذلك حين يلجأ إلى المناقشة والموازنة والتحليل، وهذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على وجود شخصية لمؤلفنا سعيد مراد. وكم أنصف باحثنا سعيد مراد، أستاذنا العملاق الشامخ، زكي نجيب محمود.

والواقع أننا في أمس الحاجة إلى العديد من الدراسات عن زكي نجيب وأفكاره. لقد أنشأ حديقة فكرية كبرى متنوعة الألوان والظلال، ولم يقل برأي إلا بعد تأمل طويل وبحيث قدم لمكتبتنا العربية عشرات الكتب البالغة الأهمية، حتى قال كلمته الأخيرة في كتابه "حصاد السنين". وكم كان باحثنا سعيد مراد مدركاً لأهمية

آراء زكى نجيب محمود، مدركاً لدور الرجل فى تاريخنا الفلسفى والعلمى والأدبى.

لقد جاء كتاب سعيد مراد فى موعده تماماً، جاء ونحن نتحدث عن قضايا وهمية زائفة، آن الأوان لكى نكشف عن خداعها مهتدين بمصباح زكى نجيب محمود. قضايا زائفة لأنها تعبر عن "البتروفكر" إن صح هذا التعبير.

وبقينى أن المهتمين بفكر زكى نجيب محمود، سيجدون فى هذا الكتاب فائدة كبرى، إذ أن مؤلفنا الدكتور سعيد مراد لم يكتب ما كتب إلا بعد دراسة لأفكار الرجل طوال سنوات عديدة. ونرجو له كل توفيق فى مستقبل حياته الفكرية.

والله هو الموفق للسداد.

(١٢)

بذور وجذور

تأليف: د. زكى نجيب محمود

(تحليل نقدى)



.بذور وجذور[1]

تأليف د. زكى نجيب محمود

(تحليل نقدى)

يحتل رائدنا وأستاذنا الكبير الدكتور زكى نجيب محمود مكانة كبرى فى تاريخ الفكر العربى المعاصر. إنه يعد علامة وضاءة مشرقة فى تاريخنا المعاصر، ولا يمكن لأى دارس لهذا الفكر العربى المعاصر أن يتغافل عن الدور الرائد، الدور الحيوى البناء الذى قام به مفكرنا العملاق ورائدنا الشامخ. لقد دخل تاريخ فكرنا المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها ومن واجبنا أن نهتم كل الإهتمام بدراسة أفكاره وآرائه. لأنها أفكار بناءة، وآراء شامخة ناضجة من النادر أن نجد لها مثيلاً فى عالمنا العربى المعاصر من مشرقه إلى مغربه، من محيطه إلى خليجه.

لقد اهتم مفكرنا العظيم زكى نجيب محمود بالفكر العربى على امتداد عصوره. أخلص إخلاصاً لا حد له لقضيته الكبرى، قضية الأصالة والمعاصرة. اهتم اهتماماً بالغاً بالإسهام فى تنشيط حركة الترجمة لاعتقاده بأنه لا تنوير دون دراسة آراء الآخرين. لا تنوير إذا أغلقنا النوافذ والأبواب، بل لابد من فتح النوافذ حتى نجد الهواء المتجدد، نجد الفكر الحر الطليق. نجد الحركة لا السكون. نجد النور لا الظلام.

ولم يكن غريباً أن تهتم أكثر دول العالم العربى بدراسة آرائه واتجاهاته الفلسفية والأدبية الكبرى. فكم من الرسائل تم اعدادها لدراسة أفكاره. كم من الكتب تم تأليفها للتعرف على أفكاره، وما أعظمها من أفكار. لقد أسهم إسهاماً كبيراً

[1] يمكن الرجوع إلى ملف عن زكى نجيب محمود بمجلة المنتدى - الإمارات العربية المتحدة - مايو ١٩٩١.

فى تنشيط الحركة النقدية. لقد آثار العديد من المعارك الفكرية. آمن بأن دور المثقف، لابد وأن يكون دورًا إيجابيا لاسلبيا، ويكفى أن نتأمل فى أفكاره الكبرى التى نجدها فى كل كتبه ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر: الشرق الفنان، وهذا العصر وثقافته، وتجديد الفكر العربى، والمعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى، وشروق من الغرب، وقصة عقل، وقصة نفس، ومجتمع جديد أو الكارثة، وثقافتنا فى مواجهة العصر، وقشور ولباب وغيرها من كتب تمثل خير تمثيل عمق مفكرنا الرائد ودقة حسه النقدى وإسهاماته فى مجال التنوير الذى بدأ إلى حد كبير برفاعة الطهطاوى فى مصر ووجدناه عند أعلام من مفكرى عصرنا من بينهم أحمد لطفى السيد وطه حسين.

والكتاب الذى نحاول فى مقالتنا هذه، بيان أهميته فى فكرنا المعاصر، وتحديد مكانته فى ثقافتنا المعاصرة، هو كتاب بذور وجذور. هذا الكتاب الذى يحتل أهمية كبرى فى سلسلة الكتب التى قام أستاذنا العملاق بتأليفها والتى تكشف عن ذكاء بالغ وحس نقدى ممتاز، وغزارة اطلاع. وسيدرك القارئ أهمية هذا الكتاب بين الكتب التى ألفها الدكتور زكى نجيب محمود وصلة هذا الكتاب بالعديد من الكتب التى تكشف عن اهتمام رائدنا البالغ بالثقافة العربية فى أكثر مشكلاتها وقضاياها.

لقد اختار أستاذنا زكى نجيب محمود عنواناً دقيقاً لكتابه ينطبق تمام الإنطباق على الموضوعات البالغة الأهمية والتى تضمنها هذا الكتاب. استمع إليه أيها القارئ العزيز وهو يقول فى أول سطور كتابه وفى المقدمة التى كتبها (ص٥): أردت فى فصول هذا الكتاب أن أتعمق حياتنا لأصل إلى جذورها التى منها انبثق جذع تلك الحياة، ثم من الجذع تفرعت الفروع وأورقت وأثمرت ثمارها، ثم لم أقف

عند الجذور، بل مضيت فى الحفر لأصل إلى البذور الأولى التى فعلت فعلها فى خفاء التربة، حتى أخرجت الجذور.

كما يحدد كاتبنا العملاق حقيقة أفكاره. إنها أفكار عاشها الكاتب وعاناها وكلها يدور حول تحليل حياتنا تحليلاً يردها إلى بذورها وجذورها، لتنشأ فرصة أمام أبصار المبصرين أن ترى أين تكمن القوة وأين يكمن الضعف كما يشير إلى أنواع البذور وذلك باختصار فى مقدمة كتابه (من ص٦ إلى ص١٣) إنها على النوع التالى:

البذرة الأولى هى حقيقة "المصرى" ما هى؟ من أى العناصر تركبت هويته على امتداد التاريخ، وكيف نرى حياته الآن؟

ويبين لنا زكى نجيب أن جوهر المصرى هو أن يحيا حياته الدنيا بكل أفراحها وأحزانها، على أن ينظر إليها من خلال منظور دينى يبين له أين الخطأ وأين الصواب. وإذا كانت العقائد الدينية قد تغيرت عليه، إلا أن التدين قد بقى ملازماً له. إن لب التدين هو أن ينظر إلى الحياة الدنيا كمقدمة لحياة الخلود إن حضارته إذن تعد حضارة أخلاقية فى أعماقها. ومن هنا تلتقى مصر مع سائر أجزاء الوطن العربى الكبير.

أما عن حياتنا اليوم، فإننا نجد صورة العلاقات قد تغيرت فى صميمها. يقول مفكرنا الشامخ ومن خلال نظرته النقدية الحادة الذكاء: لقد كاد الأمر يتحول من كون الأمة أمة واحدة، إلى كونها تجمعاً من أفراد، كل فرد فيه يسعى إلى الحصول على أكبر نصيب ممكن من الغنائم بأقل قدر ممكن من العمل، ومن هنا كان السابقون فى هذا المضمار هم أبرع الناس حيلة ودهاء، وليس أرفعهم ذكاء وعلماً وعطاء، وما يقال عن أفراد الشعب الواحد من شعوب الوطن العربى، يقال عن الشعوب العربية بعضها إزاء بعض، فلم تعد الأمة العربية أمة بينها أواصر الأمة الواحدة، بقدر ما أصبحت عدداً من الشعوب يمكر شعب منها بشعب آخر ليظفر دونه بالغنيمة، ولولا

بقية جوهرية بقيت، هي أن هذا التفكك أكثر ظهوراً على صعيد السياسة منه على صعيد الثقافة، لقلنا إن الرحمن قد أوشك بنا على الفناء.

هذه الكلمة الرائعة من الدكتور زكي نجيب محمود تدلنا على اهتمامه الكبير بالجانب السياسي. إنه يحدد الداء ويصف الدواء، فهل يعلم ذلك أشباه الدارسين ذوي النظرة السطحية ومن يتصفون بالتخلف العقلي والذين قالوا إن زكي نجيب محمود لم يهتم بالجانب السياسي في فكره. إنهم يظنون أن الفكر السياسي ما هو إلا مجموعة من الخطب الرنانة والكلمات المتقاطعة، تماماً كالكلام الأجوف الذي يصدر عنهم.

البذرة الثانية: لماذا فقد الفرد الواحد من المواطنين في الشعب الواحد، إحساسه بالآخرين؟ ما الذي غرس في صدورنا ذلك الضلال الذي شوه الرؤية عند كل فرد حتى غلبت عليه الأنانية. لقد تم افتقاد الفكرة الموحدة بيننا عن حقيقة الإنسان ما هي؟

إن الإنسان يعد كائناً اجتماعيا بطبعه ولا يتحقق له وجود إلا إذا نظر إلى نفسه من حيث هو عضو في جسم كبير دون أن تقلل هذه العضوية من حقيقته كفرد مسئول. مثال ذلك الكائن الحي: فالقلب يؤدي وظيفته الكاملة، ولكن هذه الوظيفة لا تكون لها فائدة إلا إذا قام بمد سائر الأعضاء بزاد من الدم لكي تحيا. وهذا يقال عن سائر أعضاء جسم الإنسان كالرئتين والكبد والمعدة.. إلخ. لقد انتشرت بيننا الأنانية حتى ظن الفرد الواحد أنه يستطيع أن يسقط من حسابه سائر الأفراد، وظن الشعب الواحد من الشعوب العربية أنه يستطيع أن يسقط من حسابه سائر الشعوب.

وهذه البذرة الثانية والتي يكشف عنها زكي نجيب محمود، تعد شيئاً رئيسياً إذ نلاحظ فعلاً كيف انتشرت الأنانية بين أفراد الأمة الواحدة من جهة، وبين كل شعب والشعب الآخر من جهة أخرى. إن أكثر الدول العربية تتقاتل الآن فيما بينها،

ومن النادر أن نجد أمة عربية فى منطقة ما من مناطق المعمورة، إلا وتشن الحرب أو العداء على أمة أخرى عربية، وهذا كله يعد معبرا عن الأنانية بين الدول العربية، تماما كتعبيره عن الأنانية بين أفراد الأمة الواحدة، أو الشعب الواحد، أو الدولة الواحدة.

وكم أكد فلاسفة العالم شرقه وغربه على أهمية أن يكون الإنسان كائنا اجتماعيا. نجد هذا عند أرسطو فى بلاد اليونان حين ذهب إلى أن الإنسان يعد مدنيا بطبعه، أى كائنا اجتماعيا. والإنسان الأنانى إذن يعد فردا شاذا، فردا يعد معبرا عن اللامعقول، إذ لا حياة له إلا بأن يتعاون مع المجموع، وحتى ينتقل من صفته الفردية إلى صفته الجماعية، حتى ينتقل من مفهوم الفرد إلى مفهوم الإنسان، حتى يتخطى الجزئى إلى الكلى، وبحيث يصعد إلى أن يكون معبرا عن الإنسان كما ينبغى أن يكون الإنسان. ومن يتمسك بأنانيته، فإنه سيكون كالفرد الذى يعمل على موجة، والآخرين على موجة أخرى. أما من يتخطى الأنانية إلى الغيرية، إلى الإنسانية فإنه يكون بذلك معبرا عن التناغم والإتساق والإنسجام.

أما البذرة الثالثة فيرى زكى نجيب محمود، مفكرنا الرائد العملاق، بأنها تعد خاصة بالثقافة والمثقفين فى حياتنا القائمة. ويعرض علينا زكى نجيب مجموعة من المعانى التى تدور حول تعريف المثقف. فمن قائل يقول إنه ذلك الإنسان الذى يتميز بحب الكشف عن سر الحياة فى شتى صورها وفى صورتها الإنسانية بصفة خاصة. إنه لا يكتفى بالوقوف عند أسطح الكائنات وظواهرها، بل يريد أن ينفذ إلى الباطن والجوهر. نجد هذا عند الشاعر والروائى والمسرحى والفنان التشكيلى والموسيقى. بل نجد هذا عند المتلقى، فهو وإن لم يكن قد أبدعها بالدرجة الأولى، فإنه يحاول أن يعيد إبداعها فى نفسه حيث يتلقاها بالدرجة الثانية. (ص٩ – ١٠).

ومن الناس من يراد بالثقافةعنده التنوير، ويراد بالتنوير أن تزداد معارف الناس عن دنياهم بصفةٍ عامة، وأن ترسخ عندهم النظرة العقلية لأمور حياتهم بصفة خاصة. (ص١٠).

أما البذرة الرابعة التى يكشف عنها مفكرنا زكى نجيب محمود، فإنها تعد خاصة بالتراث وما نثيره حوله من ضجة تصم الآذان فلا نصغى ولا نسمع. إن مشكلات أسلافنا وإن اختلفت عن مشكلاتنا اليوم من حيث الموضوع، فهنالك جانب مشترك يربطنا بهم[1]. يقول زكى نجيب محمود: لقد طبق كاتب هذه السطور التجربة على نفسه، وعاد ليعيش لحظة مع أصحاب الفكر الفلسفى فى مشكلة عرضوها واختلفوا فى أمرها، فوجد نفسه منسجماً معهم فى جوهر الموقف، لأن المشكلة كانت عندهم هى هذه: أيأخذون عن فلاسفة اليونان منطقهم، أم أن الأمر فى المنطق مرتبط باللغة، وبالتالى لا يكون المنطق اليونانى صالحاً للغة العربية؟ فلم يجد هذا الكاتب عندئذ فرقاً جوهرياً بين سؤالهم وسؤالنا، فما زال السؤال وارداً يحتمل اختلاف الرأى، إذ نسأل اليوم: أنأخذ عن فلاسفة الغرب؟ أم أن هؤلاء الفلاسفة يفلسفون حياة ليست هى حياتنا؟ (ص١١).

ويشير زكى نجيب فى دراسته لهذه البذرة الرابعة إلى مشكلة الأصالة والمعاصرة، المشكلة التى أخلص لدراستها والبحث فيها ما يقرب من نصف قرن من الزمان وبدرجة لا نجدها عند أى مفكر فى عالمنا العربى المعاصر. لقد ارتبط اسم زكى نجيب محمود بتلك المشكلة، مشكلة الأصالة والمعاصرة، بل ارتبطت المشكلة، باسم زكى نجيب محمود، وبقلم زكى نجيب محمود. ومن يحاول أن ينكر ذلك، فوقته ضائع عبثاً. إن مؤلفاته فى هذا المجال، مجال الأصالة والمعاصرة لا يستغنى

[1] يمكن الرجوع إلى تحليلنا النقدى لكتابه: عربى بين ثقافتين - مجلة المنتدى - الملف الخاص بزكى نجيب محمود - مايو ١٩٩١م.

عنها أى مهتم بدراسة هذه المشكلة من قريب أو من بعيد. وأكثر المحاولات التى نجدها عند أناس يزعمون أنهم يحللون جوانب تلك المشكلة، إنما تعد محاولات سطحية زائفة، ولم لا؟ وهم من أشباه الدارسين أو أشباه المثقفين، والثقافة منهم براء، تحسبهم من المفكرين، وما هم بمفكرين، ولكنها الشهرة العمياء، والطبل الأجوف، بل إنهم صعدوا فوق أكتاف زكى نجيب محمود، ولكنهم أساءوا إليه بعد ذلك، ولم يفهموا أفكاره الحقيقية. لقد تقدم زكى نجيب محمود فى دراسته لهذه المشكلة الكبرى، مشكلة الأصالة والمعاصرة، بخطوات رائعة ثابتة وواثقة، وواثق الخطوة يمشى ملكاً، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. إستمع أيها القارئ العزيز إلى زكى نجيب محمود وهو يقول: إن الدرس الهام الذى خرج به هذا الكاتب من تلك التجربة، هو أننا لو عقلنا ألفينا أن أسلافنا وهم يعالجون تلك المشكلة، التى هى نفسها المشكلة التى نتحدث عنها اليوم على أنها مشكلة التراث، والحفاظ عليه، نراهم يحصرون المشكلة فيما يمس جوانب ثقافية قائمة بالفعل عندهم، ولم يجاوزوا ذلك ليجعلوها مشكلة تشمل كذلك الجوانب التى لم يكن فى حياتهم مثيل لها... ولك أن تراجع كتاب الأخلاق لمسكويه فتراه يأخذ عن التصور اليونانى لعلم الأخلاق أصولاً كثيرة، فلم يقلقه هذا الأخذ ولا أقلق سواه مع أن الموضوع خاص بالأخلاق وتنظيرها، مما كان يمكن للمعترض على متابعة اليونان فيه أن يجد الكثير الذى يعترض به، إذ الأخلاق تمس صورة الحياة الإنسانية فى الصميم، فإذا كان هذا هو موقف القدماء فى مشكلة التراث أيامهم أليس الأجدر به أن يكون هو موقفنا اليوم إزاء المشكلة ذاتها؟" (ص١١ - ١٢).

وتثير هذه العبارة مجموعة من الأسئلة التى تتعلق بالعديد من القضايا البالغة الأهمية والتى تدور حول ما الذى نأخذه من التراث، وما الذى نرفضه، وما هو معيار القبول ومعيار الرفض، وما حقيقة ما يثيره ضعاف العقول فى هذه الأيام حول الغزو

الفكرى، وأن الظلام من الغرب، إلى أخر تلك القضايا والمشكلات الهامة، والتى لا نجد مفكرنا زكى نجيب محمود حريصاً على دراستها والإشارة إليها فى هذا الكتاب، كتاب بذور وجذور فحسب، بل نراه حريصاً على دراستها وتحليلها وسبر أغوارها فى عشرات الكتب الخالدة التى قدمها لمكتبتنا العربية بينها الشرق الفنان، وتجديد الفكر العربى، والمعقول واللامعقول، وثقافتنا فى مواجهة العصر، وذلك على النحو الذى أشرنا إليه منذ قليل.

وينتقل بنا مفكرنا الشامخ إلى الحديث عن البذرة الخامسة من بذور الشجرة الثقافية كما هى قائمة بيننا، وهى التى تتعلق باللغة. ويذكر لنا مفكرنا عدة جوانب تتعلق باللغة ويبين لنا أن هنالك ضربين من استعمال اللغة، فهى إما تشير إلى واقعة من وقائع العالم من حولنا، وعندئذ يستطيع المتلقى أن يراجع صدقها على الواقعة المشار إليها، وإما تشير إلى حالة خاصة عند المتكلم، كأن يقول إنه يشعر بالظمأ، وعندئذ ليس فى وسع أحد أن يراجع قوله تصديقاً أو تكذيباً. وهذا الجانب الشعورى ينقسم بدوره إلى قسمين، أولهما أن يجيئ الكلام من النوع الذى يتبادل الناس به أحاديثهم بغير قيد ولا شرط، والثانى هو أن يصب الكلام فى صورة تجعله أدباً، فيكون قصيدة من الشعر، أو رواية أو مسرحية وعندئذ تكون له ضوابط يمكن على أساسها أن يناقش من الآخرين قبولاً ورفضاً. (ص١٢ - ١٣).

ويبين لنا زكى نجيب محمود أننا نقع فى الكثير من الأخطاء والخلط بغير حدود وذلك حين لا نتبين الفرق بين المجالين. يقول زكى نجيب محمود موضحاً ذلك: ووجه الخلط الذى نغرق فيه حتى أذقاننا ونتعرض - بالتالى - لما ليس له حدود من التخبط الفكرى، هو أن المتكلم أو الكاتب قد يقول عما يشعر به هو شعوراً خاصاً، ثم يلزم الآخرين بأن يتقبلوا قوله دون أن يكون لهم حق المعارضة بأن ما قاله بضاعة خاصة به، هو حر فى قبولها، والآخرون بدورهم أحرار فيما يشعرون به أو لا

يشعرون... إن اللغة التى من شأنها - إذا أحسن استخدامها - أن تنير الطريق إلى معرفة صحيحة بالعالم، قد أصبحت فى حالات كثيرة وسيلة إظلام يلفنا بضبابه ونحن على وهم بأننا فى مسقط النور (ص١٢ - ١٣)

إن هذا القول من جانب زكى نجيب محمود يعد دستوراً لنا فى حياتنا الفكرية وذلك إذا درسناه وفهمناه حق الفهم. والواقع أن رائدنا الكبير قد أخلص إخلاصاً لا حد له بدراسة اللغة وفلسفتها، بدراسة العلم وفلسفته. وهذه الدراسة المتأنية من جانبه ترتبط ارتباطاً رئيسياً بمحاولته الكبرى فى مجال تجديد الفكر العربى. لقد أعانه التعمق فى اللغة وفلسفتها، على التمييز بين المعقول واللامعقول، التمييز بين الصواب والخطأ. فهل يعلم ذلك من يقولون بأن محاولة زكى نجيب محمود فى مجال تجديد الفكر العربى تتعارض مع دراساته العلمية والمنطقية. لقد وجد من أشباه المثقفين من يقول بذلك. وكنت حين أطلع على أقوالهم أقول فلتذهب هذه الأقوال الساذجة إلى الجحيم وبئس المصير لأنها تعد جهلاً على جهل ومكانها الحقيقى هو سلة المهملات.

هذه هى البذور الخمس التى يتحدث عنها رائدنا العملاق زكى نجيب محمود حديثاً آية فى الدقة والعمق. بل إنه يلخصها فى آخر إشارته إليها وذلك حين يقول: لقد جعلنا البذرة الأولى هوية تحطمت عناصرها حتى لقد فقد الفرد انتماءه، وجعلنا البذرة الثانية فهماً مخطئاً للإنسان، بحيث أخرجناه من مدار العقل لنضعه على أفلاك اللامعقول، فتقطعت وسائل التفاهم بين الناس، وكانت البذرة الثالثة ثقافة بلا غاية يتغياها المبدعون كل بوسيطه الخاص بميدانه، فانعكس هذا التيه على المستقبلين، وكانت البذرة الرابعة عن التراث، فقد جعلناه هماً لنا بالليل ومشغلة لنا بالنهار، لأننا أخطأنا تحديد البؤرة التى يجب أن يتجه إليها البصر، وأما البذرة الخامسة فهى طريقة استخدامنا للغة فى حياتنا الفكرية، إذا تحولت على أيدينا إلى أداة

لا تؤدى، وكان الأساس فيها أن تكون أداة توصيل من متكلم إلى سامع، أو من كاتب إلى قارئ. (ص١٣– ١٤).

ويحدثنا زكى نجيب محمود عن الجذور، كما تحدث عن البذور. لقد تفرعت مجموعة من الجذور عن تلك البذور.

ومن بين تلك الجذور، أن العملية الفكرية فى أى ميدان من ميادينها لم تجد الغذاء الصحى الذى يغذيها فتنمو وتنتج، وإذا كانت مقومات الحياة الثقافية أربعة أساسية: دين وفكر وأدب وفن، فإن الفكر فى حياتنا هو أضعف الأربعة بلا نزاع (ص١٤).

وإذا كان الجذر الأول يتعلق بالمنهج بوجه عام، فإن الجذر الثانى من جذور الضعف فى حياتنا هو ما يتعلق بالتعليم.

ويواصل مفكرنا الشامخ زكى نجيب محمود حديثه عن الجذور من خلال نظرة نقدية واعية شاملة قل أن نجد لها نظيراً بين مفكرينا العرب المعاصرين، ومن هم من أهل التنوير ابتداء من رفاعة الطهطاوى. إننا نجد مفكرنا يتحدث عن حقوق المواطن وغيرها من حقوق خاصة بالفرد من جهة والمجتمع من جهة أخرى. لقد وضع زكى نجيب يده على موضع الداء وقدم لنا الدواء، ليتنا نستمع إلى كلماته الدقيقة الرائعة التى تكشف لنا عن عقلية شامخة، عقلية رائدة. إنه يتحدث كالحكيم العميق الحكمة. الحكيم الذى يملأ بقاع الأرض علماً. إنه يعلن فى صراحة ووضوح وأثناء دراسته لآخر الجذور التى حدد عددها بخمسة، أنه لا طريق لنا إلا بالتمسك بالتنوير. استمع إليه وهو يقول فى آخر سطور مقدمته لكتابه الخالد، "بذور وجذور": لما كان التغير الدائب مؤدياً بالضرورة إلى التفكير فى "المصير"، كان مما يلفت النظر ما نلحظه من ميل سائد فى مجتمعنا نحو العودة إلى الماضى نحتكم إليه فى أمور حاضرنا فيضيع منا المصير، كمن يلوى عنقه لينظر وراءه، فلا يرى فجوة شقت الأرض

أمامه إلا بعد أن يقع فيها. ولا أمل لنا في القضاء على هذه النظرة الورائية إلا بحركة قوية نحو التنوير، وما التنوير سوى، السير نحو النور، والطريق إلى التنوير هو تربية وتثقيف وإعلام تتآزر كلها على الإعلاء من شأن العقل كلما أردنا أن نرسم لأنفسنا سبيلاً يحقق لنا هدفاً. (ص١٢).

والحديث عن البذور والجذور بالصورة التى أشرنا إليها نجده شائعاً فى دراسة رائدنا زكى نجيب محمود لكل الموضوعات التى اختارها والتى يضمها كتابه بذور وجذور، ذلك الكتاب الذى زادت صفحاته عن أربعمائة صفحة. لقد كانت موضوعات كتابه على النحو التالى:

- نافخ النار.
- تلك المعزوفة الكبرى.
- كان حلماً وما زال حلماً.
- موطن الداء.
- تلك أم المشكلات.
- حاطب الليل.
- حقائق الأشياء وظلالها.
- لولا اخترقنا هذا الجدار.
- من ذا يزيح هذا الضباب؟
- وقفة عملية هادئة.
- فطرة الإنسان تهديه.
- طريق القدماء طريقنا... ولكن.
- ضمائر العلماء.
- لجاج واختصام.

- صورة مضغرة.
- وللحرية شيطانها.
- رواية وراويها.
- على سبيل الفكاهة.
- اختلط الحابل بالنابل.
- غمار الناس والصفوة.
- الإمام الغزالى تحاوره حواسه.
- الشجرة المباركة.
- عن العقل ونضجه.

ونلاحظ أن النظرة التجديدية العقلية العلمية تسود دراسة زكى نجيب محمود لكل الموضوعات التى اختارها مجالاً لدراسته تحت هذه العناوين التى ذكرناها الآن.

نعم إن النزعة التنويرية هى النزعة التى يتمسك بها زكى نجيب محمود طوال حياته. وعلى سبيل المثال نجده فى مقالته عن الشجرة المباركة يبين لنا الصلة بين العلم والنور فهو يقول: الصلة بين "العلم" و"النور" شئ معروف مألوف حتى لنسمع عبارة "العلم نور" شائعة على الألسنة بين عامة الناس فضلاً عن خاصتهم وإنه لقول صادق إلى آخر حدود الصدق برغم ما فيه من مجاز. فالنور يقشع الظلام عن الأشياء فتراها الأبصار بعد أن لم تكن رأتها وهى ملتفة بظلامها، وكذلك يفعل "العلم" بشئ ما لأنه يتيح لصاحبه أن يرى من تفصيلات ذلك الشئ ومن حقائق طبيعته ما يتيح له أن يستخدمه وهو آمن، فلا فرق إذن بين "نور" يبين معالم الطريق، و"علم" يبين معالم الأشياء فنطوعها كيف شئنا. (ص٣٨٣).

ومن هذا المنطلق يحلل رائدنا زكى نجيب الآية القرآنية: "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم". سورة النور آية (٣٥).

لقد حلل زكى نجيب محمود هذه الآية تحليلاً غاية فى الدقة والروعة (من ص٣٨٣ إلى ص٣٩٤)، وكان ذلك بعد قراءته لكتاب مشكاة الأنوار للغزالى منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً. ويربط بين أول الآية (الله نور السموات والأرض) وآخر الآية (والله بكل شئ عليم)، كما يربط بين حركة التنوير عند العرب، وحركة التنوير فى التاريخ الأوروبى الحديث. إن هذا الربط لا يستطيع أن يقوم به إلا كاتب جبار مثل زكى نجيب محمود. كاتب ملأ بقاع الأرض علماً ومعرفة. إنه يربط بين التنوير والعلم، يربط بين التنوير والعقل. فهو يقول: فلما جاء القرن العاشر وامتداده فى الحادى عشر، بلغ التنوير ذروته، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة دائرة المعارف التى هى عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات، وكانت الفلسفة قد بلغت ذروتها عند الفارابى وابن سينا مما يشير إلى سلطان العقل" (ص٣٩٣).

والواقع أنه ليس بالإمكان الإشارة ولو مجرد إشارة إلى الدروس الرائعة التى يمكن أن يستفيدها القارئ والدارس من خلال تحليله لهذا الكتاب، وخاصة فى حدود النطاق المرسوم للمقالة. إن النزعة التنويرية وإقامتها على أساس العقل والعلم، والربط بين التنوير عند أجدادنا القدامى من أمثال إخوان الصفا والفارابى وابن سينا، والتنوير فى الفكر الأوروبى عند أمثال فولتير وكانت الفيلسوف الألمانى، لا نجده فى مقالته عن الشجرة المباركة فحسب، بل نجده فى العديد من مقالاته ومن

بينها على سبيل المثال لا الحصر، طريق القدماء طريقنا ولكن، ومقالته عن العقل ونضجه... إلخ.

وإذا كنا قد أشرنا إلى البذور والجذور التى كشف عنها زكى نجيب محمود، فى الصفحات الأولى من كتابه، فإننا نجد تطبيقات عديدة لإشاراته الذكية الرائعة والعميقة فى العديد من صفحات كتابه، ومن بينها مقالة بعنوان "من ذا يزيح هذا الضباب" (من ص١٤١ إلى ص١٥٥)، ومقالة بعنوان "وقفة عملية هادئة" (من ص١٥٧ إلى ص١٧٢)، ومقالة بعنوان نافخ النار (من ص ٢٣ إلى ص٣٦).

ولا يخفى هرمنا الفكرى الشامخ زكى نجيب محمود قلقه على ما صارت إليه أحوالنا الثقافية. إنه يقول فى مقالته عن "حقائق الأشياء وظلالها": والذى أزعمه عن حياتنا الثقافية اليوم، هو أن هذا الجانب الفكرى منها الذى لا هو إبداع أدبى أو فنى، ولا هو من زمرة العلوم، قد ضعفت فى نفوسنا نبرته وفترت فى سلوكنا دفعته المحركة الموجهة، وربما نتج ذلك بسبب ضحالة من ننعتهم "بالمفكرين" ضحالة نشأت عن أكثر من سبب واحد فهنالك الظروف الإجتماعية والسياسية التى مالت بالناس نحو رفض عصرهم، هروباً إلى الماضى ليختاروا منه ركناً آمناً هادئاً لا يتعرضون فيه لعواصف الأقوياء الذين هم أعداؤهم ومستعمروهم. والقابضون على رقابهم بقوة العلم أولاً، وقوة المال التى ترتبت على نتائج العلم ثانياً، وقوة السلاح التى نتجت عنهما معاً"(ص١٢١ – ١٢٢).

وهكذا ينتقل زكى نجيب محمود من سبب إلى آخر، من المقدمات إلى النتائج وبكل صدق وموضوعية. وكم أشار إلى العديد من القضايا الفكرية والإجتماعية والسياسية التى تهم أبناء أمتنا العربية من الخليج إلى المحيط، وقدم لنا آراء غاية فى الجرأة والدقة ليتنا نستفيد منها ونضعها موضع اعتبارنا وذلك إذا أردنا لأمتنا سبيل التقدم والرقى.

إن إحاطة رائدنا ومعلمنا الكبير زكى نجيب محمود بكل موضوع تصدى لدراسته بين صفحات كتابه "بذور وجذور" تعد إحاطة شاملة وغاية فى الدقة وتكشف عن اطلاع غزير على الثقافتين العربية والغربية وتدلنا على إحاطته الشاملة بالثقافة العربية فى قديمها وجديدها.

إن الدكتور زكى نجيب محمود من خلال صفحات هذا الكتاب، وبقية كتبه الأخرى، يعبر عن شموخ فكرى صادر عن إيمان بالعقل، إيمان بالتنوير، إيمان بالعلم. وستظل كتاباته خالدة أبد الدهر، لأنها تعد معبرة عن سمو فكرى جعله يقف على قمة عصرنا. إنه الرائد والمعلم والعملاق والهرم الفكرى الشامخ فى حياتنا العربية المعاصرة. ومن حقنا أن نفخر بكتاباته ومن واجبنا دراستها وتلقى ما فيها من دروس، وما أعظمها وما أروعها من دروس.

الفصل الخامس عشر

يوسف كرم وكتاب تذكارى عنه بعنوان:

يوسف كرم مفكراً عربياً ومؤرخاً للفلسفة

إشراف وتصدير: عاطف العراقى

تصدير للكتاب التذكارى[١] بعنوان: يوسف كرم[٢] مفكراً عربياً ومؤرخاً للفلسفة

يحتل الأستاذ يوسف كرم فى تاريخ الفكر الفلسفى المصرى المعاصر مكانة كبيرة. لقد ترك لنا العديد من الكتب القيمة والمقالات والدراسات الهامة والتى يمكن أن يستغنى عنها الدارس للفكر الفلسفى طوال عصوره من قريب أو من بعيد. ويكفى يوسف كرم فخراً أنه قام بمفرده بتأليف موسوعته الضخمة التى تعرض لآراء الفلاسفة طوال عصور الفلسفة. ونقصد بتلك الموسوعة، ثلاثيته المعروفة: تاريخ الفلسفة اليونانية، وتاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، وتاريخ الفلسفة الحديثة.

وحاول يوسف كرم أن يبين لنا حقيقة رأيه واتجاهه الفلسفى، وموقفه النقدى والإيجابى إزاء التيارات الفلسفية والإتجاهات الفكرية. وكل هذا نجده واضحاً غاية الوضوح فى كتابيه "العقل والوجود" و"الطبيعة وما بعد الطبيعة" بالإضافة إلى العديد من المقالات والدراسات التى تركها لنا وسواء أكانت باللغة العربية أو كانت باللغة الفرنسية.

يعد يوسف كرم إذن، علماً وعلماً بارزاً من أعلام فكرنا الفلسفى المعاصر. إنه قمة من القمم الفلسفية الكبرى التى نعتز بها ونفخر بمكانتها فى كل زمان وكل مكان.

وإذا كانت لجنة الفلسفة والإجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة قد وضعت فى الإعتبار إصدار مجموعة من الكتب التذكارية التى تتناول العديد من الدراسات عن أعلام بارزين سواء كانوا من القدامى أمثال الصوفى الشهير محيى الدين بن عربى

---

[١] راجع الفصل الذى كتبناه عن يوسف كرم فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر.

[٢] الكتاب: إشراف وتصدير: عاطف العراقى - المجلس الأعلى للثقافة.

صاحب القول بوحدة الوجود، والسهروردى، أو كانوا من المعاصرين أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق،وأحمد لطفى السيد، فإنها قد وجدت من واجبها إصدار كتاب عن يوسف كرم وقد عهدت إلىّ الإشراف على هذا الكتاب.

لقد كان صاحب الفضل فى توجيه اللجنة إلى إصدار كتاب عن يوسف كرم، الأستاذ الكبير والمفكر الشامخ العملاق، الدكتور زكى نجيب محمود، مقرر لجنة الفلسفة والإجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة وقد تفضل مشكوراً بتشجيع هذا العمل وتذليل كل العقبات والمصاعب، إيماناً من جانبه بأهمية موقع يوسف كرم على خريطة فكرنا الفلسفى المعاصر، وبصماته البارزة الواضحة على مجال الفلسفة فى مصر المعاصرة.

وقد رأت اللجنة أن يتضمن الكتاب، الدراسات التى تتعلق بيوسف كرم وفكره الفلسفى، ومجموعة من الدراسات المهداة إليه والتى تدرس وتحلل موضوعات فلسفية وفكرية شتى وليس من الضرورى أن تكون متصلة اتصالاً مباشراً بيوسف كرم. هذا بالإضافة إلى ترجمة العديد من محاضرات يوسف كرم والتى ألقاها باللغة الفرنسية فى الحلقة التوماوية والمنشورة فى كراسات الحلقة التوماوية فى دير الآباء الدومينيكان بالقاهرة، وأيضاً مجموعة من مقالاته المنشورة فى العديد من الدوريات، وبعضها يتضمن عرضاً نقدياً لمجموعة من الكتب الفلسفية التى صدرت بمصر.

وأود قبل الحديث عن أهم المجالات التى تدخل فى إطار هذا الكتاب التذكارى، أن أشير إشارة موجزة إلى الحياة الفكرية لأستاذنا الكبير يوسف كرم وأهم مؤلفاته مستعيناً فى ذلك بالعديد من الأوراق والدراسات التى تفضل أستاذى الأب الدكتور جورج قنواتى باطلاعى عليها فى مكتبة دير الآباء الدومينيكان بالقاهرة.

لقد كان اليوم الثامن من شهر سبتمبر عام ١٨٨٦ هو يوم مولد يوسف كرم بطنطا محافظة الغربية حيث تلقى فيها دراسته فى المدرسة الإبتدائية والمدرسة الثانوية (مدرسة سان جورج ومدرسة القديس لويس) كما سافر إلى فرنسا حيث التحق بالجامعة الكاثوليكية، وحصل على دبلوم الدراسات العليا من جامعة السوربون كما اشتغل بالتدريس فترة من الزمان بإحدى المدارس الثانوية الفرنسية.

وقد قام يوسف كرم بتدريس الفلسفة فى جامعتى القاهرة والإسكندرية. وتوفى رائدنا الكبير فى الثامن والعشرين من شهر مايو عام ١٩٥٩م.

لقد كانت حياة يوسف كرم تمثل خير تمثيل حياة العازف عن الدنيا ومشاغلها الحسية الزائلة. لقد ارتضى لنفسه حياة الفكر، وظل طوال حياته بعيداً عن أضواء الشهرة وبريق السلطان وأجهد نفسه إجهاداً شديداً فى حياة الدرس والتحصيل والتأليف. وكتاباته تعد غاية فى الدقة والتركيز الشديد. وقد أثمرت تلك الحياة التى لا تخلو من قسوة وصرامة، العديد من الأعمال الفكرية الرائعة. وبالإضافة إلى ما ذكرناه من كتب للأستاذ يوسف كرم، نود أن نشير إلى أنه ترك لنا العديد من الثمار الفكرية الرائعة ومن بينها المعجم الفلسفى، ودروس فى تاريخ الفلسفة وهو الكتاب الذى اشترك فيه مع الدكتور إبراهيم مدكور. وأيضاً العديد من الترجمات لكتب فرنسية ككتاب ثلاثة دروس فى ديكارت وهى محاضرات الكسندر كواريه، ونفسية الأحكام التقويمية وهى محاضرات للعلامة أندريه لالاند. وهذا كله بالإضافة إلى العديد من البحوث والمحاضرات باللغة الفرنسية وقد نشرت أغلب هذه البحوث والمحاضرات فى المحلة التوماوية كما سبق أن أشرنا منذ قليل. ومن بين موضوعات هذه البحوث والمحاضرات بالفرنسية، "حملة الغزالى على الفلاسفة"، و"مفهوم الفلسفة المسيحية"، و"فكرة الفلسفة عند القديس توما الأكوينى، و"المدينة الفاضلة عند الفارابى"، و"القلق الإنسانى فى الفكر اليونانى" و"آراء إخوان الصفا الفلسفية"،

و"الأفلاطونية والمسيحية"، و"مشكلة الشر"، و"المذهب التوماوى" و"مذهب ديكارت".

ثمار فكرية رائعة تركها لنا يوسف كرم والذى يعد أستاذا بكل ما تحمله كلمة الأستاذ من معان ومدلولات. وكم أثرت هذه الدراسات تأثيراً بالغاً فى المجال الفلسفى والحقل الفكرى. وكل كتاب تركه لنا هذا الأستاذ والمعلم إنما يعد ثمرة لفكره العميق ودقته الفلسفية والتزامه بخصائص الفكر الفلسفى لا الفكر الخطابى الإنشائى، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى التغافل عن الثمار الفكرية الرائعة التى تركها لنا يوسف كرم. لقد عاش للفلسفة وأخلص لها منذسنوات عمره الأولى، ومن هنا فإنه يستحق منا – كما قلت – كل احترام وتقدير. وإذا لم يكن هذا الأستاذ قد نال حظه من الشهرة والتقدير لأنه عاش صامتاً زاهداً، بل فقيراً معدماً، فإنه من الواجب علينا أن نسلط الضوء على حياته وكتبه وإذا لم نفعل ذلك فإننا نكون فى عداد الحيوانات ولا يصح أن ننتسب كأفراد فى المملكة الإنسانية. لقد دافع يوسف كرم عن العقل دفاعاً مجيداً وإذا كنت أختلف معه فى رأى أو أكثر من الآراء التى قال بها فإن هذا الإختلاف يعد دليلاً على ثراء فكره وعمق اتجاهه.

قلنا إن يوسف كرم قد درس آراء الفلاسفة الذين وجدوا منذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى أيامه التى عاش فيها. ولم يكن موقفه من آراء هؤلاء الفلاسفة هو موقف المؤيد والمتفرج، بل كان موقفه هو موقف الناقد. إنه يعرض آراء الفلاسفة عرضاً أميناً ودقيقاً وموضوعياً ثم بعد ذلك نجده يتفق مع هذا الفيلسوف أو ذاك تارة ويختلف معه تارة أخرى. وهذا يدلنا على عقليته الدقيقة وحسه النقدى وليرجع القارئ إلى كتبه ومقالاته ودراساته وسيجد مصداق ما نقول به.

من أجل هذا كله كان من الواجب إصدار كتاب تذكارى عن هذا الأستاذ والرائد. ولعل هذا الكتاب يكون بداية لكتب أخرى يقوم بها الدارسون والباحثون والذين يهتمون بالفكر الفلسفى طوال عصوره، إذ أننى اعترف بأن هذا الكتاب التذكارى لا يتضمن إلا أقل القليل عن الرجل وفكره وآرائه التى تعد فى حقيقتها ثرية غاية الثراء، عميقة غاية العمق. وإذا كان أستاذنا يوسف كرم قد تأثر تأثرا كبيراً بآراء القديس توما الأكوينى والذى يعد من أعظم فلاسفة المسيحية فى العصر الوسيط، وبحيث يمكن اعتبار آراء يوسف كرم تعبيراً عن توماوية جديدة، إلا أنه لم يقف – كما قلنا – عند آراء فيلسوف معين، بل إنه كان مضيفاً إلى الآراء التى استفاد منها.

ويتضمن الكتاب الذى نقدمه اليوم للقارئ مجموعة من الأقسام والمجالات يجد القارئ فى قسم من الأقسام مجموعة من المقالات والدراسات عن يوسف كرم. وفكره وبعض كتبه. فكتب الأستاذ الكبير الدكتور إبراهيم مدكور عن يوسف كرم مؤرخ الفلسفة، والأب الدكتور جورج شحاته قنواتى عن "يوسف كرم من خلال رسائله"، والأستاذ الدكتور مراد وهبه عن "يوسف كرم، الفيلسوف العقلى المعتدل" والأستاذ سعيد زايد عن يوسف كرم وكتابه العقل والوجود، والدكتورة نبيلة زكرى زكى عن كتاب الطبيعة وما بعد الطبيعة. وهذه المقالات أو الدراسات تلقى الكثير من الضوء على يوسف كرم، شخصيته وفكره ومنهجه وطبيعة آرائه.

ويجد القارئ فى قسم آخر من أقسام الكتاب مجموعة من الدراسات التحليلية فى موضوعات فلسفية شتى، وأكثرها ليس بعيد الصلة عن اهتمامات يوسف كرم. وقد حرصنا على أن يتضمن الكتاب التذكارى هذا النوع من الدراسات وذلك حتى نجمع فى الكتاب بين الدراسات التى تتعلق بيوسف كرم مباشرة، والدراسات التى تعد من نوع الدراسات المهداة.

فكتب الأستاذ الكبير الدكتور توفيق الطويل عن "دور الدين والأخلاق فى بناء الثقافة فى مصر المعاصرة". وحلل الأستاذ الدكتور يحيى هويدى موضوع "وحدة المعرفة - الفلسفة والعلم والدين". ودرس الأستاذ الدكتور محمود زيدان "مذاهب الشك ومواجهتها". واختار الأستاذ الدكتور أحمد محمود صبحى موضوعاً لبحثه هو "بين ديمقراطية أثينا ودكتاتورية اسبرطة". وكتب الأستاذ الدكتور عزت قرنى فى موضوع "حول بعض جوانب الغموض فى محاورة ثياتيتوس لأفلاطون بين الفكر والمعرفة. ودرس الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق "مفهوم المسئولية فى الحضارة الحديثة" وقدم لنا الأستاذ الدكتور عبد القادر محمود دراسته عن علم من أعلام صوفية القرن السابع الهجرى وهو "المكزون السنجارى". واختارت الزميلة الدكتورة سهير أبو وافية موضوعا لبحثها وهو: "الشك واليقين فى فلسفة اليونان والمسلمين. أما الزميلة الدكتورة زينب محمود الخضيرى فكان موضوع بحثها: "الفيلسوف اليهودى سليمان بن جيبرول بين اليهود والمسيحيين. واختار كاتب هذه السطور موضوعا لبحثه هو "الإنسان عند فلاسفة المغرب العربى".

وإذا كنت قد أشرت أثناء حديثى عن أعمال يوسف كرم الفكرية، إلى أهمية محاضراته وبحوثه باللغة الفرنسية والمنشورة فى كراسات الحلقة التوماوية بدير الآباء الدومينيكان بالقاهرة، ونظراً لأن قراء الفلسفة والمهتمين بها قد لا يعلمون شيئاً عنها رغم أهمية موضوعاتها، فقد رأينا أن يتضمن الكتاب ترجمة عربية لأكثر هذه المحاضرات والبحوث وقد قام بترجمة بعضها الأب الدكتور جورج قنواتى، وقامت بترجمة بعضها الآخر الزميلة الفاضلة السيدة الدكتورة زينب محمود الخضيرى.

أما عن مقالاته بالمجلات والدوريات المصرية كمجلة الكتاب ومجلة الكاتب المصرى فقد اخترنا بعضها، وسواء كانت تبحث فى موضوعات فلسفية، أو كانت تتضمن عرضاً نقدياً من جانبه لكتاب أو أكثر من الكتب التى كانت تصدر بالقاهرة.

ويجد القارئ بيانات وافية عن موضوعات هذه المقالات فى فهرست الكتاب التذكارى.

كما حرصنا على أن يتضمن الكتاب آراء بعض أساتذة الفلسفة فى كتاب أو أكثر من كتبه ككتاب تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، وكتاب تاريخ الفلسفة الحديثة.

أما المقالات التى كتبها زملاؤه وأصدقاؤه بعد وفاته والتى نشرت فى مجلة ميديو الفرنسية، فقد حرصنا على نشرها. وقد قام العالم الجليل الأب الدكتور جورج قنواتى بترجمتها إلى اللغة العربية. وهذه المقالات إن دلتنا على شئ فإنما تدلنا على المكانة الكبيرة التى يحتلها يوسف كرم فى نفوس أصدقائه وزملائه. لقد كتب هذه المقالات الأساتذة الدكاترة: إبراهيم مدكور، ومحمد يوسف موسى، وعثمان أمين، ونجيب بلدى، ومراد وهبه؛ فكتب الدكتور إبراهيم مدكور عن "الزميل يوسف كرم"، وكتب الدكتور محمد يوسف موسى: "إلى صديقى يوسف كرم" وكتب الدكتور عثمان أمين، "يوسف كرم الفيلسوف". وكتب الدكتور نجيب بلدى عن "الفلسفة العربية بين التشدد والترحيب" وكان عنوان مقالة الدكتور مراد وهبه، "توفى يوسف كرم". كما شارك فى هذه المقالات الأب الدكتور جورج قنواتى وقام بالتقديم لها بكلمات مؤثرة يقول فيها: "انتقل إلى رحمة الله فى ٢٨ مايو عام ١٩٥٩ فى هدوء بمدينة طنطا بعد مرض طويل، الأستاذ يوسف كرم وقبل ذلك بعشرة أيام كنا كالمعتاد قد ذهبنا لنزوره فى منزله الهادئ. ولو أنه كان متعبا ولكن لم يكن باديا عليه ما ينبئ بنهاية سريعة على هذا النحو. فكان يواصل على المهل وبصعوبة مؤلفه الخاص بالأخلاق، وكان يشرع أن يجمع فى كتاب آخر أروع النصوص الخاصة بالتصوف. وفوق كل هذا كان على عادته مستسلما فى تواضع إلى الإرادة الإلهية، وقابلا مسبقا بدافع من حب عميق ما قدره الله له." والقارئ للكلمات التى قالها الأصدقاء والزملاء بعد وفاته يشعر بالدور الكبير والحيوى والفعال الذى أداه يوسف كرم فى حياتنا الفلسفية المعاصرة. ومن يحاول أن يتخطى هذا الدور فوقته ضائع

عبثاً. وليت شبابنا فى هذا الجيل الضائع يفعل مثل ما كان يفعل يوسف كرم. إن نمط الحياة التى عاشها يوسف كرم تقدم لنا أبلغ الدروس وأعمقها. إنه يقدم لنا مثالاً يحتذى، يقدم لنا القدوة بأجل معانيها وأسمى جوانبها. تعطينا حياته دروساً فى التواضع وهدوء النفس وكيفية البحث عن الحقيقة والبعد عن بريق الحياة الزائلة وبحيث يقترب الإنسان ويتمسك بكل ما هو ثابت، بكل ما هو خالد، بكل ما هو إنسانى فى حقيقته وجوهره. إن حياة يوسف كرم الفكرية تقدم لنا نموذج الإنسان كما ينبغى أن يكون الإنسان وليت شبابنا - كما قلت يأخذون من حياته الفكرية دروساً عديدة، ما أروعها من دروس، لأنها تمثل لنا "المثال" و"النموذج" ولا تعبر عن "الأشباه" و"الظلال".

وأجد واجباً علىّ فى ختام تصديرى لهذا الكتاب أن أتوجه بخالص الشكر وعميق التقدير إلى كل أساتذتى وزملائى الذين شاركوا مشاركة فعالة فى التعاون معى بصورة أو بأخرى من صور التعاون الفكرى وما أكثرها. لقد كان الإتصال بينى وبينهم مستمراً وكم عقدنا الإجتماعات واستمر الحوار بيننا لساعات وساعات ومنذ اللحظات الأولى لتكليفى بالإشراف على هذا العمل.

وإذا كان القدر قد شاء أن أكتب هذا التصدير فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر من هذا العام، أى بعد قرن من الزمان على مولد أستاذنا الكبير يوسف كرم، فإننا نرجو أن يكون هذا العمل فاتحة لدراسات أخرى حول الرجل وفكره، وما أكثر المجالات التى بحث فيها مفكرنا يوسف كرم والتى تعد جديرة بإلقاء الأضواء عليها وفهمها حق الفهم وسبر أغوارها. لقد دخل يوسف كرم عن طريق أعماله الفلسفية الرائعة، تاريخ فكرنا الفلسفى المعاصر من أوسع أبوابه ومن واجب محبى الفلسفة فى كل زمان وكل مكان الإهتمام بدراسة أفكاره وما أعمقها. والله هو الموفق للسداد.

القاهرة فى ٨ سبتمبر عام ١٩٨٦م.

عاطف العراقى

محتويات الفهرس

كتـــب للمــؤلـــف

- النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السادسة.
- الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثانية.
- مذاهب فلاسفة المشرق - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الحادية عشر.
- تجديد فى المذاهب الفلسفية والكلامية - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السادسة.
- ثورة العقل فى الفلسفة العربية - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السابعة.
- الميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثالثة.
- الفلسفة الإسلامية - دار المعارف.
- العقل والتنوير فى الفكر العربى المعاصر - القاهرة - دار قباء - الطبعة الثانية.
- الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل - القاهرة - دار الرشاد.
- الفلسفة العربية (مدخل جديد) دار لونجمان.
- محاضرات فى تاريخ العلوم عند العرب - القاهرة - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم.
- محاضرات فى الفلسفة الإسلامية - القاهرة - معهد الدراسات الإسلامية.
- الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية - القاهرة - دار قباء (أربعون عاماً من ذكرياتى مع فكره التنويرى).
- الأصول والفروع لابن حزم - تحقيق بالاشتراك - دار النهضة العربية.
- الإسلام دين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده - تحقيق ودراسة نقدية الطبعة الثانية - دار قباء - القاهرة.
- رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده - تحقيق وتصدير - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.
- يوسف كرم مفكرا عربيا ومؤرخا للفلسفة - كتاب تذكارى - إشراف وتصدير المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.
- الدكتور أبو الوفا التفتازانى - كتاب تذكارى - إشراف وتصدير - دار قباء - القاهرة.
- الشيخ مصطفى عبد الرازق - كتاب تذكارى - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.

- محمد اقبال وقضية التجديد (ضمن كتاب عن محمد اقبال - القاهرة - مكتبة مدبولي)
- تصدير لكتاب الدكتور عثمان أمين (محمد عبده رائد الفكر المصري) القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة.
- دراسات في الكتب التذكارية التي صدرت عن د. إبراهيم مدكور، و د.عثمان أمين. وأحمد لطفي السيد، د. شوقي ضيف، والشيخ محمد عبده، د. توفيق الطويل، د. زكي نجيب محمود (جامعة الكويت)، د. زكي نجيب محمود (المجلس الأعلى للثقافة) د. علي سامي النشار، والفيلسوف ابن رشد، ويوسف كرم، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة.
- ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة - القضايا والمشكلات - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية.
- ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة -"كتب وشخصيات جـ١" - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية.
- ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة - "كتب وشخصيات جـ٢" - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية.

ويصدر قريبا للمؤلف:

- هل في عالمنا العربي المعاصر فلاسفة؟
- نحن والتراث.
- ابن باجة فيلسوفاً مغترباً.
- ثقافة النور وخرافة الظلام.
- كتاب تذكاري عن الأب الدكتور جورج قنواتي (إشراف وتصدير).
- كتاب تذكاري عن الدكتور زكي نجيب محمود (إشراف وتصدير).

